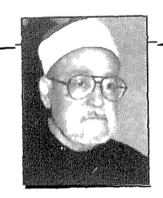
إسلامية المعرفة

مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي

عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي
(١٣٤١-١٤١٦هـ/١٩١٧-١٩٩٦م)

السنة الثانية — العدد السابع — رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م



محمد الغزالي

* ولد الشيخ محمد الغزالي السقا في ٣٠ محرم ١٣٤١هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٩١٧م بقرية «نكلا العنب» مركز ايتاي البارود بمحافظة البحيرة بمصر.
* تلقى تعليمه الأولي والثانوي في معهد الاسكندرية الديني.
* التحق بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م وكان الشيخ عبد المجيد اللبان عميداً للكلية ومن أساتذته فيها الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد يوسف موسى والشيخ محمد غلاب.
* عُيّن سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء، بالقاهرة.
* كان الشيخ الغزالي من أوائل الأعضاء البارزين في جماعة الإخوان المسلمين وكان مقرباً للشيخ حسن البنا، وفي أوائل الخمسينيات عمل في مجالات الحركة الإسلامية دون انتماء لجماعة من الجماعات.
* ترقى الشيخ الغزالي في مناصب وزارة الأوقاف فعين مستشارًا في المساجد ثم واعظًا في الأزهر الشريف ثم وكيلاً لقسم المساجد ومديراً للمساجد ومديراً للتدريب وفي عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م عين مديرًا عامًا للدعوة والإرشاد، وفي نفس العام انتدب وكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.
* أعير أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
* عيّن سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م وكيلاً لوزارة الأوقاف، لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.
* عملِ بجامعة قطر، كما عُيّن رئيساً للمجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينة/ الجزائر إلى أن استقال سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
* للشيخ الغزالي في مجال التأليف دراسات متنوعة تنتشر بين الجماهير وتعدت مؤلفاته إلى أكثر من خمسين كتابًا كان أولها «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، وآخر ما صدر له كتابه عن «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم» في ٣ مجلدات، كما ترجمت بعض أعماله إلى عدة لغات.
* زار الشيخ الغزالي معظم الدول العربية والعديد من الدول الأفريقية والآسيوية والأوروبية والأمريكية للمشاركة في نشاطات الدعوة الإسلامية.
* رأس الشيخ الغزالي - في السنوات الأخيرة - المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة.
* انتقل الشيخ إلى رحمة الله في ١٩ شوال ١٤١٦هـ الموافق ٩ مارس ١٩٩٦، أثناء مشاركته في ندوة فكرية بالرياض، ودفن بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

إسلامية المعرفة

مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي

السنة الثانية | العدد السابع | رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م

مستشارو التحرير

المراسلات

The Editor, *Islāmīyat al Ma 'rifah*
International Institute of Islamic Thought-Malaysia
c/o IIUM, P.O. Box 70 Jalan Sultan
46700 Petaling Jaya, Selangor, Malaysia
Tel: (603) 757 1639, (603) 790 3546
Fax: (603) 756 1413

التنضيد والإخراج والطباعة: مؤسسة انترناشيونال جرافيكس

International Graphics 10710 Tucker Street, Beltsville, Maryland 20705-2223 USA

Tel: (301) 595 5999 Fax: (301) 595 5888 E-mail:igfx@aol.com



كلمة التحرير

بحوث ودراسات

بيبليوغرافيا

قواعد النشر

- تنشر المجلة البحوث العلمية والمقالات الفكرية التي تتحقق فيها شروط الأصالة والإحاطة والاستقصاء والعمق والموضوعية والمنهجية والرجوع إلى المصادر الأصلية وأسلوب البحث العلمي بالطريقة المتعارف عليها.

- يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر.

- تعرض البحوث المقدمة على محكمين من داخل هيئة التحرير أو من مستشاري المجلة، وتبقى أسماء الباحثين والمحكمين مكتومة، ويطلب من الباحث إعادة النظر في بحثه في ضوء ملاحظات المحكمين.

- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر صاحبه، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد ولا تسترد سواء نشرت أم لم تنشر، ولا تلتزم المجلة بإبداء أسباب عدم النشر.

- ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث.

- يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور، ويكون للمجلة حق إعادة نشر البحث منفصلا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

شيخنا محمد الغزالي رحمه الله[1] وصفحات من حياته

رئيس التحرير

حين يذكر الشيخ محمد الغزالي تتبادر إلى الأذهان جملة خصال قلَّ أن تتوافر كلها أو تجتمع بجملتها في عَالِم معاصر، ومن هذه الخصال الحميدة:

١ ـ الاجتهاد القائم على سعة الإسلام ومرونته ومقاصد شريعته وكليات مصادره، وغاياته العليا.

٢ ـ السماحة والاعتدال اللّذان ينبّهان بوضوح إلى الفهم الدقيق لـ "وسطية الإسلام"، والإدراك العميق لقيمه العليا (التوحيد والعمران والتزكية)، والفقه المستفيض في معيار الإسلام الأساس (العدل) الذي منه انبثق "الاعتدال"، واشتقّت "الوسطية".

٣ ـ الغيرة الصادقة على "الأمة القطب" التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلا عن دمه وجسده،غيرةً صادقةً على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ووحدتها.

٤ ـ القدرة النقدية، والطاقة العقلية، والمعرفة المتنوعة الواسعة، والذكاء الخارق اللمّاح، والطاقة المتجددة المتطلعة ـ على الدوام ـ إلى معرفة الجديد والمزيد في كل ما من شأنه أن يخدم هذه الأمة وقضاياها المتشعبة.

٥ ـ الحب والوفاء لربه ولنبيه ودينه وأمته ورفاقه وتلامذته، يساعده على ذلك قلب كبير نقي من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية، خالص للإيمان والحب والوفاء.

ذلك إلى خصال أخرى كثيرة تحدَّث عنها المتحدثون من محبيه وتلامذته وعارفي فضله قبل أن يرحل عن دنيانا وبعد ذلك.

ولا أود أن أعيد شيئا مما قالوه، ولكنني أود أن أفتح صفحات معدودة من حياته الحافلة، لأنّ فيها من الدروس والعبر ما هو جدير بالإذاعة والإشاعة.

وسأبدأ بالعلاقة الوثيقة التي ربطت بين **الشيخ الغزالي** و"المعهد العالمي للفكر الإسلامي"، وما كان لها من أثر في بعض توجيهاته الفكرية.

بدأت صلة **الشيخ الغزالي** بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي بعلاقات الصداقة الوثيقة والحميمة التي ربطت بينه وبين رجال المعهد ومؤسسيه قبل أن يؤسس رسميا في الولايات المتحدة الأمريكية.

فالشهيد الدكتور **إسماعيل الفاروقي** قد اتصلت أواصر الصداقة بينه وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ منذ أن ترجم إلى اللغة الإنجليزية كتابه **من هنا نعلم** الذي رد **الشيخ** فيه على كتاب **من هنا نبدأ** للشيخ **خالد محمد خالد** ـ رحمهم الله جميعاً. يقول الشيهد **الفاروقي**: "كنت قد اطلعت على الكتابين: **من هنا نبدأ ومن هنا نعلم**، وأعجبت برد **الشيخ** أسلوبًا ومضمونًا، وقرَّرت أن أترجم الكتاب لقرَّاء الإنجليزية ليعرف الأمريكان موقف المسلمين الحقيقي من الشيوعية والاشتراكية ونحوها، ففعلت ذلك بعد استئذان **الشيخ** الذي سُرَّ بذلك وسَعدَ به".

وحين استشهد **الدكتور الفاروقي** غيلة عام ١٩٨٦م **نعاه الشيخ الغزالي** إلى الأمة في بعض الصحف التي كان يكتب لها، وذكر أن الشهيد كان صديقا عزيزاً له، وأنه أول من قدمه إلى قراء الإنجليزية في ترجمة كتابه ذاك، وأشار إلى خسارة الأمة باستشهاده.

كما أن علاقة مودة وإخاء كانت قد ربطت بين **الشيخ** رحمه الله والأخ الدكتور **عبد الحميد أبو سليمان** قبل سفر **الشيخ** إلى السعودية، وزدادت تلك الصلة وثوقًا بعد ذلك واستمرَّت حتى وفاة الشيخ عليه رحمة الله.

أما كاتب هذه السطور فقد بدأت علاقته بالشيخ في وقت مبكر امتد من أيام دراسته في الأزهر واستمر حتى وفاة الشيخ رضي الله عنه.

العودة إلى مصر

وحين لاحظ بعض المهتمين ما كان يجري في مصر وفي العالم العربي من اضطراب فكري مع فقدان المرجعية الرشيدة، والفراغ الكبير، كان **الشيخ الغزالي** في مقدمة الأسماء القليلة التي تحضر إلى الذهن لشغل ذلك الفراغ وملء موقع المرجعية. وكنا نرى أن ذلك يمكن أن يتم بعودة **الشيخ** إلى مصر، وتبوئه موقعاً ملائماً يتيح له ملء هذا الفراغ.

كان بعض محبي الشيخ وتلامذته يرون أن لا يعود الشيخ من الجزائر إلى مصر إلا شيخاً للأزهر أو مرشداً عاماً للإخوان المسلمين فمنصب شيخ الأزهر خاصة بثقله التاريخي، وسمعته الدينية حين يحتله شخص بوزن **الشيخ الغزالي** ومستوى حضوره ستعود إليه مكانته في الداخل وفي الخارج، وسيتمكن من استقطاب البقية الباقية من العلماء ليعطي للأزهر من جديد آفاقه العالمية، ووظيفته القيادية. وصفات الشيخ ومناقبه الشخصية، وقدراته الخطابية والكتابية وسمعته وصيته، كل ذلك سيكون رصيداً فعالاً في تحقيق هذا الهدف، وفي تحريك كثير من المؤسسات الإسلامية الأخرى التي قد يسهم تحريكها في إعادة مصر لممارسة أثر إسلامي مهم في الداخل وفي الخارج؛ وقد يقضي ذلك على الكثير من أسباب التأزم بين الإسلاميين والنظام داخل مصر

وحين بدأ بعضهم مساعيهم الحميدة لإقناع القيادة السياسية بهذه الفكرة تضافرت عدة تيارات متذرعة بأسباب عديدة لإحباط هذه المحاولة: منها أن تاريخ **الشيخ** الحافل بالكفاح على جبهات عديدة أوجد كثيراً من المخاوف من أن **الشيخ** قد يحرك كل هذه المؤسسات التي ألفت أن يكون على قمة الهرم فيها رجال لا تتجاوز اهتماماتهم الدائرة العلمية المتخصصة بكثير. أما **الشيخ الغزالي** فمن المتعذر لشخص مثله أن يحصر اهتماماته بهذه الدائرة، فطبيعة الداعية فيه والهموم التي يحملها، وتتبعه لقضايا الإسلام والمسلمين في سائر بقاع الأرض، كل ذلك سيتغلب على طبيعة المنصب، فهو من تلامذة الحركة الإصلاحية الذين لم يكونوا يعرفون الفواصل بين الشأن الدعوي والشأن السياسي والاجتماعي، فكل هموم الأمة همومهم، وكل ثغورها يجب أن تجد من يقف عليها.

ولم ينس له بعض المعارضين لتسلمه المشيخة آنذاك ملاحظاته حول الدستور المصري، فقد كان من أبرز أسباب خلافه مع نظام يوليو في مراحلة الأولى تعطيل دستور ١٩٢٣م؛ فهو لم يقتنع بما اقتنع به بعض قادة الإخوان آنذاك، من أن تعطيل الدستور قد تم لأن رجال الثورة يريدون وضع دستور يجسد المبادئ والقيم الإسلامية ويسهم الإخوان أنفسهم في صياغته. وحتى بعد أن تم تشكيل لجنة الخمسين عضواً لوضع الدستور الجديد لم تهدأ مخاوف الشيخ، وأشار إلى خطورة أن تبقى البلاد بدون دستور ولو ليوم واحد، ودافع عن كثير من مواد ذلك الدستور المعطل، كما اعترض بعد ذلك على ما أُدخل على الدستور من تعديلات في عهد رئيس مصر الرَّاحل أنور السادات. ولم يتردد الشيخ في إبداء اعتراضه المعلن وموقفه المعارض لزيارة الرئيس السادات إلى القدس، ولم يخف نقده لقانون الأحوال الشخصية الذي صدر في عهده.

كذلك اعتبرت أجهزة الأمن الشيخ محرِّضاً على مظاهرة إسلامية انطلقت من الأزهر وبقيادة بعض شيوخه ردّاً على مظاهرة علمانية مؤيدة لقانون الأحوال الشخصية في القاهرة آنذاك، ولم ينس له بعضهم نقده اللاّذع للممارسات والأخطاء الحكومية التي أدت إلى هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م، مما دفع الرئيس الرَّاحل أنور السادات إلى إصدار أمر باعتقاله أثناء وجوده خارج مصر في الجزائر للمشاركة في ملتقى إسلامي فيها.

المهم أن هذه الأمور ـ كلها ـ مع طبيعة المرحلة ومتغيراتها المختلفة حالت دون قبول فكرة تعيين الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ شيخاً للأزهر الشريف.

الغزالي ومنصب المرشد

أما الاقتراح الثاني فقد حالت دون قبوله ـ كذلك ـ بعض الأسباب؛ فالاقتراح كان يستند أساساً إلى كون الشيخ واحداً من أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين الأحياء في ذلك العهد، وإلى أن مكانته العلمية، وشخصيته وسمعته سيكون عائدها خيرا على كيان الجماعة وسمعتها، وأن تسنمه لقيادة الجماعة قد يسمح بإيجاد علاقات طبيعية مفتوحة مع نظام الحكم في مصر ومع النظم الأخرى خارجها. وقد يسمح كذلك بانفتاح الجماعة على التيارات السياسية المختلفة، وينقي سمعة الجماعة من سائر ما علق بها أثناء اختلافها

وصراعاتها مع نظام الرئيس **جمال عبد الناصر**. وكان هناك اعتقاد بأن صفات الشيخ وطبيعته المنفتحة ستسهّل إعادة توحيد الصفوف الإسلامية في مصر وبناء الجبهة الداخلية، وتنهي مرحلة الفصام بين رجال الفكر والدعوة، ورجال الفقه والحركة.

أما الاعتراض على هذه الفكرة فقد كان يستند إلى أن **الشيخ الغزالي** وإن كان مِنْ أعضاء "الهيئة التأسيسية للجماعة"، إلا أنه ليس الأسن بينهم؛ فالأستاذ **محمد حامد أبو النصر** ـ رحمه الله ـ كان أسن منه. كما أن فترة سجنه لم تطل كما طال سجن غيره بسبب تخليه عن معارضة الرئيس **عبد الناصر**. وقد اعتبر اختلافه مع المرشد **حسن الهضيبي** ـ رحمه الله ـ وفصله من الجماعة عام ١٩٥٣م بعد سبعة عشر عاماً من العمل داخلها، دليلا على عدم الانضباط، وعدم الالتزام بالقواعد التنظيمية.

ومع أن ذلك ـ كله ـ قد نوقش، وبيَّن الذين تبنّوا فكرة ترشيح **الشيخ الغزالي** لمنصب "المرشد" ضعف ما ذكر من اعتراضات، وتهافته أمام الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تجنيها الجماعة، بل والعمل الإسلامي بصفة عامة من اختياره مرشداً للجماعة، إلا أن المحاولة قد أخفقت، وانتهت بالرفض التام. ولم يشفع **للشيخ** تتلمذه المخلص على الأستاذ الشهيد **حسن البنا**، وانفعاله الكامل بشخصيته، حتى إنه ليكاد يتمثل شخصيته فضلا عن هضمه لفكره، واستيعابه لعلومه وآدابه. وهؤلاء كان من بينهم مَنْ إذا جلسوا مجالس المراجعة لتاريخ الأمة كثيراً ما يتمنون لو أن أمير المؤمنين علياً جاء بعد أمير المؤمنين عمر دون فواصل، ويؤكدون أنه لو حدث هذا لتغير تاريخ الأمة، ولتغير حالها. ومع سائر الفوارق التي لا تحصى، هل لنا أن نقول: لو أن رجلا بوزن **الشيخ الغزالي** ـ رحمه الله ـ تسنم زمام إرشاد هذه الجماعة خلال السبعينيات وما تلاها لكان الحال غير الحال!! ولكن قدَّر الله وما شاء فعل.

تتلمذه على دروس الشهيد حسن البنا

قد لا يدري الكثيرون أن خطب **الشيخ الغزالي** ودروسه في الأزهر وفي جامع عمرو بن العاص وغيرهما من المساجد في القاهرة وغيرها من مدن مصر، ومحاضراته في الجيش المصري قبل ١٩٧٣م وفي طلاب الجامعات المصرية،

وكذلك دروسه في جامعة أم القرى وفي الجزائر، ما كانت إلا تلخيصاً دقيقاً لدروس الشهيد **حسن البنا** خاصة، ودروس قادة التيارات الإصلاحية من أواخر القرن الماضي وأوائل هذه القرن، مع ما يضيفه **الشيخ** من فيض علومه وصائب فكره، ولذلك كان ـ رحمه الله ـ ينفعل بما يقول أكثر مما ينفعل به سامعوه!!

الشيخ و المعهد العالمي للفكر الإسلامي

وكان يمكن **للشيخ** ـ بعد إخفاق المسعيين الآنفي الذكر ـ أن يعيش خارج مصر أستاذاً في جامعة من الجامعات، يبث أفكاره وتجاربه وخبراته بين طلابه ومريديه فيمتلئ وقته، ويشعر بالسعادة التي يحتاجها ليستمرَّ في حالة الإنتاج والعطاء. إلا أن القائمين على أمر المعهد رأوا أنه لابد من البحث عن بديل **للشيخ**، والعمل على استقراره في مصر، بحيث تُهيأ له في حدود الإمكانات المتواضعة للمعهد سبيل البقاء فيها. فالجميع كانوا يعرفون مزايا **الشيخ** ويقدرونها، ويدركون أن فاعلية هذه المزايا ستتضاعف أضعافاً كثيرة بوجوده في مصر، فهناك ارتباط وثيق بين شخصية **الشيخ الغزالي** وشخصية مصر، وعبقرية الرجل وعبقرية المكان ـ كما يقول عالم الجغرافيا المصري جمال حمدان. وكلفني مجلس أمناء المعهد بالعمل على تحقيق ذلك فسافرت إلى **الشيخ** وفاتحته بالأمر، وشرحت له أبعاده كلها.

فهش رحمه الله لذلك وبش، وقدّر العرض كثيراً ودعا للمعهد وللقائمين عليه، ورأى المعهد وفكره امتداداً حقيقياً لمسيرة الحركة الإصلاحية. وتم التفاهم على جدول زمني يعود **الشيخ** فيه إلى مصر، ليكون رئيس المجلس العلمي لمكتب المعهد فيها، وواحداً من أبرز مستشاريه وموجهي مسيرته. وقد كان "المجلس العلمي" لمكتب المعهد في القاهرة يضم نخبة من المفكرين، لا على مستوى مصر وحدها، بل على مستوى أعم وأشمل. فقد كان هذا المجلس يضم الأستاذ الدكتور **أحمد كمال أبو المجد**، والأستاذ المستشار **طارق البشري**، والأستاذ الدكتور **محمد عمارة**، والأستاذ الدكتور **محمد عثمان نجاتي**، والأستاذ الدكتور **محمد سليم العوا**، والأستاذ الدكتور **جمال الدين عطية**، ثم انضم إليه الأستاذ الدكتور **سيد دسوقي حسن** والأستاذ الدكتور **علي جمعة عبد الوهاب** والأستاذ الدكتور **عبد الوهاب المسيري**، والأستاذة الدكتورة

زهيرة عابدين، يضاف إلى هؤلاء مجموعة من الأساتذة الخبراء الذين للمجلس أن يدعوهم للاستماع إلى آرائهم إذا ما عرضت أمور تحتاج إلى خبرات أو تخصصات إضافيّة.

وكان هذا المجلس يجتمع شهرياً ـ أو كلما دعت الحاجة ـ في مكتب **الشيخ الغزالي** الذي يقع تحت منزله، وقد كانت تلك المرحلة مرحلة إنتاج خصب على مستوى الندوات والمحاضرات والبحوث، وكان الشيخ واسطة العقد في كل تلك النشاطات قَلَّ أن يتخلف عن ندوة أو محاضرة أو لقاء.

وفي هذه المرحلة أعد **الشيخ** دراساته القيمة في كيفية التعامل مع القرآن، وكيفية التعامل مع التراث الإسلامي، وقضايا الفنون وموقف الإسلام منها، وكثير من القضايا الأخرى.

وصدر له عدد من الكتب المهمة هي: **كيف نتعامل مع القرآن**، و **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، **والتفسير الموضوعي**، **وتراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، وما يقرب من ألف محاضرة ومقالة كبيرة وصغيرة. وقد كان أهم ما تميز فكر **الشيخ الغزالي** به في هذه المرحلة أن صار فكراً كثيراً ما يتعرض للحوار والمناقشة الجماعية من خلال لقاءات المعهد وندواته ومجالسه، قبل أن يصوغه **الشيخ** ويضعه في قالبه الأخير.

وهذه ميزة لم تتوافر لفكر **الشيخ** في كتبه الأخرى إلا في **فقه السيرة**، وما ورد فيه من الأحاديث، ودراسات محدودة أخرى جرى إعدادها أثناء التعليم والتدريس، سواء في السعودية أو في الجزائر أو في زياراته لقَطَر.

وفي تلك المرحلة المباركة من عمر **الشيخ**، أتيح له تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء. فقد قرّر المعهد تنفيذ مشروع لتسجيل خبرات جملة من أعلام العصر وخلاصة تجاربهم في الحياة بالصوت والصورة، على أن يتم استخلاص تلك الخبرات والتجارب بحوارات علميّة مكثفة يقوم بها أساتذة محاورون أكفاء بعد دراسة مستفيضة في تراث من يجري الحوار معه وإنتاجه العلمي. وتقرر البدء بكل من **الشيخ الغزالي** والدكتور **زكي نجيب محمود**. وجُمعت كتب **الشيخ** وقدمت لمجموعة من أفضل المفكرين لدراستها أولاً، ليقوموا بمحاورة **الشيخ** في أفكاره، ويتتبعوا مسيرة حياته العلمية والفكرية ويبرزوا جوانب مختلفة من مقوّمات شخصيّته ومكوناتها. وكان من بين من

حاوروا **الشيخ** الأستاذ **المستشار طارق البشري**، والأستاذ الدكتور **محمد سليم العوا**، والأستاذ الدكتور **محمد كمال إمام**، والأستاذ الدكتور **جمال الدين عطية**، والأستاذ الدكتور **محمد عمارة**، والأستاذة **صافيناز كاظم**. وقد أربت هذه التسجيلات المصورة على خمس عشرة ساعة تولت بالتحليل والحوار أهم جوانب حياة **الشيخ** الحافلة؛ ولعل من أهم ما ورد فيها أنها عالجت "ما وراء" فكر الشيخ الذي دُوِّنَ في كتبه ودروسه ومقالاته. كما أنها تعرضت لتقديم تفسيرات مباشرة وصريحة لكثير من الأحداث والمواقف التي لم يعرف المتصلون بحياة **الشيخ** أو معظمهم تفسيرًا صريحًا لها.

وقد اشتملت تلك التسجيلات على نوع من ممارسة النقد الذاتي، والمراجعات التي لم تعد معطيات عصرنا تسمح بها أو تتسع لمثلها حيث ساد التعالم الكاذب، والإصرار على المواقف حقها وباطلها؛ لكن **الشيخ** ـ رحمه الله ـ رجل أوّاب، سرعان ما يرجع إلى الحق أو الصواب أو الرأي الراجح إذا عرفه. فهو يروي قصة رجوعه عن نقد بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين اشتهروا بمعارضة **الإمام علي** كرم الله وجهه ورضي عنه، فيقول: "دعاني **الباقوري** يوماً لمنزله، وكنت صديقاً له، فما أن جلستُ حتى قال: "ما الذي بينك وبين **عمرو بن العاص** يا شيخ محمد؟ فقلت: ليس بيني وبينه شيء اللهم إلا أنني أخطب في جامع عمرو الجمعة. قال **الباقوري**: دعك من هذا واستمع لرؤياي هذه، ولك ـ بعد ذلك ـ تأويلها. ثم قال الباقوري: "رأيت فيما يرى النائم وأنا في منزلي هذا أن منادياً ينادي: الوالي قادم، الوالي قادم! فتساءلت: ومن هو الوالي فأجابوا: **عمرو بن العاص**. فدخل فنظرت إليه فهبته، ثم قال عمرو: قل للشيخ الغزالي: إني قد عفوت عن انتقاصه ونقده لي لأنه قد عمّر مسجدي". يقول **الشيخ الغزالي**: فأجهشت بالبكاء، وأدركت أن في الرؤيا إشارة إلى شيء كان في نفسي، وكنت أصرح ببعضه أحيانا، وهو كراهيتي لمحاربي **علي** ومخالفيه من الصحابة، وبخاصة **معاوية وعمرو**. وبعد أن فرغت، قلت للباقوري: إنني أعلن أمامك توبتي ورجوعي عن ذلك: فكل من صحبوا رسول الله ـ ﷺ ـ يجب أن يُتركوا لله ولرسوله، فذلك هو الأولى والأليق بنا، ولا ينبغي أن نضع مسؤولية خيبتنا وتراجعنا عليهم". وما يدريني ما أكون لولا عمرو لعلني لو لم يدخل عمرو مصر ويفتحها بالإسلام وله، أكنت الآن من المسلمين؟"

تعميره مسجد عمرو بن العاص

كان مسجد عمرو بن العاص - فاتح مصر - في مدينة الفسطاط جنوبي القاهرة، في منطقة شعبية عرفت "بمصر القديمة"، أحيط بالمباني العشوائية المتواضعة ومصانع الآجر ومدابغ الجلود فأصابه إهمال شديد، وبقي مجرد أثر من الآثار الإسلامية في مصر. لكن مسؤولية إدارة مسجد عمرو بن العاص بقيت منوطة بوزارة الأوقاف، فهيئة الآثار ترى الأوقاف مسؤولة عنه وعن ترميمه والمحافظة عليه، وتتوقع منها أن تتولى ذلك، حتى كاد أول جامع في مصر أن يضيع ويندثر. ولما تولى الدكتور **عبد الحليم محمود** - رحمه الله - وزارة الأوقاف كان **الشيخ الغزالي** معه مديراً عاماً للمساجد. فاستدعى الدكتورُ **عبدُ الحليم الشيخ الغزالي** وطلب منه أن يتولى خطابة الجمعة في جامع عمرٍو، وفي هذا يقول الشيخ الغزالي: "فقلت **للشيخ عبد الحليم**، وكان رجلا صالحا: لقد كنت أخطب في الأزهر، ثم منعت من الخطابة فيه، ولا مانع لدي من أن أعود للخطابة فيه". قال: "فأطرق **الشيخ عبد الحليم** قليلاً، ثم قال: أريدك أن تخطب في جامع عمرو بدءً من الجمعة القادمة". يقول **الغزالي**: "كنا في يوم الثلاثاء، فقلت له: أعطني فرصة حتى أهيء الجامع، قال **الشيخ عبد الحليم**: ستخطب الجمعة القادمة في جامع عمرو". يقول **الشيخ الغزالي**: "فذهبت إلى المسجد فوجدت الأتربة المتراكمة والقمامة قد بلغت في بعض جوانبه ما بين الأرض والسقف، فدعوت طلابي الذين كنت أدرس لهم في الأزهر - وكانوا حوالي خمسين - وأخبرتهم بما جرى، وطلبت منهم مساعدتي على إعداد جامع عمرو لصلاة الجمعة، فتم ذلك في وقت قصير. وبعد أن سمع طلابي في جامعة القاهرة وغيرها احتجوا أنني لم أشركهم مع طلاب الأزهر في هذا الخير.

وبعد أن صليت الجمعة الأولى أدركت أن الله - تعالى - قد ألهم الرجل الصالح **الشيخ عبد الحليم محمود** ليعمر هذا المسجد المبارك ويحييه، ليكون شاهدا على عراقة انتماء هذا البلد وشعبه إلى الإسلام، وصدقه في حمل رسالته.

وقررت أن أجعل من خطبتي فيه سلسلة متصلة من التفسير الموضوعي لآيات الكتاب الكريم، وأن أبدأ من أول القرآن واستمر حتى نهايته إن شاء الله ومدّ في الأجل. ولم تمض جمعتان أو ثلاث حتى صار الجامع الكبير يضيق بالمصلين على اتساعه، وكان كثير من المصلين يأتون من خارج القاهرة في

سيارات نقل يستأجرونها". ويقول الشيخ: "ولقد واصلت ذلك حتى بلغت سورة النساء. وفي تلك الفترة كان قانون "الأحوال الشخصية" يُعرَض على البرلمان، فظن أنور السادات أنني تعمدت تفسير آيات من هذه السورة في هذه الفترة لبيان مخالفات هذا القانون لأحكام القرآن، فمنعني من الخطابة في وقت كان عدد المصلين قد قارب خمسة عشر ألفا أو يزيدون".

وهنا قرَّر الشيخ الهجرة إلى مكة المكرمة، حيث عمل أستاذا في أم القرى، ومتحدثا في الإذاعة، وكاتباً في كثير من المجلات والجرائد السعودية حتى بلغت أحاديثه المذاعة ألف حديث، معظمها مسلسلات في إذاعة القرآن الكريم.

الشيخ الغزالي والجيش المصري

الشيخ الغزالي شاهد على مراحل حرجة من حياة مصر وجيشها وشعبها (سنة ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٧٣م)، ويرى في منتسبيه - جنودًا وضباطًا وضباط صف - عناصر مخلصة مستعدة للتضحية والبذل والفداء، وله رأي في قيادات الحروب الثلاث الأولى. ويرى في هزيمة ١٩٦٧م هزيمة كبرى وعاراً ألحقته "القيادة الغافلة المخدرة" - حسب تعبيره - بجيش وشعب لا يستحقان ذلك منها، وقد منحاها كل الولاء والتأييد. ويرى في استبداد القيادة وإهمالها لأبسط قواعد الشورى أو الديمقراطية أسباباً مباشرة في الهزيمة، وقد كتب في ذلك وتحدث باستفاضة. وفي معرض الحديث عن حرب العاشر من رمضان سنة ثلاث وسبعين، يرى أن من أهم أسباب النصر في الانطلاقة الأولى للحرب تلك الروح المعنوية الإسلامية العالية التي استطاع أن يبثها في أبناء القوات المسلحة خمسون مرشداً من أفضل وأعظم الدعاة والخطباء الأزهريين، كان على رأسهم الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ الغزالي نفسه. فهؤلاء المرشدون هم الذين استطاعوا تعبئة أبناء القوات المسلحة تعبئة نفسية عالية جعلت من كثير منهم نماذج يمكن أن توضع بجانب تلك النماذج الحية التي تتابعت قوافلها منذ عصر النبوة حتى يومنا هذا. لقد كان يقول لأبناء الجيش المصري مثلا: "...الإيمان مواقف، وهناك أناس متخصصون في الهروب من المواقف إلى مواقف أخرى، هي الباطل بعينه وإن لبست أحياناً ثوب التدين؛ فالفرار من الجهاد لا يغني عنه المكث في صحن المسجد". ويقول: "إن أزمة الشهامة دليل على فتور روح التدين والرجولة وانطلاق السعار الحيواني دون قلق، والأمر يحتاج إلى معالجة

سريعة؛ فإن استقرار المنكر على هـذا النحـو إيـدان بـالانحدار والضيـاع وتتـابع الهزائم المذلة".

لقد استطاع الشيخ الغزالي ورفاقه أن يعيدوا بنـاء نفسية المقـاتل المصري بناءً إسلاميًا، وأن يبثوا في شرايينه الدماء التي كانت تحتاجها معركـة الأمـة مـع أعدائها ومنتهكي حرماتها، وغاصبي أرضها، ومهددي أمنها.

رحـم الله الشيخ الغـزالي وتقبلـه في الصـالحين، فـالحديث عنـه طلـيّ، والذكريات معه تترى.

لقد فقدت فيه الأمة علما مـن أعلامهـا النجبـاء، وفقـد فيـه المعهـد الموجـه الفاعل، والرائد الأمين.

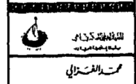
ووفاءً لذكراه وعرفانًا لفضله، فقد رأت إدارة مجلة إسـلامية المعرفـة وهيئـة تحريرها إصدار عدد خاص عنه للحديث عن شخصيته وعلمه وجهاده في سبيل إصلاح شأن الأمة وتجديد ثقافتها واسـتنهاض طاقاتهـا كـي تسـتأنف مسـيرتها الرسالية قائمة بالعدل شاهدة على الناس بالحق.

وقد أسهم في مادة هذا العدد كوكبة من أبناء الأمة ذوي تخصصات علميـة واهتمامات فكرية متنوعة، فكانت إسهاماتهـم جميعـا إبـرازًا لجوانـب وأبعـاد في شخصية الشيخ وفكره تنم كلها عن ثراء مسيرته وتنـوع عطائـه وغـزارة تراثـه العلمـي، ونحـن لا ندعـي أن مـادة العـدد قـد اسـتنفدت دراسـة كـل الجوانـب والأبعاد في شخصية الشيخ وفكره، فما نقدمه هنا ليـس إلا فتحـا للبـاب ولفتـا للانتبـاه حتـى يقـوم المهتمـون بمسـيرة الفكـر الإسـلامي والدارسـون لقضايـاه بدراسات أكثر شمولا تنظر إلى إسهامات الشيخ الغـزالي في علاقتهـا وتفاعلهـا مع غيرها من الإسهامات وفي سياق حركة التجديد الفكري والإصلاح الثقـافي والاجتماعي التي انطلقت منذ منتصف القرن الماضي

وقد حظينا في هذا العدد بنشر مقالة دبجتها يراع الشـيخ في الأيام الأخـيرة من حياته هي مقالة الإسلام والثقافة العربية في حياتنا المعـاصرة، كمـا حظينـا بنشر مقتطفات من مذكراته التي هي الآن قيد الإعداد للنشر في كتاب.

ألا جزى الله الشيخ الغزالي عن الإسـلام وأمتـه بخـير مـا يجـزي بـه عبـاده الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

طه جابر العلواني



تراثنا الفكري

في ميزان الشرع والعقل

محمد الغزالي

ط 3 , 1996
218 صفحة
6x9 بوصة
8 دولار

الرقم الدولي الموحد للكتاب 2-90-912463-0

الكتاب حديث حـول العلوم النقلية الإسلاميـة، وطرائق تدريسـها ووجوب النظر في إعادة بنـاء برامجها، وإصلاح مـختلف جوانب العملـية التعليـميـة المتعلقة بهـا، حتى تتـمكن هذه العلوم من أداء دورها الأسـاسـي المطـلوب في بناء النسق الثـقـافي الإسـلامي وإسلامية المعرفة الإنسانية والإجتماعية.

يفتح المـؤلف ملف هذا النوع من الدراسات والمؤسـسات القـائمة عليها لإعادة النظر في قراءة هذه العلوم وإصلاح مناهج تدريسها وتقويمهـا، وإصلاح مؤسساتهـا وتحديد أهدافها بشكـل يساعد على تنظيم أعـمالها وتلبـية حـاجات الأمة المتنوعـة من هذا النوع المتخـصص فتكلم عن الدين والمعـرفة وعن حـقائق في التـربية.. ولمحـة عن الابتـداع.. وإعـادة كـتـابة التـاريخ ثـم على هامش التفسير.. وهامش السنة. وبعد ذلك عن مستقبل العربية وآدابها. ومهـد لذلك بالكلام على إسلامـية المعـرفة، والمعرفـة الإسلامـية وسيـتبع هذا الكتـاب بحلقة أخـرى يتناول فيـها المؤلف مـجالات العلوم الإجتماعية والإنسانية. إن شاء الله تعالى

بحوث ودراسات

نظرات في تراث الشيخ محمد الغزالي

يوسف القرضاوي*

إعداد: بدران بن الحسن**

الغزالي رجل الدعوة

عرفت في الشيخ الغزالي أنه رجل دعوة قبل كل شيء، الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها، الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعول، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام لها كل جهده وجهاده، أخلص دينه لله، فأخلصه الله لدينه، أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكيه على الله عزّ وجلّ.

وقد أهل الشيخ للدعوة – بعد دراسته الأزهرية المعمقة– حفظه لكتاب الله من الصبا، وشغفه بالقراءة من الصغر، يقول: فقد كنت أقرأ في كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب عليّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأنا أتناول الطعام. وللقراءة أهمية خاصة لكل من يدعو إلى الله، بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء الفقيه والداعية. وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين.

إن القراءة– أي الثقافة– هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم. وكثيرًا ما يكون قصور الفقهاء

---

* دكتوراه في الفقه وأصوله من جامعة الأزهر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، رئيس مركز بحوث السنة بجامعة قطر

** طالب بقسم الماجستير كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

والدعاة راجعًا إلى فقرهم الثقافي. ولابد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء: يقرأ كتب الأيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ في الفلسفة. وباختصار يقرأ كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة.[1]

مرتكزات الفكر الدعوي عند الغزالي

أول هذه المرتكزات وأعظمها: **القرآن الكريم، والسنة النبوية** هي المصدر الثاني للشيخ، ومرتكزه الثالث: **التاريخ** الإنساني العام، والتاريخ الإسلامي وقمته السيرة النبوية، فهي بداية التاريخ الإسلامي، ونقطة انطلاقه.

والشيخ قارئ جيد للتاريخ، مدرك لوقائعه، وأحداثه، ومراحله وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته، ثم تراجعها، وتخلف الأمة وغلبة أعدائها، وأسباب ذلك.

ومرتكزه الرابع: **الثقافة العامة**، الثقافة الدينية، والإنسانية، فقد تخرج في كلية أصول الدين، وهي كلية الثقافة الإسلامية المتنوعة: التفسير والحديث والعقيدة والملل والنحل والمنطق والفلسفة والتصوف وعلم النفس والتاريخ وأصول الفقه. وكان الشيخ أزهريا متمكنا متفوقا، وأكد ذلك بدراسته في تخصص الدعوة والإرشاد. ثمّ أضاف إلى ذلك قراءته الخاصة، طوال حياته في مختلف حقول المعارف.

ومرتكزه الخامس: **الواقع**، وفقهه، عن طريق المعايشة والاطلاع، الواقع المحلي والإقليمي والإسلامي والواقع الدولي.

خصائص الداعية ومؤهلاته عند الغزالي

١ – العقل العلمي المبصر : في بواكير ما كتب الشيخ نقرأ في **الإسلام والأوضاع الاقتصادية** هذه الفقرات تحت عنوان (قيمة العقل في الدين): "إن حدة الذكاء ويقضة الفكر واستنارة الرأي عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!

فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران : ١٩٠).

---

[1] من أجوبة الشيخ في كتاب: علماء ومفكرون عرفتهم، للأستاذ محمد المجذوب.

والعقول الذكية وحدها هي التي تميز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزعات الهوى وتلفيق الضلال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الرعد:١٩).

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عبر الماضي، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال والأنذال، من المصلحين أو المفسدين:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف:١١١).

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص، والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الواسعة والمواهب الرائعة:﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:٢٦٩).

وتربية العقول، وإذكاء المواهب،وتفتيق الملكات الإنسانية، ليس أمرًا هيِّنا؛ فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم مالا نعرف إلى ما نعرف، والنظر في الجديد نظرة تلطف وإيلاف، لا نظرة جمود واعتساف، والتطويف في آفاق العوامل المادية والأدبية ـ هذه جميعًا وسائل لترقية العقل الإنساني، ثم هي بعدُ وسائل العقل السليم لمعرفة الله، وحسن الإيمان به والإفادة من دينه".[٢]

٢ – النفس الشاعرة: لم يقل الشيخ الغزالي الشعر كلاما موزونا مقفّى، ولكنه يحمل روح الشاعر، ونفس الفنان، الذي يتفاعل مع كل ما حوله، ويرى في كل نبتة في الأرض، أو نجمة في السماء، روحًا توحد الله، ولسانا يسبح بحمد الله.

وكم له من كلمات صورتها صورة النثر، وروحها روح الشعر. ومن رأيه: أنه لا يستطيع أن يخدم الإسلام بحق إلا ذو نفس شاعرة.

من قرأ للشيخ الغزالي أيقن أنه أديب عظيم متميز، له مذاقه الخاص، وأسلوبه الأصيل، لا يقلِّد أحدًا، ولا ينتمي إلى مدرسة أدبية معينة، وهو لا يحب أن ينتمي في الفكر أو في العلم أو في الأدب إلاّ إلى مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ.

ولو قدر له أن يتفرغ للأدب، لكان من أعظم الأدباء البارزين في العالم العربي، ولسبق اسمه كثيرًا من الأسماء المعروفة.

[٢] محمد الغزالي الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص١٠٥ـ١٠٦

٣ – الروحانية الدافقة: ومن الخصائص أو المؤهلات البارزة عند الغزالي:

الروحانية الغامرة الدافقة؛ وهذه الروحانية ضرورية لكل من يحدِّث الناس عن الله جل جلاله، ويدعوهم إلى وصل حبالهم به، وربطهم بهدي كتابه الكريم، وهدي رسوله العظيم ﷺ.

وهذه الروحانية الدافقة الصادقة لها مصدر فذ أوحد، هو حسن معرفة الله تعالى، وصدق الإيمان به، واليقين بلقائه وحسابه وجزائه، واستحضار القيامة كأنها رأي عين.

الغزالي بين العقل والقلب؛ يشيد الغزالي بالعقل، وينوه بالفكر والمنطق، ويحمل على البلداء والمغفلين، الذين يحمّلون الدين وزر بلادتهم وغباوتهم، ويسخر ممن يزعم أن أكثر أهل الجنة (البُله)، في حين يجعل القرآن أهل الجنة هم (أولي الألباب)!

إضافة الجانب الرباني إلى علم التوحيد؛ وهو يرى أن الثقافة الدينية لا تتم إلا باستكمال هذا الجانب الإيماني في نفس المسلم، من الخشية والرجاء والصبر والشكر والحب، ونحوها، من جملة الأخلاق التي يكون الإيمان بدونها صفرًا.

وهو لهذا يرى أن تدخل في علم العقيدة، ولا تترك للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل للطريق، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرققات القلوب، ومكانها الأول – في رأيه – في علم التوحيد، إذ لا دين مع فقدانها.

الغزالي . . رجل القرآن

الشيخ الغزالي رجل قرآني، فهو مع القرآن أبدًا، يديم القراءة له، والتأمل فيه، والتدبر لآياته.

حفظ القرآن حفظًا جيدًا منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عليه آية بأخرى، وهو يتلوه آناء الليل، وأطراف النهار، و لم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصحفه صدره.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانيه ومعارفه بين يديه، وكأنها جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ – منذ المراحل الأولى – وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معاني جديدة، يتخذ منها حجة في معركته ضد الظلم والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبي الفياض، وتعبيره البياني النابض بالحياة.

الدراسات القرآنية للشيخ:

وللشيخ في الدراسات القرآنية المحض جملة كتب منها: **نظرات في القرآن** وهو كتاب يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد. **والمحاور الخمسة للقرآن الكريم**، وهو من كتبه الأخيرة، التي بين فيها المحاور الأساسية التي تدور حولها سور القرآن وآياته. وهي: الله الواحد.. والكون الدال على خالقه.. والقصص القرآني.. والبعث والجزاء.. والتربية والتشريع.

ومنها: **التفسير الموضوعي للقرآن**، وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين، وهو يحاول أن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوساطها، وأن يتعرف على الرَّوابط الخفية التي تشدُّها كلها. وله في هذا المقام نظرات جديرة بالتأمل.

ضرورة العناية بالقرآن الكريم:

وفي مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه، يقول:الذي أراني مضطرًّا إلى التنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإنَّ ناسًا أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجورًا، فنمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمَّسوا حيث لا مكان للحماس، ويردوا حيث تجب الثورة!

إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة..

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نيِّر الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهدة القيامة وما وراءها، مشدود إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتمِّمة لهداياته فقد أوتي رشده.

الغزالي . . والسنة النبوية

القرآن الكريم هو المصدر الأول لفكر **الشيخ الغزالي** الدعوي والإصلاحي، والسنة هي المصدر الثاني. فهو يعتبر السنة ضرورة لفهم القرآن، فهي الشرح النظري، والتطبيق العملي له، وهو يحتفل احتفالاً خاصًا بالسيرة، باعتبارها الجانب العملي من السنة، حيث جعل الله نبيه

(الأسوة الحسنة): وهي تمثل الإسلام مجسَّدًا، والقرآن حيًّا، في مواقع ومواقف، تراها الأعين، وتلمسها الأيدي، ويتعظ بها الخاص والعام، وفي هذا صنَّف كتابه القيم: فقه السيرة.

زوبعة كتاب السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث

هذا الكتاب الذي أهاج عليه خصومات الكثيرين واستثار أقلامًا عدة لترد عليه بقسوة وحدّة، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق (العقلانيين). ولو أدى ذلك إلى ردّ بعض الأحاديث الثابتة في الصحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم أو منطق الدين نفسه، حسبما يراه.

والمبدأ مقرَّر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق.

وإنكار حديث أو حديثين أو ثلاثة، وإن ثبتت في الصحاح، لا يعني بحال إنكار السنة بوصفها أصلاً ثانيًا، ومصدرًا تاليًا للقرآن. ولو صح ذلك لأخرجنا أئمة كبارًا مثل أبي حنيفة ومالك من زمرة أهل السنة، لردهما أحاديث صحاح في العبادات أو المعاملات لم تثبت عندهما. بل لو صح ذلك لاتهمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأنها ردَّت على بعض الصحابة أحاديث رووها وسمعوها بآذانهم من النبي ﷺ؛ لأنها -في رأيها- مخالفة لما جاء في القرآن. فاتهمتهم بأنهم لم يحسنوا أن يسمعوا، أو لم يحسنوا أن يحفظوا.

والواقع أن معظم ما تضمنه كتاب الشيخ ليس جديدًا عن فكره، بل هو مبثوث في مختلف كتبه، ضم شتاته في هذا الكتاب، مع بعض أفكار جديدة، وكلمات شديدة، ولهذا أثار ما أثار من ضجيج.

منزلة السنة من القرآن

وقد تعرض لذلك مبكرًا في كتابه: فقه السيرة مبيِّنًا مكانة السنة من الكتاب حيث أكد أن القرآن هو قانون الإسلام، وأنّ السنة هي تطبيقه، وأن المسلم مكلَّف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه. وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه – في ذلك – لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة لله، وليست خضوعًا أعمى لواحد من الناس، قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠).[٣]

---

[٣] محمد الغزالي: فقه السيرة، ص٤٤-٤٦

وأبرز كتاب تناول فيه **الشيخ الغزالي** صلة السنة بالقرآن ومنزلتها منه هو كتاب **ليس من الإسلام**، الذي يقول فيه إن القرآن الكريم يحتل بالنسبة للمصادر الأخرى منزلة الجذع من فروع الشجرة وثمارها.ولذلك فقد تضمن القرآن أصول الإسلام، فمنه تؤخذ الصورة العامة لما يرضاه الله لعباده في شؤون حياتهم، ومناحي تفكيرهم، ومعالم سلوكهم. على أن فهم القرآن لا يتم إلا بمعرفة السنة، وفهم السنة لا يصح إلا بمعرفة المناسبات الحكيمة التي سيق من أجلها التوجيه النبوي.

وينتهي **الشيخ** إلى أننا نستطيع أن نقول إنه ليست هناك سنة تعارض حكما قرآنيا ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة.

ثم إن الحديث الواحد لا نأخذه على حدة عند الاستدلال، بل يجب أن نأخذ جميع الأحاديث التي وردت في موضوع واحد ثم نلحقها بما يؤيدها ويتصل بها من الكتاب الكريم ، ولن نعدم هذه الصلة .

السنة حق :

ويزيد **الشيخ** ذلك إيضاحا في الكتاب نفسه فيؤكد تحت عنوان (السنة حق) أنه إذا صح أن الرسول ﷺ أمر بشيء، فإنّ طاعته فيه واجبة ، وهي من طاعة الله. وما يجوز لمؤمن أن يستبيح لنفسه التجاوز عن أمر للرسول فيه حكم.

والمسلمون متفقون على اتباع السنة بوصفها المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، لكن السنن الواردة تتفاوت ثبوتا ودلالة تفاوتا لا محل هنا لذكره.

وقد وُضعت لضبط ذلك مقاييس عقلية جيلة، يرجع إليها في مضانها .. وللناقد البصير، أن يتكلم في حديث ما من ناحيتي متنه وسنده، وأن يردَّه لأسباب علمية يبديها.

وتكذيب السنة على طول الخط احتجاجا بأن القرآن حوى كل شيء بدعة جسيمة الخطر، فإنّ الله عز وجل ترك لرسوله السنن العملية يبينها ويوضحها.

وقد ثبتت هذه بالتواتر الذي ثبت به القرآن فكيف تجحد؟

وكيف نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونقيم الحدود، وهذه كلها ما أُدركت تفاصيلها إلا من السنة؟

إن إنكار المتواتر من السنن العملية خروج عن الإسلام. وإنكار المروي من سنن الآحاد – لمحض الهوى– عصيان مخوف العاقبة ..

ويذكر الشيخ أنه تعقب طائفة من منكري السنن، فلم ير لدى أكثرهم شيئًا يستحق الاحترام العلمي.

ومن ثم فالطعن – هكذا خبط عشواء – في الأسانيد والمتون كما يصنع البعض ليس القصد منه إهدار حديث بعينه، بل إهدار السنة كلها، ووضع الأحكام التي جاءت عن طريقها في محل الريبة والازدراء.

وهذا –فوق أنه غمط للحقيقة المجردة– يعرض الإسلام كله للضياع.

إن دواوين السنة وثائق تاريخية من أحكم ما عرفت الدنيا.

وفي الوقت ذاته يؤكد الشيخ قاعدة أصولية مهمة للتعامل مع السنة، فهو يرى أن صحة الحديث لا تأتي من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضا من انسجامه مع ما ثبت يقينا من حقائق الدين، فأي شذوذ فيه، أو علة قادحة، يخرجه من نطاق الحديث؛ على أن اتهام حديث بالبطلان مع وجود سند صحيح له لا يجوز أن يدور مع الهوى، بل ينبغي أن يخضع لقواعد فنية دقيقة.

وأكثر الظلم الذي وقع على السنة أصابها من أن حديثًا من الأحاديث قدر له أن يعمل في إطار معين، فجاء بعض القاصرين وحرفه عن موضعه بالتعميم والإطلاق.[4]

الغزالي . . والفقه

مرتكزات فقه الغزالي

ومما نجده من أقضية فقهية في مؤلفات الشيخ الغزالي في مختلف شؤون الحياة، يتبين لنا أنه لا ينطلق في فقهه هذا من رأي محض أو هوى متبع، إنما ينطلق من مرتكزات أو أصول يستند إليها، ويعول في الاستنباط عليها.

١ – **الكتاب والسنة معًا**: أول هذه المرتكزات أو الأصول هو: النص المعصوم، الذي جاء به الوحي الإلهي، ويتمثل هذا النص في القرآن والسنة جميعا. فالقرآن هو المصدر الأول، وهو أصل الأصول، المقطوع بثبوته وتواتره اليقيني؛ والسنة هي البيان النظري والتطبيق العملي له.

والبيان لا يجوز أن يناقض المبيَّن، لهذا يرفض الشيخ الغزالي كل سنّة تناقض القرآن، ولا يتكلّف أو يتمحل في تأويلها.

---

[4] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص٢٩-٤٣.

٢ – اعتبار المصالح ما لم تعارض النص: ومن مرتكزات فقه الشيخ الغزالي: أنه يأخذ بالمصالح المرسلة، ويجعل لها اعتبارًا، بشروطها المعتبرة شرعًا، وأولها ألا تعارض نصًّا صحيحًا صريحًا. والفقه الصحيح ـ كما يقول الشيخ ـ هو أن نتعرف على المصلحة حيث لا نص، وأن نجتهد في تفهمها ثم في تحقيقها، ناشدين إرضاء الله وخير الأمة. على أن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة.

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم، على ألا يصطدموا بنص قائم، فإن هذه النصوص معاقد للمصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار.[٥]

٣ – احترام المذاهب دون تعصب: ويقوم فقه الغزالي أيضًا على احترام جميع المذاهب الفقهية، المتبوعة وغير المتبوعة، دون تعصب لها أو لواحد منها. ويرى أئمة المذاهب قممًا عالية في رسوخ العلم، وفي تقوى الله، وفي الصلابة في الحق، والشجاعة في الرأي.

وهو ينكر على بعض الشباب الأغرار طعنهم الفج في هؤلاء الأئمة واجتهاداتهم، مساوين رؤوسهم برؤوسهم، قائلين: هم رجال ونحن رجال !

والشيخ يحترم المدرستين الشهيرتين في تراثنا الفقهي: مدرسة الأثر ومدرسة الرأي، كما يقال في الاصطلاح المأثور. ويرى أن مدرسة الأثر لا تهمل الرأي ولا إعمال العقل في فهم النص والقياس عليه، كما أن مدرسة الرأي لا تهمل الآثار والسنن والمرويات.

وقد يميل الشيخ في كثير من الأحيان إلى مدرسة الرأي في اجتهاداتها، المعتمدة على عمومات القرآن وظواهره، كقولهم بوجوب الزكاة في جميع الزروع والثمار مما يؤكل ومما لا يؤكل، وهو ما رجحه شيخ المالكية في عصره القاضي **أبو بكر بن العربي**.

ويمتدح الشيخ مدرسة التجديد الإسلامي الشهيرة التي قامت في القرنين السابع والثامن على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، ويسميها (مدرسة الموازنة والترجيح)، ويقول عنها: إنها مدرسة استوعبت الأخبار المروية، وأدركت وجوه الحكمة والمصالح التي تتبناها الشريعة، أي أنها أفادت من الرأي والأثر معا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر، ودفاعها عنه أزكى وأقدر.

ويرى أن آراء ابن تيمية في مسائل الطلاق – مثل عدم إيقاع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة، والطلاق البدعي ونحوه – أحب إليه، وأصح حجة من غيره، وأحفظ لكيان الأسرة في عصرنا.

إن الإسلام صائغ أولئك الرجال كلهم من القدامى والمحدثين، وهم لم يصوغوه.

---

[٥] محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص٤٤-٤٩.

وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.

وإن الانتفاع بكل فقيه مخلص ذكي يدعم مسيرتنا العلمية، ولا يضيرها أبدا، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص؛ هكذا يقرر الشيخ في مواطن كثيرة من كتبه.

٤ - **الفقه في خدمة الدعوة**: ومن منطلقات الشيخ الغزالي في الجانب الفقهي: أن الفقه ينبغي أن يكون في خدمة الدعوة إلى الإسلام، وألا تستخدم الفتاوى الجزئية المتبسرة للتنفير من قبول الإسلام من غير المسلمين، أو من التوبة والهداية للعصاة والشاردين من المسلمين.

ومن هنا يرفض التقليد الأعمى والمطلق للأئمة السابقين، لاسيما من أهل العلم، بل عليهم أن يستكملوا نقصهم العلمي، وأدواتهم الثقافية، حتى يبلغوا الدرجة التي يتمكنوا فيها من النظر والترجيح بين الأقوال، وأن يجتهدوا لزمنهم وبيئتهم كما اجتهد الأولون لأزمانهم وبيئاتهم.

ويرى الشيخ أنه لابد للفقيه المعاصر أن ينظر في الميراث العلمي للعلماء المتقدمين في أعصار الإسلام المختلفة، نظرة جديدة، في ضوء مقررات الكتاب والسنة، ومقاصد الإسلام وكلياته القطعية، ويأخذ من أقوال الشراح ويدع، فالنصوص معصومة، ولكن أفهام الشراح وأقوالهم في تفسيرها غير معصومة.

وينكر الشيخ الغزالي محاولة من يريدون رفع الخلاف، وجمع الناس على رأي واحد ـ هو بالطبع رأيهم ـ مع وجود الخلاف وأسبابه منذ عصر الصحابة، بل منذ عصر النبوة ! فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف حدة ! ولا تنقصه !

كما ينكر بشدة تضخيم الخلافيات، وشغل الناس بها، والتشنيع على المخالفين فيها، يقول: إن العقائد والعبادات الرئيسة والسنن العملية جاءت كلها عن طريق التواتر القاطع، وإن أصول الدين وأركان الطاعات وقواعد السلوك لا يرتقي إليها لبس أو تفاوت، وإنما يحدث الخلاف في أمور ثانوية لا يضخمها إلا أصحاب الفكر المختل.

الغزالي . . مصلحًا مجددًا

الغزالي المجدد :

روى أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

ولا يرتاب راصد لحركة الإسلام ومسار أمته، على رأس القرن الرابع عشر الهجري: أن الشيخ الغزالي أحد أعمدة التجديد الإسلامي الرئيسة في هذا العصر.

والإصلاح الذي يؤمن به الغزالي ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وفي خطبه ومحاضراته، يقوم على جملة من العناصر:

١ – تجديد الإيمان وتزكية الأنفس:

أما عنصر الإصلاح الأول، وهو الدعوة إلى الإيمان وتزكية الأنفس، فهو شائع في كل كتب الشيخ وخطبه ومحاضراته، وهو واع كل الوعي بأنه الهدف الأساس للدين كله، وأنه شرط ضروري لكل إصلاح حقيقي.

وفي مقدمة كتابه **علل وأدوية** يقول: نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات، وترهب المجرمين، ولكنها – قبل ذلك – تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عز وجل، وتجعل تعاملهم معه، وخوفهم منه، وأملهم فيه.

لقد رأيت من طغى عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق.

وتأملت الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوبا خالية من الله عز وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته ! وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي !

ولقد أقام نبينا ﷺ حضارة حققت الغاية من الوجود الإنساني، وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي، وما ألهم من هدى. وكان أقدر المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسة في الكيان الإنساني.

ونحن في هذا النهج نسير، وبمواريث النبوة نستهدي.

إنني أود أن أفهم المؤمنين أن الحياة في سبيل الله، كالموت في سبيل الله – جهاد مبرور – وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين ! وأن الواجد الذي ينزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينزل عن شيء؛ لأنه لا يملك أي شيء.

الحاجة إلى تصوف نقي:

مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا، مع ذلك فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب ..

وتحت هذا العنوان يقول الشيخ في كتابه **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**:

"والإسلام للكتمل ليس "نظرية" علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عـن الله، مهمـا كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وأفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح... ومن للتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية"... والدين الحق شفاء من العلل جميعًا، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

"والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟ وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

"كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟ كيف نحول معرفة الله إلى مـذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

"كيف نجعل المرء مشتاقا إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته ... وكيف نجعله هيّابا لذاته، فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه ...

"كيف يشهد المرء ربه في مجالي السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

"إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا التساؤل".

وبعد أن يعرج الشيخ على ما قدمه الفقهاء والمتصوفة والمتكلمون في شرح حقائق الإسلام وتقريبها للناس مشيرًا إلى مزايا كل فريق ونواقصه، يقرر مايلي: "إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم".[٦]

٢ – الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

حرب على الفساد السياسي:

تحدث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه: **هموم داعية**، فقال: الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة .. لأن أهواءهم طافحة،

---

[٦] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص١٣١-١٣٤.

وشهواتهم جامحة .. لا يؤتمنون على دين الله .. ولا دنيا الناس . ومع ذلك فقد عاشوا آمادًا بعيدة.

ومع هذا البلاء، فقد رأيت متسبين إلى الدعوة الإسلامية، يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويرًا يثير الاشمئزاز كله .. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده.. أهذه الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيد الله بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان.

والمعروف أن الرسول ﷺ احترم الشورى، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه .. وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص فيه، وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لا نص بداهة. ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندما تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان.

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء.

كما اعتبر الشيخ الغزالي ضياع الحرية من وراء التخلف، وغلبة الاستبداد هو السر فيما نحن فيه من تخلف.

٣ – العدل الاجتماعي

كان الظلم الاجتماعي أول ما لفت نظر **الشيخ الغزالي**، وشغل قلبه وفكره، فقد نشأ في بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفتيش الخاصة الملكية تتحكم في الفلاحين الكادحين، تحكُّم السادة في العبيد، وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

لقد رأى الشيخ من النقائض التي تقع في مصر وأشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية: أن هناك أقوامًا يعملون كثيرًا ولا يملكون شيئًا قط، وأقوامًا يملكون كثيرًا ولا يعملون شيئًا قط ! وربما وجدت الرجل يقضي العمر الطويل يحول الطين ورودًا ورياحين، ويشقى هو وأولاده أجمعون، ليخرجوا المخبوء من تربة هذه الأرض، فيمزجون دمهم بقلها وفومها وعدسها وبصلها، ويحرمون منه !

كان **الغزالي** بقلبه ومشاعره وعقله مع الطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم .. احتفى بها الإسلام وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. واعتبر الأنبياء عمالاً يأكلون من كسب

أيديهم، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل، والطاعمين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

فكان أول ما خط قلم الشيخ الغزالي عن **الإسلام والأوضاع الاقتصادية و الإسلام والمناهج الاشتراكية و الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين**.

٤ ـ الحرية ومقاومة الاستبداد السياسي

إن حديث الشيخ الغزالي في مقاومة الاستبداد والتسلط على الشعوب بالقهر والجبروت، حديث طويل دافق جاد. وقد عرفنا من أوائل كتبه **الإسلام والاستبداد السياسي** وهو مجموعة محاضرات ألقاها في معتقل الطور سنة ١٩٤٩م.

ولكنه تناول الموضوع في كتب عدة، وبأساليب شتى، لأنه يمثل دعامة أساسية في فكره الإصلاحي والدعوي، وفي فقهه السياسي.

ومن حفاوة الشيخ بالحرية وتقديره لقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها وغلبة الاستبداد عليها هما السر وراء تخلفنا. وفي ذلك يقول:

"بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريبا في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا المجال.

"وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!.

"أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة ، وتجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخط خطوة إلى الأمام مقدورة!

"ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاية أن يعمل وأن ينجح.. وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقًا لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في إعلاء شأنها...

"إن امرأة* تحكم ـ ومعها جهاز شوري دقيق ـ أقرب إلى الله، وأحنى على الناس من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه أحاط بكل شيء علمًا، وهو لا يدري شيئًا."[٧]

٥ ـ تحرير المرأة والأسرة

المرأة نصف الوجود البشري، إن لم تكن أكثر. ولا قيام للحياة البشرية إلا بالجنسين. فلا بد أن ينهضا بعبئها معًا، وفقًا لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وهداية السماء التي أوحى بها الله.

وقد ظلمت الجاهليات المختلفة المرأة، حتى جاء الإسلام فانتشلها من ظلم الجاهلية وظلامها، ورد إليها اعتبارها.

ومع وضوح التعاليم القرآنية والنبوية في شأن المرأة، فإن المسلمين في عصور التخلف والانهزام الحضاري ظلموا المرأة، وأضاعوا كثيرًا من حقوقها، وجعلوها سجينة بيتها جاهلة بدينها ودنياها. ظلمها الكثير من الآباء، وجار عليها المجتمع.

هذا الوضع المزري للمرأة المسلمة هو الذي غاظ الشيخ الغزالي، وعمل على مقاومته، وهو يريد أن يحرر المرأة من نوعين من التقاليد الدخيلة على الإسلام:

١- التقاليد الموروثة من عهود الانحطاط في الحضارة الإسلامية.

٢- التقاليد الوافدة مع الغزو الفكري، والاستعمار الثقافي.

انتصار للمرأة باسم الإسلام:

إذا نظرنا إلى الغزالي الداعية، أو الغزالي المصلح، أو الغزالي المفسر، أو الغزالي الفقيه، نجد أنه في كل مجال من هذه المجالات منصف للمرأة، محام عنها بحرارة.

فهو يرفض حبس المرأة بين جدران بيتها، لا يراها رجل ولا ترى رجلا. ويرى أن هذه شائعة مكذوبة في مجال العلم الشرعي. يقول: "الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام: أن الإسلام يقيم أسوارًا عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر، فالرؤية المجردة محرمة !.

"وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة الصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤية العادية لاشيء فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة والوضيعة التي تبحث

---

* الإشارة إلى أنديرا غاندي

[٧] محمد الغزالي: علل وأدوية، ص١٩١

عن الإثم ! ومن ثم أمر الدين بغض البصر، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير، وجب على المسلم ألا يعاود النظر، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس".

"فللمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب: عدم التبرج والإثارة ، غض البصر والتزام العفة، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التي خرج من أجلها".

"وقد تواتر ذلك في حياة السلف الأول، فرئيت المرأة في المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة..."

"إن هناك عقولا معتلة، تعشق الآثار المعتلة، وتبني عليها ما تهوى من أحكام، والإسلام النقي بريء من هذه الانحرافات".

"...فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم، وينقلون إلى الناس ما في نفوسهم من علل".[8]

ويرى الشيخ أن المسلمين في عصور التخلف جاروا على المرأة، حتى إنهم حرموها من الذهاب إلى المساجد، مع ما للجماعة من أثر عميق في سلوك الإنسان، فضلا عما يكون في المسجد من دروس وعظات.

وهذا أمر بدأ مبكرًا منذ عهد الصحابة، حتى إن عبد الله بن عمر ذكر الحديث الشريف: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"؛[9] فقال له أحد أبنائه: "والله لنمنعهن، إنهن يتخذنه دخلاً"، يريد أنهن يجعلن الصلاة حيلة للخروج والريبة! فقال له أبوه: أقول: قال رسول الله.. وتقول: والله لنمنعهن! والله لا كلمتك أبدًا، وهجره حتى مات رضي الله عنه.[10] وهنا يرى الشيخ الغزالي أن المسلمين تركوا رواية الأب الصحابي الفقيه، واتبعوا رأي الابن العاق الجاهل.

يقول الشيخ:

"صح في السنة : أن المرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيتها! ولا ريب أن شؤون الأولاد خصوصا الرضع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس...

---

[8] محمد الغزالي: الحق المر، (القاهرة: دار الشروق)، ج٢، ص١١٨-١١٩

[9] الحديث متفق عليه عن ابن عمر، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، برقم ٢٥٤

[10] محمد الغزالي: الحق المر، ج٢، ص١١٨-١١٩.

"ونحن موقنون بأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد. وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء...

"ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

"بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يقين على أميتهن الأولى!!

"لحساب من تعود هذه الجاهلية؟.

"وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟...

"...ولم يجيء في أحد **الصحيحين** ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد.. فهذه الأحاديث مردودة كلها.. فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة المشهورة ؟ إن حديثه يستبعد ابتداء ..

"وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقية تعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة.

"وقد يُقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة، فإن الذهاب إلى المساجد ليس استعراضا للزينات، وبعثرة للفتن! إنه سعي لمرضاة الله، وغرس للتقوى ..

"وحجز النساء عن هذا الشر "هو بتنفيذ وصية رسول الله" .. يخرجن تفلات"، أي في ملابس عادية وهيئة طبيعية، لا تعطر ولا تبخر ..

أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام..."[١١]

٥- تصحيح التدين المغلوط

تصحيح المفاهيم المغلوطة:

كان من أهم مظاهر الإصلاح والتجديد التي وجه إليها **الغزالي** فكره وقلمه وبيانه: تصحيح المفاهيم الإسلامية التي غلط الناس في تصورها، وأساؤوا في تصويرها.

ومن ذلك مفهوم العبادة. ففي كتابه: **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية** يقول: "عندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أن أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها

---

[١١] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص٦١-٦٤

تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعا، والمجال رحبا لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلاً وجزءًا لخدمة الدين.

"وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعا: عملاً صالحًا، وجهادًا مبرورًا، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله ...

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

"ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا، عجزةً في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منها أداة لنصرة ربه، وإعلاء كلمته.

"وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظا عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام!

"ومن قديم رأى نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم في الصلوات والأذكار، يُبدِئُون ويُعيدون، ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة، فمن ينصر الله ورسله؟ إذا كان أولئك جهالا بالحديد وأفرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ﴾ (الحديد:٢٥).

"إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئا، فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبنى عليها بهذا العجز المهين؟".

النظرة الشمولية المتوازنة للإسلام:

لقد ضاق الشيخ الإمام بالتصوير الجزئي للإسلام، الذي يخل بـ (النسب) التي أقامها الشرع بين أحكامه وتعاليمه بعضها وبعض، فلم يجعلها كلها في درجة واحدة، لا في المأمورات، ولا في المنهيات، وهو ما أسميناه (فقه الأولويات) أو فقه مراتب الأعمال؛ "فالإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة"، كما صح في الحديث. ولكن الشيخ يتساءل: "هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كما اتفق؟ لا .. إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة، ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه...

"ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال حسية. والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءًا ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

"وقد كان الخوارج أول من أصيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي، قاتلوا عليًّا أو يتبرأ من التحكيم ! وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك بني أمية !

"وهذا التورم الذي يصيب جانبًا دينيًّا معينا هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء، ومحدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.

"وأصحاب رأي يلمحون المصلحة، ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.

"وهو السر وراء حكام يعملون – حسب المواصفات المقررة – رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية، فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل!

"وهو السر وراء أناس يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئا، ولا يستفيدون منها خلقا.

"الصلاة تورث النظام والنظافة، وهم فوضى مشعثون. والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة، وهم في أثناء المناسك وبعدها قساة سيؤون.

إن الدعوة الإسلامية تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط، "ينطلقون بعقولهم الكليلة فيسيؤون ولا يحسنون."[١٢]

٦ – تحرير الأمة وتوحيدها

ومن جوانب الإصلاح للمهمة عند **الشيخ الغزالي**: تحرير الأمة من كل سلطان أجنبي يشل إرادتها أو فكرها أو يدها.

ولهذا قاوم الشيخ الاستعمار بأنواعه، كما قاوم عملاءه من بني جلدتنا، وممن يتكلمون بألسنتنا.

قضية فلسطين:

وفي مقدمة القضايا الإسلامية التي تبناها الشيخ واحتلت بؤرة شعوره، وصميم فكره، وعدّ نفسه حارسًا لها بقلمه ولسانه ووجدانه: قضية فلسطين، واهتمامه بها يأخذ وجهتين:

---

[١٢] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص٦٨-٧٠

الأولى: تحريك الأمة الإسلامية، لتنهض بواجبها في الدفاع عن أرض المقدسات، ونسيان ما بينها من خلاف لتقف صفا واحدًا، ضد العدوان اليهودي المغتصب.

والثانية: المقارنة بما تصنعه إسرائيل ويهود العالم: من تخطيط وتنظيم وبذل وتعاون، وكيف استخدموا علوم العصر، في خدمة دولتهم، لتكون هذه المقارنة ذريعة لنا عسى أن نغير ما بأنفسنا، ملتمسين العبرة من عدونا.

توحيد الأمة بعد تحريرها :

ولا يقف الشيخ عند قضية التحرير، بل لابد من العمل على (توحيد الأمة) كما أمر الله سبحانه، فهي أمة واحدة وليست أممًا، وعندها من عوامل التوحيد ما يقرِّب بينها. والعقبة الكأداء في سبيل وحدتها هو ما صنعه الاستعمار من أنظمة وثقافات ومناهج وأفكار، باعدت بين شعوب الأمة، وخصوصا بين حكامها وقادتها ..

يقول الشيخ: "إن قلبي يتفطر عندما أرى الدم الإسلامي أرخص دم على الأرض .. لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنيون والملحدون .. وحكام مسلمون !!

"ولا ريب أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح الله ندى يواسي الجراح، ويهوِّن الكفاح، ويبشر بالصباح ...

"ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها.."[١٣]

تذويب الفرق المنشقة عن الأمة:

وللشيخ رأي له أهمِّيته في وجوب تذويب الفرق المنشقة عن الجماعة والأمة الإسلامية، يقول:

"في الأمة الإسلامية الآن فرق تذكرنا بمذاهب الباطنية وفلسفاتها الدخيلة التي نجحت قبل ألف عام، هناك النصيْريَّة، والدروز، والإسماعيلية – الأغاخانية – وأمثال أولئك جميعا ممن ينتمون إلى الإسلام انتماءً غامضًا.

"وقد يزعمون أنهم مسلمون شيعة! بيد أن جماهير الشيعة ترفضهم وتنكر لهم ...

"إنهم سلالات باطنية تلبس الإسلام على خليط من الأفكار التي لا سند لها، وهم في نظري ضحايا الإهمال الغريب من الدولة والأمة معا...

[١٣] محمد الغزالي: قذائف الحق، ص١٤٨.

لماذا تمرُّ القرون الطوال وهؤلاء معزولون داخل دار الإسلام على هذا النحو المتوارث؟

"أكثر من ألف عام والحكم الإسلامي غير مكترث بالتجميد الأدبي لألوف مؤلفة من الناس تعيش في صميمه، لا هم منه ولا هم من عدوه..!!

"إن هذا الخطأ لابد أن يوضع له حد، ولابد من التعفية على آثاره.

ولدت الباطنيَّة ونمت في الفراغ الحقيقي الذي كان موجودًا بين الحكام والشعوب. أغلب الحكام كان جائرًا جاهلاً وإن لبس برد الخلافة أو لاذ بمن يلبس هذا البرد...

"ولقد استيقنت – وأنا أقرأ هذه الصحائف السود – أن نظام الحكم من قديم كان القشرة العفنة في كياننا كله.

"ولقد نهض عدد كبير من العلماء بدحض الفكر الباطني وفضح خرافاته حتى انصرف عنه جمهور العقلاء، وانكسرت حدته السياسية انكسارًا تامًا.

"لكن حكام المسلمين – في غيبوبتهم الفكرية – لم يكملوا ما بدأه العلماء المجاهدون، بل لقد خُيِّل إلي أنهم جمّدوا – عن عمد – بقايا الباطنية، مع أن قضاياها أمست بلا موضوع.

"وجمهور المنتسبين إلى هذه الفرق انقطع عن المنابع التي كانت تمده في القديم، وبقيت نسبته إلى الإسلام أبرز في وعيه من النسبة إلى أفكار أخرى.

"والخطوة التالية والواجبة أن يستلحق الكيان الإسلامي الكبير هذه الطوائف التي اقتطعت منه لظروف مؤسفة، يستطيع بالتعليم الموصول والإعلام الدائم أن يجعل راية الكتاب والسنة ترفرف عليها وعلى جميع المسلمين.

"نعم، فليس لهذه الطوائف دين تنتسب إليه إلا الإسلام – كما يقولون – وليست لها فلسفات عقلية أو اجتماعية تمثل مذهبًا مستقلاً في الحياة، وربما كانت الروابط التي تمسك أبناءها روابط قبلية، أو عصبيات جنسية. وخطأ الجماعة الإسلامية في الحفاظ على كيانها الكبير لا يجوز أن يستمر بعد اليوم...

"وعلى الجماعة الإسلامية أن تدافع عن وجودها بالوسائل العادية التي فاتتها من قديم، أي أن عليها تذويب هذه الفرق كلها في الكيان العام."[14]

٧ – الدعوة إلى التقدم والخروج من التخلف

ومما أخذ من عناية **الشيخ الغزالي** جانبًا غير قليل، دعوته الدائبة إلى إخراج الأمة من دوائر التخلف، والعمل على إلحاقها بركب التقدم البشري الصاعد أبدًا إلى الأمام.

---

[14] محمد الغزالي. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص١٤٤-١٤٦

إن التأخر ليس طبيعة هذه الأمة ولا من لوازم تدينها، فقد كانت هذه الأمة هي الأمة الأولى في العالم كله، قرابة ألف عام، وكانت حضارتها هي الحضارة الغالبة والسائدة، وكان علماؤها في كل فرع من العلوم هم قادة العلم والفكر في الدنيا القديمة.

أسباب تخلف الأمة:

صنّف الشيخ الغزالي كتابًا في **سر تأخر العرب والمسلمين** تحدث فيه عن أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، وتخلف الأمة، وهي إجمالا كما يلي:

١ – سوء الفهم للإسلام، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، وشيوع خرافات باسم الدين مثل قراءة البخاري عند الأزمات، لا اتخاذ الأسباب وفق السنن...

٢ – وقوع الخلل الكبير في الثقافة الإسلامية، التي هي الغذاء الفكري والروحي للأمة، والتي تصنع عقولها وأذواقها وإرادتها.

٣ – جهل المسلمين بالدنيا: وهذا ناشئ عن اختلال الثقافة. يقول الشيخ: "قد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة، وأسلحتهم فتاكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء؟"...

إن العلم الواسع بالدنيا، والقدرة التامة عليها، كانت أمورًا بديهية عند أسلافنا.

٤ – انتشار الجبرية في العالم الإسلامي: فالإنسان مسير لا مخير، والمرء لا حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة.

وسبب ذلك فيما يرى الشيخ: علم الكلام، والتصوف، وبعض مفسري القرآن، وشرّاح السنن. وانضم إلى ذلك ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات، وانتشار فكرة الكرامات وخوارق العادات، حتى كادت تبطل السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذا الكون.

٥ – تقاليد الرِّياء في المجتمعات الإسلامية: فقد كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، جعلوا الله ورضوانه غايتهم، والرسول ﷺ أسوتهم، فيما يفعلون ويتركون.

أما مسلمو العصور الأخيرة، فقد استحدثوا في حياتهم تقاليد كثيرة، تقوم على التكلُّف والتزويق والتظاهر الزائف، وتبتعد عن فطرة الإسلام السمحة السهلة.

٦ – وضع المرأة في عصور الضعف: منعت المرأة من التعليم بناء على حديث مكذوب: " لا تعلموهن الكتابة " وآخر واه جدًا: " ألاّ ترى رجلا ولا يراها رجل ".

وحرمت من الذهاب إلى المسجد بناء على مرويات أخر، تخالف المتواتر والصحيح من السنن، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن من التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه

... وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطا بالدين، واتصالا بالمجتمع. فاضطرب حبل التربية في العالم الإسلامي اضطرابًا شديدًا.

٧ – ذبول الأدب العربي: فعندما ضعف المسلمون أصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصوِّرون، كما قل المؤلفون المفكرون.

ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة ... وانكمش الأدب شعرًا ونثرًا انكماشًا يثير الاشمئزاز.

٨ – سياسة المال في المجتمع: فقد اضطربت سياسة المال، وساء تداولها في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر ملقع، وترف مفسد. وعلى الرغم من أن الإسلام هو أول من سير الجيوش لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين، فإن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب، وتعرضت جماهير الفقراء لضيم كبير. كما انتشرت الرشوة، والبطالة الصريحة والمقنّعة، وامتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال، لا يُدرى كيف نبتت أصولها.

٩ – الفساد السياسي :ففي الحديث :"إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"، وما وُسِّد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتقعوا إلى مستواه، ولا قنعوا ماديا وأدبيا بالعيش في نطاقه المحدود.[15]

٨ – تنقية الثقافة والتراث الإسلامي

ينبه الشيخ الغزالي إلى أن الطريقة التي يواجه بها المسلمون الحياة تحتوي على أغلاط كثيرة. ومردُّ ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علمًا، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح.

وفي رأيه أن الثقافة التقليدية مسؤولة عن ذلك القصور السائد.

ويرى الشيخ أن ثقافتنا في طورها القائم تحمل أخلاطًا لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا أن نميز بين الخبيث والطيب. ومن أهم الملاحظات التي يجب الوعي بها:

أ ـ التقعر فيما وراء المادة: التقعر في دراسة ما وراء المادة مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية ليًا شائنًا. والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية وأنه بحسب المسلمين في علم الخلق والسلوك، وعالم العقيدة والعبادة، وعالم

[15] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية. .. ص٦٥-٩٢

القضاء والتشريع، أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها .. أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه ...

إن العقل البشري أعجز من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة.

فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات؟

ب ـ التنطع فيما يسّره الله: الإسلام دين عمل يؤثر الواقع على الخيال، والحقيقة على الظن، والحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، هل نجح سلف الأمة إلا بهذا المنهج ؟

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح.

يقول الشيخ: "والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءًا من أعمار المسلمين ... ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المتسبين إلى العلوم الدينية.

وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى..."

ج ـ توجيه الضعاف للتعليم الديني: يقول الشيخ: "ألف المسلمون أن يحفّظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الديني الضعاف والفقراء وذوو العاهات .. وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق أو حسن المظهر وقوة العصبية...

وهذا المسلك يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين...

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عددًا من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخًا راسخًا.

ولكن عددًا آخر – ربما أكبر – آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر، مشى وراء الساسة مداهنًا فأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم !

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع!"[١٦]

د ـ قصور في دراسة التاريخ: يرى الشيخ أن دراسة تاريخ أي شعب إسلامي أمر واجب، "فالمسلمون أمة واحدة غير أني أتممت دراستي الأزهرية التي استغرقت خمسة عشر عاما، دون أن أدرس حرفا عن للمسلمين في جنوب شرق آسيا وجنوب آسيا نفسها، وشمال إفريقيا وغربها في العصر الحديث !.

" لم نعرف حرفًا عن الاستعمار الهولندي لجزر أندونيسيا ولا الأسباني لجزر سولو ومندناو وسائر الجزر التي سميت بعد (الفلبين). لم نعرف كيف استعمر الفرنسيون الهند الصينية، ولا ما حدث للمسلمين في فطاني وللملايو وسنغافورة..الخ.

"لقد تبيّن لي أن دراستنا للتاريخ الإسلامي ضحلة، وأن دراستنا للتاريخ الإنساني فوق الصفر بقليل.

"إن رسالة محمد ﷺ للقارَّات كلها، فكيف نجهل هذه القارات ولا نعرف ما يعمرها من أجناس ومذاهب وفلسفات؟ ولماذا نلوك بألسنتنا أن رسالتنا عالمية، دون أي سعي للاتصال بهذا العالم الرَّحب؟...

"إن القرآن يجعل السياحة من خلال الفضل، ويجعل دراسة التاريخ كله من مكونات العقل!

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (السجدة: ٢٦).

"الحق أن للمشرفين على التعليم من أمد طويل فرّطوا في حقوق الأخوة الإسلامية حين فرّطوا في دراسة الأجناس التي اعتنقت الإسلام، وعموا عن قضاياها المصيرية، ونسوها على هذا النحو الشائن.

هـ ـ قصور في معرفة الفقه والواقع: إن التشريع الإسلامي أنفس مواريثنا الحضارية. يقول الشيخ:

"وعلم أصول الفقه هو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق آية العبقرية العربية، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا لأنه نتاج إسلامي خالص رائع.

---

[١٦] المرجع السابق، ص٧١ـ٧٥.

"غير أن علم الأصول في دراساتنا الأخيرة أمسى علما أثريا هامدا يحفل بالأقوال والمناقشات الحرفية، ولا صلة له بتشريع خاص ولا عام، وقد جدد الشاطبي منهجه في **الموافقات**، كما أن لبعض المذاهب الفقهية قواعد فقهية جديرة بالحفاوة ! ولكن ذلك كله مهجور في دراستنا.

"والمادة العلمية لا تعدو التلخيص أو التمطيط، والاطلاع النظري على مخلفات الماضين".

أما الفقه الإسلامي الذي استبحر قديما وحكم العلاقات الدولية كما حكم الروابط العائلية، فهو يحيا الآن على هامش المجتمع الإسلامي..."

"...إننا نواجه طوفانًا من الأفكار والموازين الشائعة للحقوق والمصالح ولا مساغ لمقابلة هذا الطوفان بفكر إسلامي واحد، بل يجب أن يُقابل بجميع المدارس الفقهية عندنا.

"ثم إن الخلود لكتاب الله وسنّة رسوله لا لاجتهاد بشر، ويعني هذا ألا نتحرج من وزن الاجتهادات القديمة وأن ننفض أيدينا من بعضها إذا بدا ألاّ مجال لبقائه."

و ـ قصر الباع في العلوم الكونية والإنسانية: ومن ذلك: القصور في علوم الكون والإنسان. يقول **الشيخ**: "وأحب أن أنبه إلى أن كل قصور في العلوم المدنية لا يزيد دارسي الدين إلاّ خبالاً. إن الإسلام دين لا ترسخ قواعده ولا تنضج معارفه إلا في جو علمي واسع الآفاق. ولا أدري كيف يفهم عظمة القرآن الكريم رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما...

"والواقع أنَّ تكوين العقل الديني لا يتم إذا كان في عزلة عن الاستبحار العلمي الحديث، وأهل الذكر لا تستقيم لهم فتوى إذا كانت معرفتهم لا تعدو الأبجديات القديمة".

ز ـ غربلة التراث الصوفي: وفي هذا الصدد يرى **الشيخ الغزالي** "أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع.

"لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها. فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض؟ وماذا كسبنا منه؟...

"إن الدين يفقد جوهره حين تهي علاقته بالقلب، وعلم القلب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، وللهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود.

"وإنه لمما يعين على إدراك هذا الهدف الاستعانة بالعلوم الإنسانية، خصوصا بعلما هجرت منهجها الفلسفي وخطت لها مجرى علميا يحترم الحقيقة ويلتزم بها."[17]

٩ – ترشيد الصحوة

عني الشيخ الإمام بالصحوة الإسلامية، وهو واحد من أبرز آبائها إن لم يكن أبرزهم، عني بعثها، كما عني بترشيدها، حتى لا تهدم من الداخل، أو تضرب من الخارج، وهو يريد للأمة أن تلتف حول هذه الصحوة لا أن تتفرج عليها، فهي منها ولها.

معالم لترشيد الصحوة:

يقول، راسماً بعض المعالم الرئيسة للصحوة المرجوة: "إن العالم الإسلامي لا يبيع دينه، ويؤثر أن يهلك دونه، ولا يغض من موقفه نفر شذاذ من الخونة والجبناء، فقدوا الدين والشرف، ونشدوا العيش على أي حاجة، وبأي ثمن !.

"ولكي نحسن الوقوف أمام علو الله وعدونا يجب أن تتوفر لجبهتنا العناصر الآتية:

أولاً: يعود الولاء للإسلام ويستعلن الانتماء إليه، وفي حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا !..

ثانيًا: "...يجب أن تعود الروح لعقائدنا وشعائرنا وشرائعنا، والمسلم الذي يستحي من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكن عده مسلمًا! ولن ننال ذرة من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهوًا ولعبًا..

ثالثًا: يقصى من ميدان التدين العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي الساسة المنحرفين، ويزينون لهم مجونهم ونكوصهم ..

"والعلماء الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن، أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

"والعلماء الذين يظلمون الإسلام بسوء الفهم، ويرونه في سياسة الحكم والمال ظهيرًا للاستبداد والاستغلال وإضاعة الشعوب.

---

[17] علل وأدوية، ص١٨١ـ١٨٨

إننا بحاجة إلى يقظة عامة تتناول أوضاعنا كلها، حتى نحسن الدفاع عن وجودنا ورسالتنا في عالم لا تسمع فيه إلا عواء الأقوياء."[١٨]

الدفاع عن الرموز والأعلام:

ومن ميادين إصلاح الصحوة وترشيدها لدى الشيخ الغزالي: العمل على تجميع الجبهة الإسلامية، وتقريب بعضها من بعض، وضم جهودها للتشييد لا للتقويض، والوقوف في وجه الكيد الصهيوني والمكر الصليبي، والتهجم العلماني.

إنه يأسف أشد الأسف حين يرى الجبهة الإسلامية يناوش بعضها بعضا، أو يكيد بعضها لبعض، أو تحاول فئة منها هدم غيرها لبناء نفسها على أنقاض الآخرين.

وهو يأسى كل الأسى إذا وجد بعض الصغار يتطاولون على الكبار، ويحرصون على هدم القمم، وتشويه الرموز في تاريخ الأمة وتراثها الفكري.

يقول: "إنني لا أجعل عيبًا ما يغطي مواهب العبقري، ثم لحساب من أهدم تاريخنا الأدبي والديني؟ ولمصلحة من أشتم اليوم علماء لهم في خدمة الإسلام وكبت أعدائه كفاح مقدور؟

وددت لو أُعنت على محاكاة أبي حامد الغزالي مؤلف **إلجام العوام عن علم الكلام** فألفت كتابا عنوانه: **إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار** لأمنع الصغار عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم.

وجهة نظر في أقدار الرجال:

يقول الشيخ: "أكره التعصب للمذهبي، وأراه ضيق عقل وقلة علم، أو ضيق خلق وقلة مروءة.

"وأستحب التقليد المذهبي للعامة ولأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول ! وأعني الأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لابد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه فادح فاضح.

"أما المشتغلون بعلوم الدين التقليدية، فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة، ويرجحوا دليلاً على دليل ومذهبًا على مذهب؛ مع إكنان الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا

---

[١٨] محمد الغزالي: هموم داعية، ص١٠٨-١١٢.

القديمة، وليس هذا تفضيلا عليهم نتطوع به، بل هو أدب ننزل به على قول رسولنا الكريم ﷺ: " ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه " (أحمد والحاكم والطبراني عن عبادة بن الصامت بلفظ: ليس منا من لم يجل كبيرنا... الحديث. قال الهيثمي: وسنده حسن).

"واحترامي لك لا يعني أن أسلّم بكل ما تقول، وتخطئتي لإنسان ما لا تعني أني أفضل منه، إن حقيقة الفضل لا يعلمها إلا الله، والأئمة الراسخون قد تقع منهم هنات، وما يهدم ذلك مكانة حصلوها بالسهر والإخلاص والدأب والتفاني."

١٠ – إحياء اللغة العربية

اللغة العربية لغة القرآن، ولسان الإسلام، ووعاء ثقافته، وهي اللغة التي شرفها الله تعالى بأن أنزل بها أعظم كتبه، فخلد ذكرها وعمم أثرها.

وقد ذهب الشافعي إلى أن تعلم اللغة العربية – أو قدر منها على الأقل – فرض على كل مسلم حتى يستطيع أن يؤدي فرائض دينه، وخصوصا الصلاة اليومية.

وقد كان انتشار الإسلام في العالم سببا في انتشار العربية، وقد وسعت اللغة العربية علوم الحضارة الإسلامية وفنونها في زمن ازدهارها، و لم تضق بعلم ولا فن، بالإضافة إلى علوم العربية نفسها، التي نبغ فيها عباقرة أفذاذ من شتى الأجناس، لا من العرب وحدهم، وارتقى الأدب العربي شعرا ونثرا، حتى بلغ الذروة في آداب العالم.

وفي عصور الهزيمة والتخلف وإدبار الحضارة الإسلامية، ذبلت اللغة العربية وآدابها. وإن الجهل بالعربية يشيع بين ٨٠ أو ٨٥ في المائة من المسلمين. وأما الجهل بها في أرجاء العالم فشيء مفزع، ولا يمكن عدها لغة عالمية مع أنها الوعاء الفذ للرسالة العالمية الوحيدة التي طرقت أبواب العالم، وشاء القدر الأعلى أن تبقى فيه إلى اليوم الآخر.

ونحن نطلب ثلاثة أشياء محددة لإحياء اللغة العربية والحفاظ على مكانتها:

١ – تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها دون ربط هذا التعليم بالبلاغ الديني، أي تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة. وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة الازدهار اللغوي المجرد.

٢ – الجد في محاربة اللهجات العامية –داخل الوطن العربي– وتضييق الخناق عليها، ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية ومنع الأزجال والمواويل والشعر الفوضوي المبتدع أخيرا، والذي يسمونه الشعر المرسل.

٣ – إحياء الأدب العربي الخالص وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من التكلف والمحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى الوسائل ...

وقبل ذلك لابد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ الحضارة وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة ...

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي.

الغزالي . . رجل المواقف.

للغزالي مزايا كثيرة، ومن مميزاته المعروفة: أنه رجل موقف.

ومواقفه في حياته كثيرة. أعني المواقف التي يقف فيها عند رأيه متشبثًا به مدافعًا عنه، مهما يكلفه ذلك من تضحية ومكابدات.

ومن تلك المواقف موقف الشيخ الغزالي عندما ذهبنا إلى معتقل الطور، ووجد القادة المسؤولين عن المعتقلين يسرقون أقواتهم، ولا يعطونهم إلا الفتات، فخطب الشيخ، وقاد مسيرة بعد صلاة الجمعة، تهتف بسقوط لصوص التجويع، وتلعن اللصوصية المنظمة، مما أدى إلى مفاوضات مع المعتقلين انتهت بتسليمهم مستحقاتهم (جافة)، وهم يتولون طهيها وتهيئتها.

المؤتمر القومي:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه في المؤتمر القومي العام الذي عقد في القاهرة أيام عبد الناصر، في أوائل الستينيات، ووقوف الشيخ يدعو صراحة إلى وجوب التحرر من الاستعمار التشريعي، بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وعرج الشيخ في نهاية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية.

قانون الأحوال الشخصية:

ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذي يعرف عند المصريين بـ(قانون السيدة جيهان)، زوجة أنور السادات، التي كانت متحمسة له، وقد هاجمه الشيخ، في قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر، ووقفت بجانبه الجماهير.

وكان موقف الشيخ في هذه القضية مماثلا لموقف شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود – الإمام الأكبر شيخ الأزهر – ولذا سقط القانون أو قل جمد في عهده، ثمّ وجد من الشيوخ – للأسف الشديد – من أجازوه !

موقف في الجزائر:

ومن المواقف التي تذكر له: موقفه في (ملتقى الفكر الإسلامي) في الجزائر في أواخر الثمانينيات، عندما تحدث الشيخ البوطي عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربابها، ويكفي الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم، وآفات السياسة.. مما أثار الحاضرين في الملتقى وأقلقهم. وكان الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حاضرًا، وشعر المشاركون بالحرج، وهنا طلب الشيخ الغزالي الكلمة، وصعد إلى المنصة، وأثنى على صديقه الشيخ البوطي، ولكنه خطأه في توجهه، وإن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين..

وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه، وأتى الأمر من بابه، واستراح الجميع لتعليق الشيخ.

الشهادة في مقتل فرج فودة:

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ هو موقف (الشهادة) في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فودة، تلك الشهادة التي أحدثت دويًا، وزلزالاً في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف.

وهنالك للشيخ مواقف عديدة في حياته الحافلة بالمواقف المشرفة لرجل العلم وعالم الدين وحارس العقيدة، وهي أكثر من أن تحصى هنا.

خاتمة

إن هذه الدراسة أثبتت أننا أمام عالم مفكر حر، عاش عمره كله للإسلام، ونذر له فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده، وخاض معاركه كلها تحت راية الإسلام، رافضًا كل راية جاهلية، بأي اسم ظهرت، وتحت أي عنوان تزينت للناس، متخذًا شعاره: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِين. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِين﴾.

لقد عاش الشيخ بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدًا: أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ، ولا ينبغي أن يؤتى الدين من قبله. كما عاش مؤمنًا بأن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه، مؤكدًا عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران:١٨٧).

نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله، ورحمه الله وتقبل منه وجعله في الصالحين.



كيف نتعامل مع القرآن

محمد الغزالي

في مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة

ط 3, 1993
236 صفحة
6x9 بوصة
8 دولارات

الرقم الدولي الموحد للكتاب 1-51-912463-0

هذا الكتاب تدور المدارســة فيه حـول مناهج القرآن المجيـد وقضايا تفســيره وتأويله وتصنيفـه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلـمين قديماً وحديثاً، وكيـفية جعله المصــدر الأول لثقافة المسلم المعـاصر، ومعرفـته وعلمه وتوجيــهه، مما يُمكن العـقل المسلم من العودة الى التـعامل السليم مع القـرآن العظيم، ويعـيد القرآن الكريم الى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر ومعرفته وحضارته، ليستعيد العقل المسلم عافيته ويسترد القرآن المجيد دوره في عطائه وإنارته.

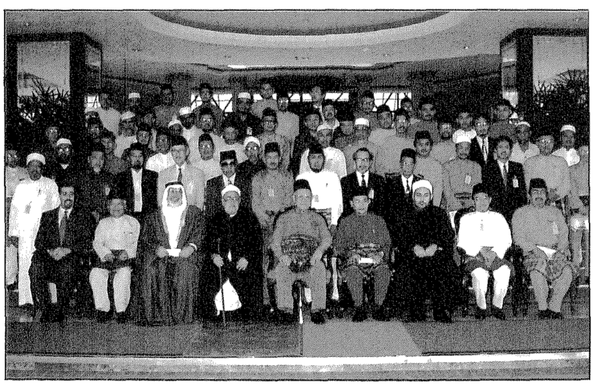
والكتاب مدارســة جرت بين الشيخ محمد الغـزالي والأستاذ عمر عبـيد حسنة وتتسم بمداخل نقدية عـديدة تبعا لتعدد وتنوع الموضوعـات التي تشملها في محاولات بذلهـا المتدارسان لاستخلاص وعـي قرآني بقواعد معرفـية تقارب ضــوابط المنهج الذي لا يأخذ بكل مـا ورد ضــمن الفكر السائد دون تمحـيص وتحليل ونقد.

وتعمل هذه الدراســة على استدعــاء القرآن في إطار واقع عــالمي متغـير بوعي جديد لا تــدعي أنه اكتـمل في هذا العمل. كـما تكمن أهمـيتــها في مــحاولتــها لتصــحيح كـثيــر من المفاهيم المتـعلقة بالـتعامل مــع القرآن في الموضــوعات الإسـلامية كخطوة أولى يؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

لقطات تذكارية من زيارة الشيخ محمد الغزالي إلى ماليزيا لحضور ملتقى العلماء بها ولتسلم جائزة الجامعة الإسلامية العالمية



الشيخ الغزالي يتوسط الصورة أثناء حفل الاستقبال الذي أقامته حكومة ولاية نيجرى سبيلان.



الشيخ الغزالي في صورة جماعية مع القضاة ورجال الإفتاء في ماليزيا أثناء ملتقى علماء ماليزيا الذي انعقد بولاية نيجري سبيلان.

الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر

عمار الطالبي*

- ١ -

بدأت صلتي بشيخنا محمد الغزالي رحمة الله عليه في الستينيات، زرته في بيته مع زميلين في الدراسة، ثم زرته مرة أخرى وهو مسؤول في وزارة الأوقاف، وكان فرع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين بالقاهرة قد كلفني بالحصول على مجموعة من الكتب لإنشاء مكتبة لهذا الفرع. ومضت سنوات على استقلال الجزائر، وكان أن دعي الشيخ محمد الغزالي لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنعقد سنويا في الجزائر، فكانت له صولات وجولات فيما يلقيه من كلمات بليغة، وفيما يناقشه من قضايا المسلمين. وفي أحد الملتقيات أبرق إليه ابنه بألا يعود إلى مصر لأن الرئيس السادات سيلقي به في السجن، وكان قد حضر الرئيس ابن جديد زائرًا ذلك الملتقى في ختام أعماله، فأبلغه وزير الشؤون الدينية في ذلك العهد الشيخ عبد الرحمن شيبان بهذا الخبر، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالي وقال له: الجزائر بلدك، فمرحبًا بك داعية إلى الإسلام فيها.

وكانت إذ ذاك المساعي حثيثة لإنشاء جامعة للعلوم الإسلامية في الجزائر. وعلى الرغم ممّا وجدناه من صدود وعراقيل من عناصر ماركسية ماكرة،

---

* دكتوراه دولة في الفلسفة الإسلامية من جامعة الجزائر ١٩٧١م، أستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر.

ويسارية كائدة، فإن ابن جديد آتاه الله رشده، فأصدر مرسومًا بإنشاء هذه الجامعة، وكان حريصًا أشد الحرص على أن يكون الشيخ الغزالي من مؤسسيها، وكان الشيخ الغزالي في ذلك الوقت أستاذًا زائرًا في جامعة قطر بالدوحة، فخوطب أمير قطر بذلك، فوافق على انتقال الشيخ إلى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. وقدم وفد من الجزائر لهذا الغرض - كنت من بين أعضائه مع الأخوين: عبد الوهاب حمودة، وابن عبّو- إلى قطر؛ وشاء الله أن يحضر الشيخ محمد الغزالي حفل افتتاح الجامعة بمدينة قسنطينة سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، وكان حفلاً كبيرًا حضره رئيس الدولة وعدد كبير من الوزراء وكبار المسؤولين ووالي قسنطينة، وسفراء الدول الإسلامية. وكان الشيخ الغزالي أول المستقبِلين، وكان قد تولى رئاسة المجلس العلمي لهذه الجامعة، وتوليت إدارتها، فاستبشر الناس بوجود الشيخ لما عرفوا من علمه ودعوته وفضله، خلال ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تذاع محاضراتها في التلفزة الجزائرية.

أقام **الشيخ الغزالي** أول الأمر في فندق "بانوراما" بمدينة قسنطينة، ثم انتقل إلى منزل (فيلا) فأصبح جارًا لي، وسعدت أسرتي بجواره كما سعدت، ونعم الجوار جواره، يعمل وكله نشاط وحيوية ويسبقني أحيانا إلى الجامعة مبكرًا، ويفضل أحيانا أخرى أن يتجه إلى الجامعة راجلاً للارتياض، ولم تكن المسافة بين بيته وبينها بعيدة.

واختار الشيخ لنفسه أن يدرس تفسير القرآن الكريم، وكنا أوصينا طلبة الجامعة أن يعودوا إلى تفسير العلامة **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير)** مرجعًا لهم، فاطلع على هذا التفسير، وقرأ منه وأعجب به، وأعتقد أنه قرأه لأول مرة، كما اطلع على كتابه **مقاصد الشريعة**، ولفت نظره أن ابن عاشور أضاف إلى مقاصد الشريعة مقصد "الحرية".

وصار في هذه الجامعة موجهًا وأستاذًا، ومفتيًا، يزوره الناس للفتوى في الجامعة وفي بيته. ومن أهم أعماله في الجامعة وخارجها (لا أريد أن أتعرض للتفاصيل كي لا يطول الحديث) الدعوة إلى الله، وتحليل قضايا المسلمين، ونقد ما يعانون من أمراض ومآسٍ، وأصبح الناس ينتظرون حديثه الأسبوعي الذي

يلقيه في التلفزة يوم الاثنين، يستمع إليه جمهور الناس، ويفهمونه في مختلف أرجاء البلاد لسهولة عبارته، ووضوح فكرته، وصدق لهجته، وحسن استشهاده بالقرآن الكريم الذي يجري على لسانه بيسر واضح، فتفهمه الجماهير بفطرتها لأنه يخاطبها في أعماقها وينفذ إلى أعماق قلوبها، كما كان يلقي في قسنطينة كل يوم جمعة تقريبا درسًا في أحد مساجدها الجامعة، وغالبًا ما يكون في التفسير الموضوعي لسورة من السور، ينزلها على أوضاع المسلمين قديمًا وحديثًا، يعرض مفاصلها ووحدات موضوعها عرضًا موجزًا لكنه مستوعب، فتصبح بذلك السورة صورة شمسية، كما يقول، معروضة أمام عينيه، يفصل القول في موضوعها فيرسم بذلك وحدة متكاملة متناسقة، ما يظنه بعض الناس أشتاتا أو أجزاءًا مفككة

وكان يفعل هذا أيضًا في جولات يُدعى فيها إلى ولايات أخرى في الجزائر غير ولاية قسنطينة، يتنافس الناس فيها على دعوته لإلقاء درس أوموعظة أو محاضرة. وقد سافرت بصحبته إلى عدة ولايات في أعماق الجزائر، في الصحراء وغيرها، وكان لايرد دعوة وإن شق عليه السفر أحيانًا، وهو في شيخوخته تحسبه شابًا في عزمه وتوكله، ينتقل أحيانا بالسيارة مسافات بعيدة، وأخرى بالطائرة ثم السيارة، وهو في ذلك كله يشعر بسعادة غامرة في دعوته الى الله، وفي لقائه مع المؤمنين شبابًا وشيوخًا، نساءً ورجالا.

بهذا وصل ما انقطع من دعوة الإمام ابن باديس والشيخ الإبراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة و التجديد الذين دعوا في الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي، وجاهدوا في الله حق جهاده، وحَسِبَ الناسُ أن ابن باديس قد بعث، وأن الإبراهيمي قد عاد.

ومن الأحداث التي شهدها أول مرة في حياته زلزال هز مدينة قسنطينة، فخرج من بيته فزعًا وكان الزلزال قد حدث بعد المغرب، و لم ينس أن يعبر عن هذه الواقعة في تفسيره قائلاً: "وقد شهدت زلزالا لم يستغرق نصف دقيقة كدنا نفقد فيه وعينا"،[1] كما أشار إلى ذلك في تفسيره لسورة الزلزلة: "وقد عاينت

---

[1] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، القاهرة: دار الشروق، ط١. ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٣٦٧.

زلزالاً من نصف دقيقة طاش له اللب، وهام الناس على وجوههم منه"[٢].
خرجت زوجتي فرأته خارج منزله يهرول، فسألته عن حاله، فقال: اطمئني لا شر إن شاء الله. وأثّر هذا في نفسه، فألقى حديثا في التلفزة حول هذا الموضوع، وعتب على الناس مبالغتهم في الهلع، والخروج من ديارهم هائمين، يبيتون خارجها عدة ليال.

ولا أنسى موقفًا اغرورقت فيه عيناه بالدموع، وشهق شهقة عميقة لما أن زرنا مدينة خنشلة المشهورة بحمّامها المعدني الطبيعي. وقمنا بزيارة مقبرة الشهداء، وكانت قصتها عجيبة، إذ عُثِر على حفرة هائلة ألقى الاستعمار الفرنسي فيها جثث ألف شهيد بقيودهم وأغلالهم ولباسهم وأحذيتهم، فنُقِلوا ودُفِنوا في مقبرة فيها ألف قبر لألف شهيد تقع قرب المدينة المشار إليها في منطقة الأوراس المجاهدة، وذلك بعد الاستقلال.

وقد عانى شيخنا من عنت جهلة المتدينين وأنصاف المتعلمين وفتيان السوء[٣]- كما يسميهم - ممن يتطاول على الأئمة في الدفاع عن أحاديث لا يفهمون مرماها، وقد تكون من أوهى المرويات وأضعفها. وكان يفد إليه ويجلس في مجلسه في الدرس أصناف من هؤلاء ممن يفتون بسقوط الزكاة في عروض التجارة، ويزعمون أنهم من أهل الحديث وأنصار السنة، وقد أشار إلى ذلك في أحد مؤلفاته الذي دعاه إلى تأليفه في الجزائر أمثال هؤلاء: "وقد ظهرت في الجزائر فتوى لواحد من أهل الحديث حاربناها بقوة قبل أن تصيب الإسلام وأهله بضر شديد... فكيف يزعم زاعم أن عروض التجارة لا زكاة فيها؟! وأين يذهب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، لكن الشاب المشتغل بالحديث النبوي نادى في الناس ألاّ زكاة في عروض التجارة، إذ لا أصل لها فيما قرأ..."[٤] لذلك كله نجده يعنف في الرد على أمثال هؤلاء الذين لا يتدبرون القرآن، ولا طبيعة الدنيا التي نعيش فيها،

---

[٢] المصدر نفسه، ص٥٣٥.
[٣] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٩م، ص١٥.
[٤] المصدر نفسه، ص٢٥.

فإنه لا فقه مع العجز عن فهم القرآن، وفهم الحياة، إذ يختطف أحدهم حكما من حديث منفرد فيشقي البلاد والعباد.[٥]

وقد سأله طالب وهو في الجزائر: أصحيح أن موسى عليه السلام فقأ عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه؟ ففكر في الحديث وراجعه في مصادره، وقرر أنه معلول المتن بعلة قادحة، وأنه لا داعي للدفاع عنه، وإن صح سنده[٦]، كما فعل الإمام المازري.

ووقعت له نادرة أخرى في الجزائر، أتاه رجل طويل القامة، ضخم الجسم، فقال له: "إنه مسكون... قلت: من يسكنك؟ قال جني عات غلبني على أمري، فقلت وأنا أضحك: لماذا لم تسكنه أنت؟ إنك رجل طويل عريض، فسكت حائرًا."[٧] وأنقل هنا عبارة له تدل على ضجره الشديد بأمثال هذه الظواهر في المجتمع الإسلامي: "قلت وأنا ضجر: هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟! لماذا لم يشكُ ألماني أو ياباني من احتلال الجن لأجسامهما؟ إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم"،[٨] ولم يأت الشيخ في هذا الإنكار ببدع من القول، فقد حارب المعتزلة وغيرهم من العلماء من قبله هذا ورفضوه. وأغلب ما كتبه وأشار إليه في كتاب السنة النبوية قصه عليَّ في أحاديث جرت بيننا قبل أن يسطرها في كتاب، بل إنه ألقى حديثا في التلفزة في هذا الإسكان الجني في أجسام البشر.

وقد سعدت أيّما سعادة في صحبته في أسفار كثيرة كما أشرت، داخل الجزائر وخارجها، منها سفرنا لحضور مؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان (الأردن) مرتين، مررنا على روما، وبتنا بهذه العاصمة التاريخية، فكان نعم الصاحب في السفر ونعم الملتزم بالأوقات في حله وترحاله، يؤنسك بنكاته ونوادره، ويجعلك لا تشعر بالمسافات في صحبته.

---

[٥] المصدر نفسه، ص٢٦.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٦-٢٧.

[٧] المصدر نفسه، ص٩٢.

[٨] المصدر نفسه، ص٩٣.

وأشاع المشتغلون بالمرويات الواهية وفروع الفقه بلا فهم في أوساط طلاب الجامعة أن منهاج الجامعة الدراسي مقصود به مضادة الشريعة ومضايقتها، لما أن وجد من بين مواد الدراسة مداخل للعلوم البيولوجية والفيزيائية قصد منها أن يكون للطالب تكوين علمي عام.

وأذاعوا أن منهاج الجامعة أخذ من جامعة السوربون، وأنها لا تهتم بالعلوم الشرعية بقدر ما تهتم بالعلوم البعيدة عن الشرع، كما أشاعوا أن الجامعة بها جواسيس تابعون للموساد، لأننا جعلنا من بين موادها دراسة اللغة العبرية لمن يتخصص في مقارنة الأديان، يختار بينها وبين اللغة اليونانية، فاستغربوا ذلك، لأنهم يتصورون أن هذه الجامعة تقتصر على دراسة الفقه المالكي من مختصر الشيخ خليل وشروحه أو مؤلفات الشيخ الدردير لا تتجاوز ذلك، ولا تعدو أن تكون "زاوية" على النمط القديم.

كما كان في الجزائر فريق من الناس يرون أن الجامعة قنبلة مؤقتة، وأنها خطر داهم، وهم الذين يحقدون على الإسلام ويمكرون به، فوجدوا سبيلا إلى نسف الجامعة في مثل هذه العقليات الغبية المتحجرة، ولم يسلم **الشيخ الغزالي** من أن يتهم بعد ذلك بأنه هو السبب فيما يدور في الجزائر من مشكلات، اتهمه بذلك أحد كبار المسؤولين، بل أكبرهم، في وقت من الأوقات، وصرح بذلك في القاهرة في جمع من اليساريين ممن يحترف الكتابة والإعلام والثقافة.

أوعز هؤلاء الذين يريدون هدم هذه الجامعة لأولئك الذين ضاقوا ذرعا بمنهجها وبمضايقة العلوم الكونية في نظرهم للعلوم الشرعية، ليقوموا ضدها، ويحاربوا إدارتها التي عزمت على أن تقيم قبة فلكية، وكنا فعلا اتفقنا مع شركة، ورصدت لذلك ميزانية لبناء هذه القبة، وإنشاء معهد للتراث الفلكي الإسلامي، ولدراسة العلم الفلكي الذي أهملته الجامعات الأخرى في الجزائر، فأثاروا الشغب حولها، وساعدهم الوالي على ذلك الذي صادف هواه في كره هذه الجامعة والحقد عليها.

وكان **الشيخ الغزالي** رحمه الله في ذلك الوقت قد تعب لما أصابه من جلطة في دمه، كما أصابه وصب وضير من اختلاف هذه الجماعات خارج الجامعة، وتنازعها، كل جمع منهم يريد أن يسيطر على الجامعة بما له من بعض الأتباع

من الطلبة، وضاق عليه أمره، وشعر بأسى شديد، فأفسدوا على الجامعة أمرها، ودخلوا مكتب المدير، واحتلوه، وحلا لهم الجلوس فيه والأكل. وفي هذه الفتنة وجد خصوم الجامعة ضالتهم، وحدث قبل ذلك أن زارت الشيخ ابنته حرم الأستاذ محمد عبد القدوس، وشعرت بما فيه أبوها من ضيق وقلق، وما أصابه من جلطة في دمه، فألحت عليه في العودة إلى القاهرة، وإن كان في نفسه عازما على المضي في سبيل المناضلة والدعوة، فكتب خطابا لوزير الشؤون الدينية يعتذر فيه عن الاستمرار، وكنت أخبرت وزير التعليم العالي بالأمر، وألححت عليه أن يكتب خطابا للشيخ يرجوه الاستمرار في عمله حتى لا يجد الخصوم منفذًا للإفساد، ففعل. ولكن الشيخ لم يستطع أن يرفض إلحاح ابنته عليه، وقد أشاعوا أيضًا أنني على خلاف شديد مع الشيخ الغزالي، وأني ضايقته، وفرضت عليه المناهج الدراسية التي استقيتها من جامعة السوربون الكافرة كما أشرت إلى ذلك من قبل.

وتظاهر الوالي بإقامة حفل توديع للشيخ، وأغرب شيء أنه أعطى الكلمة لهؤلاء الطلبة الذين عبثوا بالجامعة في هذا الحفل، ومنعني من الكلام لأودع شيخنا وأنا في غاية الحزن من أن أمنع من ذلك، وأنا الذي صحبته وعملنا سويًا طوال خمس سنوات بما فيها من سمان وعجاف، وأنا مدير لهذه المؤسسة الرسمية، فانظر واعجب من سلوك الحاقدين المستبدين !!

- ٢ -

وهكذا غادر الشيخ الجامعة بعد خمس سنوات من العمل الدؤوب من سنة ١٩٨٤م إلى سنة ١٩٨٩م، وكان ذلك آخر عهد له بهذه الجامعة، ثم غادرتها من بعده أيضا مكرهًا، بعد أن نصّب وزير التعليم العالي في ذلك الوقت لجنة من أنصاف المتعلمين تشرف على الجامعة، ثم أقالني من هذا المنصب غير المأسوف عليه. وبعد مدة خلفني الدكتور أحمد عروة رحمه الله، فعانى من أولئك النفر ما عاني، وذاق ألوانا من العسف والضيق إلى أن توفاه الله إليه، وأصبحت الجامعة اليوم شبه زاوية كما كانوا يحلمون، وهكذا الصبيانية الدينية تذبح نفسها بنفسها وتدمر ذاتها بسعيها إلى حتفها بظلفها.

وأثناء وجودنا ـ ولله الحمد ـ استطعنا أن ننشئ فروعا للجامعة، منها معهد اللغة العربية والحضارة الإسلامية بوهران في غربي الجزائر، ومعهد الشريعة بباتنة في منطقة الأوراس، ومعهد آخر في أعماق الصحراء في أدرار في الجنوب الغربي من الجزائر، بالإضافة إلى معهد أصول الدين في الجزائر العاصمة الذي أنشئ قبل جامعة الأمير عبد القادر تابعا لجامعة الجزائر سنة ١٩٨٢م. وكنا على وشك أن نفتتح معهدا آخر في "عزابة" شمال شرقي قسنطينة، ولكن لما بدأ شغب المشاغبين يهدد الجامعة، أخبرني وزير التعليم العالي أنه قرر عدم فتح هذا المعهد بعد أن وافق عليه، بسبب الذي حدث، فأوقف ذلك، مع أنه كان يشرف على بناء هذا المعهد وإعداده من أموال التبرعات الشعبية الرائد **علي بومنجل** ذكره الله بالخير إن كان مايزال على قيد الحياة، وهو أحد المجاهدين المعروفين بمحاربته للاحتلال الفرنسي، كان رئيس جمعية محلية أسست لهذا الغرض فخاب أمل الجمعية وأمل هذا المجاهد، و لم يتحقق منه شيء إلى يومنا هذا.

ـ ٣ ـ

والآن يمكن لي أن أشير إلى بعض السمات البارزة التي اتضحت لي من تعاملي مع الغزالي ومن الحديث معه ومن قراءتي له. إنه كاتب يستعمل عقله، وإن للعقل عنده مكانة متميزة، ولا يسمح لنفسه أن يأخذ بما يخالف العقل، وهذا أمر في غاية الوضوح فيما يتحدث به وفيما يكتب. يقول: "إنني بعقلي أدركت أن للكون سيدًا أبدعه، ودبر أمره، وأيقنت أن هذا السيد واحد لا اثنان ولا ثلاثة.."[٩] هذا في أصل العقيدة نفسها فما بالك بغير ذلك، وأنا لا أشك أن مثل هذا الاعتزاز بالعقل والسمو به وتحكيمه في الأمور كلها إنما هو ناشئ من شخصيته التي رباها القرآن، ومن تلاوته له تلاوة واعية، وتدبره لمعانيه، وهذا ما جعله يعبر عن ذلك بأنه: "ليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاء، ويعرض آيات الله في الأنفس والآفاق لتكون ينابيع فكر يتعرف على الله، ويستريح إلى عظمته كما وقع في هذا القرآن"،[١٠]

[٩] محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص١٠٣.
[١٠] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١٠٥.

بل إنه جعل: "التفكير الواعي العميق أساس هذه الرسالة، سواء فكر المرء وحده أم استعان بأصدقائه، المهم أن يستيقظ العقل النائم فيرى آيات ربه في آفاق العالم.."[١١] ويرى "أن التفكير خاصة العقل الحي، وسمة الإنسان الراشد، وكل تدين ينبو عن منطق العقل ويرفض حقيقة الفطرة، فهو لغو من عند الناس، وليس وحيًا من عند الله سبحانه"،[١٢] بل إن "ما خالف العقل لا يكون دينًا، ولبعض الناس مرويات لا إسناد لها يجعلونها دينًا وماهي بدين"،[١٣] كما أن الدين عنده من جهة أخرى: "علم مقطوع به، والوحي حصانة للعقل وضمانة لأحكامه".[١٤]

ولكن مع هذا كله فهو يعرف حدود العقل وطاقته: "وطمحت أفكاري إلى حد فوق طاقتها فتساءلت عن هذا العرش والاستواء؟ وكان الجواب: إن الذي يجهل ما تحت قدمه لا يصلح له هذا التطاول، خير لك أن تعرف لماذا وجدت، وأن تحقق الحكمة من وجودك، فهذا أولى بك ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: ٧)، فَلأُحْسِن عملي، ولأصْقِل عقلي، ولأزكّي نفسي، ولأحقق ثمرة وجودي، فهذا أولى بي، وأجدى عليّ".[١٥]

وكثيرًا ما ينعى على المسلمين، وينقد مسالكهم، ويحزنه جهلهم بالكون في عصرنا هذا: "والمحزن أن العقل الإسلامي الآن جهول بالكون، تائه عن قوانينه، ضعيف الخبرة بها، والقدرة على استغلالها... المفروض أن العقل المؤمن أخبر بالحياة، وأذكى في الكون من العقل الملحد، لأن الإيمان بالله يقوم في الإسلام على تأمل للكون، ووعي بآيات الله في آفاقه، إنه لشيء يثير الحزن والقلق أن نجد المسلمين في مؤخرة القافلة البشرية على النحو الذي يقول فيه الشاعر:

---

[١١] نحو تفسير موضوعي، ص٣٣٤، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...﴾ (سبأ: ٤٦).

[١٢] المصدر نفسه، ص٢١٠، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

[١٣] المصدر نفسه، ص٤١٦.

[١٤] المصدر نفسه، ص٤١٦.

[١٥] المصدر نفسه، ص١٧٥.

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلاَ يُسْتَأْمَرُوْنَ وَهُمْ شُهُودُ.[١٦]

وهو يطبق هذه السمة التي اكتسبها من توجيه القرآن، فأصبحت فيه سجية راسخة، تطبيقًا واضحًا في الأصول والفروع، وفي الأحداث والظواهر المختلفة: "إنني أتبع محمدًا، لأن كتابه تجاوب مع ضميري! إنني عرفت الله بعقلي بعدما نظرت في نفسي، وفي آفاق العالم الذي يضمّني وسائر البشر"،[١٧] وذلك لأن: "الإيمان الذي يقوم على تخدير العقل، أو تمويته، لا وزن له، ولا خير فيه، ولكن جماهير غفيرة تنحّي العقل جانبا، ثم تتكلم، فكيف يسمع لها؟"[١٨] فالعقل في نظره "أثمن ما وهب الله للناس".[١٩]

ونختم سمته العقلية هذه التي صبغت منهجه في أحاديثه وكتاباته بعتاب له، يعتب فيه على أسلافنا في هذا المجال: "وقد عاتبت أسلافنا على هجرهم للفلسفة القرآنية الدارسة للمادة، وانشغالهم بالفلسفة اليونانية الباحثة في التصورات والأوهام، وإن كان من آبائنا من سدّ هذه الخلة، لكنهم للأسف قلّة".[٢٠]

وأعترف أني قد استفدت منه هذا الجانب في نظرتي للقرآن، وللأحاديث وخاصة الواهي منها، فاسترحت مما أجده في نفسي منها في قراءتي لبعض نصوص الأحاديث من هذا القبيل، في مجالس كثيرة تجري بيننا فيها أحاديث في هذا الموضوع. وعلى الرغم من اشتغالي بالفلسفة فإني كنت أتوقف عندها، وأتخذ لنفسي فيها مذهب الوقف، حتى أزال عني هذه الغشاوة فصرت إلى ما صار إليه من وضوح في الرؤية إزاء ذلك كله.

وهناك سمة أخرى لمحتها في أحاديثه وكتاباته وهي أنه يتساءل، ويلاحظ، ويتأمل، فهو يمتاز بدقة الملاحظة في الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبتأملاته في ظواهر الكون التي تثير انتباهه، وتفسيره للقرآن، وأحاديثه مليئة بهذا: "إن غزاة الجو ـ وهم في الطريق إلى القمر ـ نظروا إلى الأرض وهم على

---

[١٦] المصدر نفسه، ص٤٧١.
[١٧] المصدر نفسه، ص٤٥٦.
[١٨] المصدر نفسه، ص٤٥٦.
[١٩] المصدر نفسه، ص٤٥٦.
[٢٠] للمصدر نفسه، ص٥١٥.

بعد مئات الأميال منها ثم تساءلوا: من يمسكها في مكانها؟ وأتساءل معهم: من يمسك الماء على سطحها وهو أربعة أخماس الكرة؟ لماذا لا ينسكب في الجو؟ لأن الله جعل الأرض كفاتا،[21] تجذب كل قطرة إليها، أيّ لطافة سارية في طباق البر والبحر تقوم بهذا الصنع الباهر؟".[22]

وهو في ملاحظاته أيضا يتابع برامج عالم الحيوان والبحار في التلفزة، ويتأمل ويعجب: "إنني أتابع برامج عالم الحيوان وعالم البحار، وأعجب كيف تتكاثر الأحياء، وكيف تتفانى، وكيف يجعل الله طعام طير سارح من دودة ملصقة بظهر حيوان ضخم، يستريح حين يأكلها هذا الطير!!"،[23] ويرمق هذه الظواهر الطبيعية وهو في الطائرة مسافرًا، تجوب أجواء الصحراء أو البراري والجبال، وتقطع ركام السحاب في شمال الجزائر وجنوبها، ويسبح الله حين يلحظ جبالاً من السحاب المركوم، تعلوها الطائرة، فيرى السحب تحتها. وهو لا يستنكف أن يأخذ معلومات علمية عن راديو أثناء استماعه له، وينقلها في تفسيره إذا كان مصدر الحديث موثوقًا به علميًا.[24]

- ٤ -

ومن أهم ما استفدت منه شخصيا، وأفاد منه جمهوره في الجزائر، ومن يحبون أن يأخذوا عنه من المتنورين، طريقته في التفسير الذي نحا فيه نحوًا جديدًا، وسبيلاً لم يسلكه من كان قبله في تفهيم القرآن، وقد عبر عن ذلك هو نفسه ـ كما فعل ابن خلدون في المقدمة في إنشائه لعلم جديد، هو علم الاجتماع البشري ـ عبر عن ذلك في صدر تفسيره قائلا: "هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم... قد أرتاد طريقًا لم أسبق إليه، أفتح به بابًا من أبواب الخير"،[25] وميز في ذلك بين التفسير الموضوعي والتفسير "الموضعي" أو التحليلي، والتفسير

---

[21] وذلك في تفسيره لكلمة "كفات" التي وردت في سورة المرسلات: ٢٥-٢٦. وانها الجاذبية الأرضية: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾.
[22] المصدر نفسه، ص٤٩٤
[23] المصدر نفسه، ص٢٠١
[24] المصدر نفسه، ص١٩١
[25] المصدر نفسه، ص٥

الموضوعي قد يكون هدفه تفسير الوحدة الموضوعية لكل سورة على حدة، وقد يكون تفسيرًا لوحدة موضوعية معينة، من خلال القرآن كله، تتبعا واستقراء.

وهذا الارتباط الحميم بالقرآن ليس شيئًا جديدًا طارئًا على حياته، بل إنه لزمه منذ طفولته، وتشربه قلبه منذ نعومة أظفاره: "لقد صحبت القرآن من طفولتي وحفظته في سن العاشرة، ومازلت أقرؤه وأنا في العقد الثامن من العمر".[٢٦] ويرى مثلا أن سورة النساء ربما يخدع عنوانها بعض الناس، فيظنها قاصرة على شؤون المرأة فيقول: "وقصار النظر يحسبون السورة أجزاء مفككة، وهذا خطأ يحمي الله منه أهل التدبر والاعتبار"[٢٧]، ثم يبين "أن موضوع السورة عام، يتناول المجتمع كله... فحديث النساء جزء من كل".[٢٨] وهو في ذلك يصور القرآن ومعانيه تصويرًا جميلاً متناسقًا: "إن معاني القرآن متداخلة متضافرة تلتقي كلها في سياق واحد، يعمل عمله في النفس، وليست هدايات القرآن فصولاً مقسمة على نحو متميز، وهكذا العالم نراه مصدرًا لأشتات العلوم، وهو كيان واحد، يستقي منه علماء الأحياء، وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك.."[٢٩] وهذه المقابلة بين آيات القرآن ومعانيه، وآيات الأكوان وتناسقها وغناها، لم يسبق إليه فيما أعلم. ويصف تتابع معاني سورة الأعراف مثلا بأنها: "مع بدء السورة بدأت عدة معان مجملة، أخذت تتسع كأنها رؤوس مثلثات تضمّنت قواعدها تفاصيل شتى، على أن هذه المعاني لا تسير في تيارات منفصلة، بل تراها وهي تتلاقى، كأنها ضفائر متناسقة، هدفها جميعًا الإيمان، والعبرة، والاستقامة والوعي"،[٣٠] ولكنه يعود فيصف سورة يس، بأنها ذات مقدمة وثلاثة فصول،[٣١] فكل سورة لها معانيها ونسقها وهدفها الرئيس.

وقد يسأل سائل: هل كان الشيخ بدعا في تفسيره؟ وهل تأثر بقراءاته لتفاسير غيره؟ وإذا أراد أن يستأنس بغيره في معنى من المعاني أو في سياق من

---

[٢٦] المصدر نفسه، ص٥.
[٢٧] المصدر نفسه، ص٧٠.
[٢٨] المصدر نفسه، ص٧٠.
[٢٩] المصدر نفسه، ص١١٢.
[٣٠] المصدر نفسه، ص١١٨.
[٣١] المصدر نفسه، ص٣٤٠.

السياقات هل يشير إلى ذلك؟ تساءلت هذا السؤال فرأيته يذكر في تفسيره **الشيخ رشيد رضا**، ويستفتيه: "وبعد إعمال الذهن وإدامة التدبر لم أعد بطائل فقلت أستفتي صاحب المنار، وأتعرف على رأي الأستاذ الإمام، فوجدت الجواب السائغ"،[٣٢] ونقل عنه أيضا في تفسير سورة النساء نصا طويلا.[٣٣] ومن مصادره التي أشار إليها تفسير **الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور التحرير والتنوير**، وأيده فيما ذهب إليه من رأي: "وأنا أؤيد تفسير الفاضل[٣٤] ابن عاشور"،[٣٥] ونقل عنه أيضا: "وقال ابن عاشور في تفسيره: إن اللقاء هنا الجهاد"،[٣٦] وأخذ عنه كذلك رأيه في تفسير "الرق المنشور" في سورة الطور على أنه صحائف موسى: "وهذا رأي العلامة ابن عاشور"،[٣٧] ووصفه هنا بالعلامة لتقديره لتفسيره وآرائه. وقد رأيت في منزله في قسنطينة تفسير **ابن جزي الأندلسي التسهيل** فسألته عنه، فأثنى عليه لإفادته واختصاره، ولكن لم يذكره، ولم ينقل عنه في تفسيره، ولعله لم يلمح فيه شيئًا جديدًا.

وينبغي أن نشير فيما يتعلق بتفسير وحدة السورة الموضوعية إلى أنه ذكر تأسّيه بالدكتور **الشيخ محمد عبد الله دراز** في تفسيره لوحدة الموضوع في السورة الواحدة: "وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه **النبأ العظيم** وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد".[٣٨]

وأود هنا أن أذكر بعض الاجتهادات التي صرح أنها اجتهاداته الخاصة، وأنها فهم اهتدى إليه، أو معنى أوتيه أو اختاره من بين اجتهادات من تقدمه

---

[٣٢] المصدر نفسه، ص٣٢، تساءل عن ذكر الحج بعد الحوار مع أهل الكتاب، ولماذا جاء قبله أيضا الحديث عن الأطعمة المحرمة والمحللة في سورة آل عمران.

[٣٣] المصدر نفسه، ص٥٢.

[٣٤] وقع له سهو في الاسم لأن الفاضل بن عاشور هو ابن من أبناء محمد الطاهر، وليس له تفسير، وقد لا يفرق بعض الناس بينهما كما فعلوا في ابن رشد الجد الفقيه وابن رشد الحفيد الفيلسوف.

[٣٥] المصدر نفسه، ص٢١٥.

[٣٦] المصدر نفسه، ص٣٢١.

[٣٧] المصدر نفسه، ص٤١٣.

[٣٨] المصدر نفسه، ص٥.

من المفسرين؛ من ذلك أنه يرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء، وليسوا كما يرى المفسرون هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم،[٣٩] كذلك له اجتهاد في أنه يجوز تعدد الأئمة في صلاة الخوف، وأن وحدة الإمام أمر خاص بالرسول ﷺ،[٤٠] كما شكك في رأي الجيولوجيين في تحديدهم لبداية الجنس البشري، وذهب إلى رأي غير رأيهم.[٤١] ويرى أن عيسى عليه السلام جرت عليه سنة الموت فمات، وأن عودته إنما هي إحياء له من جديد؛[٤٢] وله اجتهاد خاص في سبب شيب الرسول ﷺ من سورة هود، رآه في توجيه الخطاب إليه مباشرة خلال السورة مرات متعددة من أولها إلى آخرها، الأمر الذي لا يوجد في غيرها،[٤٣] وذهب في تفسير يأجوج ومأجوج إلى أنهم يعيشون في الصين، وأنه يبدو من جرس الكلمة أنها صينية،[٤٤] مخالفا في ذلك ما ذهب إليه ابن عاشور من أنهم التتار والمغول، كما ذهب إلى أن الطوفان لم يكن عالميا وإنما هو محلّي فحسب،[٤٥] وأن انشقاق القمر الذي ورد في فاتحة سورة القمر إنما هو انشقاق يقع في آخر الزمان حين تضطرب الأفلاك ويتغير نظام الكون.

وله فهم خاص في "الشفق" الذي ورد في سورة الانشقاق: "وقد بدا لي في هذا القَسَم فهم إن كان حقا فمن الله وله المنة، وإن كان خطأ فمن نفسي، وأسأله العفو: إن الشفق هنا إيماءة إلى تاريخ المسلمين، وما يعتريه من عسر ويسر، وهزيمة ونصر... وقد جئنا في أصيل العالم أو في شفقه، والغروب موشك"،[٤٦] وذهب إلى رأي في المطلقة طلاقا بائنا والنفقة عليها؛[٤٧] ولاحظ أن كلمة "القرآن" تكررت في سورة الإسراء نحو إحدى عشرة مرة، فبين السّر في

---

[٣٩] المصدر نفسه، ص١١١.

[٤٠] المصدر نفسه، ص٦٣.

[٤١] المصدر نفسه، ص١١٩.

[٤٢] المصدر نفسه، ص٣٦.

[٤٣] المصدر نفسه، ص١٦٧، يحسن الرجوع إلى تفسيره لتكون الصورة أكثر وضوحا.

[٤٤] المصدر نفسه، ص١٣٨، ٢٥٧.

[٤٥] المصدر نفسه، ص٣٤٨.

[٤٦] المصدر نفسه، ص٥٠٧-٥٠٨، يحسن الرجوع إلى المصدر لاستكمال الصورة وما ورد في ذلك من حديث رواه الترمذي لما طالعه الشيخ بدا له هذا المعنى التاريخي.

[٤٧] المصدر نفسه، ص٥٦٥-٥٦٦.

ذلك، وهو أمر لم يسبق إليه فيما أعتقد: "إن سورة بني إسرائيل (الإسراء) انفردت بهذه الخاصة علّ المسلمين يفقهون أن القرآن الذي صنع أمتهم قديما، قدير على أنه يصبّهم في قوالب السيادة والقيادة مرة أخرى...".[48]

- ٥ -

ومن أهم مواقف شيخنا التي عشتها معه وشاهدته فيها محاربته التي لا هوادة فيها لبعض من يزعمون أنهم دعاة، ويسمي هذه الظاهرة "بالطفولة" أو "فتيان سوء"،[49] ويقرنها "بالطفولة الشيوعية" التي نقدها لينين. ويبدو أن الذي دفعه إلى تأليف كتابه **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث** هو هذه الظاهرة الطفولية في الدعوة والفهم السقيم، والتعلق بالأحاديث وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت، دون النظر إلى القرآن، وهو ما ينبغي أن يدرسوه أولا، ولذلك قال في أول هذا الكتاب: "وفي هذا الكتاب جرعة قد تكون مرة للفتيان الذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية ثم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا، بعد قراءة عابرة أو عميقة"[50] كما أن: "فيه درسًا آخر لأولئك الذي يحاربون الفقه المذهبي ويركنون إلى سلفية مزعومة، عرفت من الإسلام قشوره، ونسيت جذوره"،[51] إذ إن "التقليد المذهبي أقل ضررًا من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة".[52]

ومعنى هذا أن كتابه هذا صنعه لعلاج ما انتشر من فقه بدوي، وتصور طفولي للعقائد والشرائع،[53] وقد أدى هذا السلوك الذي ينظر إلى النقاب وتقصير الجلباب نظرته إلى التوحيد، إلى تخويف الناس من الصحوة الإسلامية، ومكن الخصوم من بسط ألسنتهم[54] الحداد فيها، لا يفرقون في ذلك بين مستنير مستقيم الفكر والعمل، ومظلم معوج الفكر والعمل، وكأنهم يريدون فيما يرى

---

[48] المصدر نفسه، ص٢١٨-٢١٩.
[49] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١٥.
[50] المصدر نفسه، ص١١
[51] المصدر نفسه، ص١١
[52] المصدر نفسه، ص١٠
[53] المصدر نفسه، ص١١
[54] المصدر نفسه، ص٣٦

الشيخ الغزالي "نقل تقاليد عبس وذبيان إلى أمريكا"[٥٥] فيما يتعلق بالمرأة، فتجدهم "أرباب لحى"، وأصحاب هامات وقامات، يقعون على أحاديث لا يفهمونها ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانقباض والخوف.[٥٦] وتكمن وراء هذه القامات والهامات "عقلية طفولية" مخيفة تريد أن تقود الأمة إلى ظلام حالك. وهكذا تظهر في الميدان ظاهرة التدين الفاسد التي تضم إلى الدين ما ليس منه،[٥٧] ففشلوا في عرض الدين، وشوّهوا معالمه، وبذلك أصبحت الدعوة الدينية مهزومة في ميدان الإعلام.[٥٨] فالتدين الفاسد يسلك سلوكا غبيا، ويحسبه صاحبه من الإيمان بالغيب: "وقد رأيت في تجاربي أن الفرق بين تدين الشكل وتَدُّين الموضوع هو قسوة القلب أو رقته، بعض الناس في طباعهم جلافة وقساوة، لا تخفيها صور العبادات التي يستسهلون أداءها"،[٥٩] وإذا قسا قلب من يزعم لنفسه قيادة الدعوة، فتلك هزيمة منكرة لا ناصر لها: "وقد لا حظ نقدة الفكر الديني أن بعض الناس يقصر ثوبه دلالة تقوى، وفي قلبه كبر فوعون"،[٦٠] ومقتضى الإيمان الرحمة بالخلق ورقة القلب، ولكن: "هناك قوم ينتمون إلى الإيمان وفي صدورهم صلف وأثرة، تستغرب قساوة قلوبهم، وخشونة جوانبهم"؛[٦١] ويسمي هذه الظاهرة أيضا التدين الجاهل حينما يعتقد أصحابه أن التخلف في الدنيا أمارة التقدم في الآخرة:[٦٢] "وهذا فهم منكر، فإن الدخول إلى الإيمان يكون من باب العلم الحاذق، لا من باب القصور البليد"،[٦٣] ولأن: "الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصرَ الإيمان أبله ولا قاعد"،[٦٤] ويتساءل: "هل الفشل في الأرض هو طريق النجاح في السماء؟"[٦٥]

---

[٥٥] المصدر نفسه، ص٥١.
[٥٦] المصدر نفسه، ص١٠٨-١٠٩.
[٥٧] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص١٠٦.
[٥٨] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١٣٨.
[٥٩] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص٧٣.
[٦٠] المصدر نفسه، ص١١٦.
[٦١] المصدر نفسه، ص٤٤٣.
[٦٢] المصدر نفسه، ص٣٣١.
[٦٣] المصدر نفسه، ص٣٣١.
[٦٤] المصدر نفسه، ص٣٣١.
[٦٥] المصدر نفسه، ص٤٤٤

ويرى أن هذا هو ما أدى إلى فشل إدارة الأديان في الأرض، فإن الإيمان بالله يُبنى - فيما يبنى عليه - على التأمل في الكون، ودراسة قوانينه؛[٦٦] ويصور التدين بأنه: "قوة وبصيرة وليس وهنا ولا غباء"،[٦٧] وهو معنى قرآني خالص، حينما يصف القرآن الأنبياء والرسل بأنهم ذوو الأيدي والأبصار.

ويرى شيخنا أن: "نصف فساد العالم يرجع إلى قصور رجال الدين، وتبلدهم النفسي"،[٦٨] وذلك بسبب أنه: "قد تحولت موروثاتهم إلى دراسات شكلية لا تهذب نفسًا، ولا تصقل فكرًا، إنهم معها كالدوابّ التي تحمل صناديق الكتب ولا صلة لها بما حوت"،[٦٩] وينصح الشيخ الغزالي أنصاف المتعلمين وأنصاف المتدينين "بأن يسكتوا أو أن يستحيوا"[٧٠] إذا تكلموا في الإسلام، ولا علم لهم بالكتاب والسنة، ولا فهم.

إن علة انتشار الإلحاد والمادية إنما هي في نظره: "غياب الوحي الحق، لعجز حملته عن وعيه وتبليغه، وسيادة فلسفات وأديان أرضية، لا تشبع نهمة العقل، ولا ترضي أشواق الفطرة".[٧١] ويتساءل الشيخ الغزالي: لماذا لا يتعلم هؤلاء الدين، ويحسنون فقهه والعمل به وعرضه؟: "فإن القادة لا تكون أقل مستوى من المقودين"؛[٧٢] وأنكى من ذلك كله وأدهى، أن يؤدي سوء الفهم، وسوء العمل إلى القتل والقتال، وسفك دماء الأمة: "وفي هذه الأيام النحسات، شاعت الخلافات في أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضا، بل إن حصيلة القتلى في الفتن الداخلية أربى من القتلى في محاربة الاستعمار الصليبي العائد، المتحالف مع اليهود والناقمين".[٧٣]

هذا كله تحليل لأمراض الدعاة، وتشخيص لأدوائهم، ونتائج سوء أفهامهم وأعمالهم في ضعف الأمة وتآكلها.

---

[٦٦] المصدر نفسه، ص٤٤٤.
[٦٧] المصدر نفسه، ص٣٥٤.
[٦٨] يقصد الديانات عامة.
[٦٩] المصدر نفسه، ص٣٨٨.
[٧٠] المصدر نفسه، ص٤٣٢.
[٧١] المصدر نفسه، ص٣١٣.
[٧٢] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١٠٨.
[٧٣] المصدر نفسه، ص١٠٨.

ومن أهم أعماله التي عايشتها، وأفدتُ منها في حياتي الثقافية ما عالجه في أحاديثه وكتبه، وخاصة كتاب **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، من ظاهرة المرويات الواهية، وحملتها من ذوي العقليات الحرفية، ومنقطعي الصلة بفهم القرآن، وجعله مقياسًا لما يقبل وما لا يقبل من الأحاديث، فقد ضاق ذرعًا: "بقليلي الفقه في القرآن، كثيري النظر في الأحاديث، يصدرون الأحكام، ويرسلون الفتاوى، فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، ولا زلت أحذّر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل، وحديثهم عن الإسلام جريء، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي، المستوعب لشؤون الحياة".[٧٤]

وكان شديد الحرص على: "شدة الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها، مستغرقون في شؤون أخرى، تعجزهم عن تشرب الوحي".[٧٥]

وقد انتشرت أحاديث بين الشباب يأخذون منها أحكامًا سيئة، إن قبل سندها افتراضًا، فإن متونها لا يصح قبولها؛[٧٦] وهو يسلك في ذلك مسلك عمر بن الخطاب ﷺ ومنهج أبي حنيفة في الأخذ بظاهر القرآن وعمومياته، وتقديم ذلك على أحاديث الأحاد، وتقديم الرأي القوي على الروايات المشكوك فيها.[٧٧] ويقوم منهجه على منع التناقض بين القرآن والسنة أو فهمها على غير وجهها، ونفي التناقض بين ذلك كله، وبين الواقع التاريخي الثابت.[٧٨] ولذلك فهو يرى أن "من لا فقه لهم يجب أن يغلقوا أفواههم لئلا يسيئوا إلى الإسلام، بحديث لم يفهموه، أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضده"؛[٧٩] وهو يشبّه الذي يخوض في ميدان التدين وكانت بضاعته في الحديث مزجاة بالذي يدخل السوق وليس معه إلا نقود مزيفة،[٨٠] أو "شيكات"[٨١] لا رصيد لها. ولهذا وجبت اليقظة

---

[٧٤] المصدر نفسه، ص٢٢.
[٧٥] المصدر نفسه، ص٢٤.
[٧٦] المصدر نفسه، ص٣٠.
[٧٧] المصدر نفسه، ص٣٢.
[٧٨] المصدر نفسه، ص٥٠.
[٧٩] المصدر نفسه، ص٥٢.
[٨٠] المصدر نفسه، ص٥٧.
[٨١] أصلها العربي: "صكوك" وأخذها الفرنجة وحرفوها.

على الدعاة، فلا ينخدعون بالآثار الواهية أو الأحاديث الموضوعة، وأن يعرفوا المعاني الصحيحة لما صح منها، فلا فقه بلا سنة، ولا سنة بلا فقه.

ومن المآسي التي نبه إليها "أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه، لتكون دينا مع الدين"،[٨٢] وهذا ما أدى إلى مسالك معوجة، كما لاحظ الشيخ: "وقد رأيت في هذه الأيام من يسمي نفسه أمير جماعة، والجهد الذي يبذله، يتصبب عرقا وهو يقوم به، هو إشاعة النقاب بين النساء، أو إشاعة الجلباب بين الرجال، أو تحريم الذهب على النساء والرجال جميعا، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله"،[٨٣] حتى خيل لبعض الشباب المسكين: "أن الجلباب هو زي الإسلام، وأن البدلة زي الكفار"،[٨٤] فالإسلام ليس كما يتصوره هؤلاء "دينا إقليميًا، ولا فقهًا بدويًا ضيق النطاق".[٨٥] ولعلهم يريدون أن يجعلوا مصدر الدين هو المجتمع وأنه ظاهرة اجتماعية تصدر عنه، كما زعم بعض علماء الاجتماع.

وأدى الجهل بالقرآن إلى القول بأن أحاديث الآحاد تنسخ القرآن، وهو: "زعم في غاية الغثاثة"،[٨٦] فكيف تترك آية لحديث هو موضع لغط.[٨٧] وهناك مرويات واهية إذا أخذ بها أدت إلى خراب العالم، كالآثار التي تزهّد في الزينة التي أخرج الله للناس في الدنيا: "لو جعلنا هذه المرويات محور حياة عامة لشاع الخراب في أرجاء الدنيا".[٨٨] ولو أن العالم الإسلامي اتبع هؤلاء الحرفيين لتراجع إلى العصر الحجري في بعض جوانبه.[٨٩] ولطالما حذّر من هذا الطيش في فهم المرويات، ووصف ذلك بالمرض المحذور،[٩٠] إذ ليس لرواية الآحاد أن تشغب على الكتاب والسنة الثابتة، أو أن تعرّض حقائق الدين للتهم والريب

---

٨٢ المصدر نفسه، ص٥٩.
٨٣ المصدر نفسه، ص٦٦.
٨٤ المصدر نفسه، ص٨٦.
٨٥ المصدر نفسه، ص٧٥.
٨٦ المصدر نفسه، ص١٠٣.
٨٧ المصدر نفسه، ص١٠٣.
٨٨ المصدر نفسه، ص١١٧.
٨٩ المصدر نفسه، ص١١٧.
٩٠ المصدر نفسه، ص١١٧.

والنفور؛[٩١] ولا يصح أخذ الحكم الديني من حديث مفصول عن الأحاديث الأخرى، وعما دل عليه القرآن.

وخلاصة هذا الأمر عنده أن "القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب أو تنسخ أحكامه فهو مغرور"،[٩٢] وهو في هذا يدفع الأحاديث الضعيفة والموضوعة أو المعلولة كما فعل غيره من المحدّثين، لما رآه من تهافت الناس على هذه الواهيات والمعلولات التي تتنافى مع القرآن، وأصول الدين. ونعى على جماعة من البطالين والفاشلين وقوفهم عندما هو مرفوض، وحسبوه دينًا ثابتًا، وما هو من الدين، كما نعى على القاصرين ممن يشتغلون بالحديث بلا معرفة بحقيقته، ثم يحلو لهم أن يشغبوا على الدين كله، بلا وعي ولا فقه،[٩٣] فشاعت أحكام طائشة، وأفهام سقيمة أدت إلى فتن عمياء، ومسالك ضالة مضلة.

- ٦ -

ولم يفت شيخنا الغزالي أن ينقد نقدًا شديدًا مسالك الساسة المعوجة، واستبدادهم الهالك، كما نقد حملة الأقلام، وخدمة الحكام من الكتاب، وممن ينتسبون إلى الدين، وما يزينونه من أعمال الظلمة، وأن ينقد أيضًا الأيديولوجيات المختلفة الألوان والأشكال من قومية وشيوعية ورأسمالية واشتراكية وعلمانية ومادية، وأن ينقد الحضارة الغربية المعاصرة، وهذا أمر يطول الخوض فيه.

ولكن الذي وددت أن أختم به كلمتي هذه هو أن أتعرض لجانب نقدي ممتاز فاق فيه كل من تعرضوا له ألا وهو نقده لموقف المجتمعات الإسلامية من المرأة، وتحقيرهم لها وهي الأم والأخت والزوجة والبنت. فهو من أكثر الدعاة إنصافًا لها، وذودًا عن حياضها وكرامتها، فهو يرى أن المجتمع الإسلامي حكم

---

[٩١] المصدر نفسه، ص١٤٦.
[٩٢] المصدر نفسه، ص١١٨.
[٩٣] المصدر نفسه، ص١٢٨.

على المرأة بالموت الأدبي والعلمي مما يدل على أنها أمة أكلها الجهل والاعوجاج، وأن ما يقوم به المشاغبون على سفور المرأة، يتصرفون في قضايا المرأة تصرفا يهز كيانها الروحي والثقافي والاجتماعي،[٩٤] حتى إنه وُضِع حديث وضعا لا أصل له، يمنع المرأة من تعلم الكتابة.[٩٥] وقد أنزلتها بعض الأوساط منزلة الكلب: "لاحظت في بعض الأوساط الهابطة أن المرأة عليها وليس لها، وأنها تعامل بامتهان وغلظة، وأنها قد تأكل الفضلات في البيت، وتذهب أطايب الطعام إلى غيرها، والسبب الأول بعض المتحدثين في الدين من الجاهلين والتافهين"،[٩٦] وذكر: "أن نفرًا من المسلمين فارغي القلوب والعقول يحتقرون الأنوثة، ويهينون الزوجة والأخت والبنت، ويتقربون بحبسها وتجهيلها والاستطالة عليها".[٩٧]

ويأسف الشيخ الغزالي أن يرى "عددًا من المتدينين يبني تقواه على الإغلاظ للمرأة، وإساءة عشرتها، وانتقاص مكانتها، حتى كره النساء في العالم كله الإسلام، وخافوا من سيطرته على المجتمع مع هذا الفهم الفاسد".[٩٨] ويرى أنه ليس من المعقول في زماننا هذا "أن نمنع المرأة عندنا من ركوب سيارة،[٩٩] على حين يعطيها العالم حق قيادة أمة، والسهر على مصالحها".[١٠٠] ويصف أولئك الذين يدافعون عن بقاء المرأة في الظلم بأنهم أصحاب "غباوة رائعة"،[١٠١] ولم أر لغيره من الكتاب هذا التعبير الساخر، فالمرأة ذات الدين عنده: "خير من ذي لحية كفور".[١٠٢] وينبه هؤلاء إلى أن امرأة يهودية: "شاركت في الهزيمة المخزية التي نزلت بنا، وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا... وقادت قومها،

[٩٤] المصدر نفسه، ص٤١.
[٩٥] المصدر نفسه، ص٥٤.
[٩٦] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص٢١.
[٩٧] المصدر نفسه، ص٤٩.
[٩٨] المصدر نفسه، ص٤٨.
[٩٩] لعله يقصد: قيادة سيارة.
[١٠٠] نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، ص٢٢.
[١٠١] السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص٤٧.
[١٠٢] المصدر نفسه، ص٥١.

وأذلت نفرًا من الساسة العرب لهم لحى وشوارب في حرب الأيام الستة، وفي حروب تالية"،[١٠٣] كما عاد المارشال **يحيى خان** يجر أذيال الخيبة إثر هزيمته أمام قيادة امرأة هندية: **أنديرا غاندي**[١٠٤] التي قصمت ظهر باكستان.

هذا ما أردت أن أعبر عنه، واخترت أن أنقل نصوصا حرفية لشيخنا حتى لا يقال إني تقوّلت عليه أو سلكت في ذلك مسالك الخيال، والحمد لله رب العالمين.

---

[١٠٣] المصدر نفسه، ص٤٥.

[١٠٤] المصدر نفسه، ص٥٠.

العالم بين حدّين
نظرة في المبادئ الموجِّهة للتجربة الغزالية

فهمي جدعان*

عرفت التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة - في تركيبها النظري والعملي الشامل - ثلة مرموقة من الرجال الذين رفدوها بعلم نظريّ غزير وبعمل "دَعَويّ" وفير. إننا لا نفتأ نذكر **محمد بن عبد الوهاب**، والقاضي **الشوكاني**، **وجمال الدين الأفغاني**، **ومحمد عبده**، **ومحمد رشيد رضا**، **وعبد الحميد بن باديس**، **وحسن البنا**، **والقاسمي**، **والمغربي**، **والألوسيين**، **والندوي**، **والمودودي**، **وسيد قطب**، وكثيرين آخرين، لكننا لا نملك إلا الإقرار بأن الشيخ محمد الغزالي كان، في تقدير جملة الناظرين، من أبعدهم أثراً في "الملأ" منهم. لا أحد يخطر في باله أن الشيخ الغزالي قد ابتغى صوغ منظومة فكرية تصورية محكومة بآليات المنطق التقني ومنهجيات العلم الطبيعي السائرة، على ما نجد عند المفكرين والفلاسفة أو اللاهوتيين أو المتكلمين المحترفين أو فلاسفة العلوم الوضعية، لأن منظومته التي تمثلها وأحياها وسعى على الدوام إلى نشرها كانت "الإسلام" نفسه، في جملته، وفي وجوهه التفصيلية المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والخلقية والروحية، ولأن المبدأ الرئيس الموجه لتجربته وحياته تمثل في أن "الإسلام للحياة".

---

* دكتوراه دولة في الفلسفة من جامعة السوربون، باريس ١٩٦٨م، أستاذ الفلسفة والفكر العربي والإسلامي، وعميد كلية الآداب بجامعة البنات الأردنية في عمان.

لكن ذلك لا يعني أبدًا أن تجربة الشيخ الروحية كانت تجربة "شاردة"، تند عن الموجهات المنهجية والمبادئ التأسيسية الصلبة التي كانت توجّه حِراكه النظري والعملي في دنيا البشر، أو أنها كانت محض تمثلات "عاطفية" لروح متوثبة متحمسة مناضلة، أو خالص "وعظ إقناعيّ" يتوجه إلى عامة الناس أو إلى قوم لا يأبهون بالأسس الموضوعية للخطاب الذي يتلقونه. فواقع الأمر أن المبادئ "الموضوعية" التي أسست "العقل الإسلامي" الغزاليّ كانت ماثلة على الدوام في جميع أعماله العلمية والفكرية التي نتداولها ونقلبها من أجل النظر والتأمل، أو من أجل البحث، أو من أجل نشدان الفائدة. كما أن الذين استمعوا إلى دروسه أو التقوا به وبادلوه الحوار أو الجدل أو السجال يعرفون ذلك حقًا.

وهذه المبادئ الموجِّهة أربعة رئيسة هي: الإيمان والعقل والعلم والعاطفة الوجدانية. وقد يمكننا ردها إلى حدين مركزيين تتردد بينهما جميع هذه المبادئ وهما: حدا الإيمان من طرف أول، وإليه يرد مبدأ العاطفة الوجدانية، والعقل من طرف ثان، وإليه يرد العلم أساسًا.

لا يتطلب واقع الحال إلا القدر الأدنى من تقليب النظر لإدراك مُعْطَى أساسيّ بيّن هو أن واقعة "الإيمان" هي الواقعة المبدئية، الصلبة، الأصلية، التأسيسية، البانية لكل ما صدر عن الغزالي من قول أو نشاط أو فعل. ومن الطبيعي أن يكون الأمر على هذه الحال، لأن الرجل أسلم نفسه للإسلام وعلّق به حياته كلها ورهن هذه الحياة لرسالته الدعوية المناضلة. والحقيقة أن "الإيمان" عنده لم يكن مجرد إقرار باللسان وتصديق بالقلب، مثلما عرّفه أهل الفرق الإسلامية القديمة، فهذا التحديد تحديد ناقص، إذ إنه يغفل عن أسس وخصائص أخرى "موضوعية" يتقوم الإيمان بها. إنه يحدد الإيمان بأنه "معرفة بلغت حد اليقين، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع"[1]. ولا شك أن هذا اليقين "تصديق" أو تصديق تام ـ وهو مصطلح القدماء ـ لكن هذا التصديق ذو أساسين صلبين: أولهما نظري، وثانيهما نفسي: أولهما "عقلي"، وثانيهما

---

[1] محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٠م)، ص ٢٦.

"قلبي". فمعنى أن نؤمـن بـالله أننـا "نعرفـه"، وأن هـذه المعرفـة معرفـة "ممتلئـة" باليقين لا يساورها أي شك أو ريب أو تردد، وأن التصديق الذي يتلبسـها هـو تصديق عقليٌ يستند إلى أدلة موضوعية وعلمية، ونفسيٌ يتمثل في الاطمئنان إلى هذه الحقيقة، وفي سريان تيار شعوري في النفس يملؤها ثقة وسعادة وإقبالاً على الحياة وعلى الله ورضوانه. والحقيقة أن الشيخ الغزالي يفارق هنا التيار العقلاني الخالص الذي مثله في الإسلام المعتزلة وابن رشد وجملة المتكلمين والفلاسفة؛ إذ لم يخص العقل بمطلق المرجعية في المعرفة. كما يفارق تيـار "أصحـاب الحديـث" القدماء الذين خصوا (النص) بمطلق المرجعية، ولم يتمثلوا لأنفسهم هذا المركّـب الفريد للمعرفة.

لا شك أننا نستطيع أن نتصور أن هذا الموقـف ليـس إلا تركيبـاً بـين (تيـار الرأي)، العقلاني على وجه الإجمال، و (تيار الصوفية)، الروحي بإطلاق. كمـا يمكننا أن نذهب إلى أن الغزالي لم يكن هنا إلا تلميذاً أميناً على التقليـد الراسـخ الذي أرساه الشيخ محمد عبده إذ جمع، في تأسـيس المعرفـة الدينيـة، بـين العقـل والوجدان، علـى مـا سـاقه في **رسالة التوحيـد**. وأعـترف بـأنني أميـل إلى هـذا التعليل، إن أنا حرصت على أن أتعلق بمناهج الأكاديميين والباحثين العلميـين في النظر والتحليل، وبخاصة بسبب ما أتبينه من وجوه التأثير واللقـاء والتـآلف بـين فكر محمد الغزالي وفكر محمد عبده. لكنني مع ذلـك أرى أن المسـألة في نهايـة التحليل ليست مسألة "مؤثّر" و"متأثّر"، بقدر ما هي مسـألة تجربـة معيشـة حيـة تجسد حالة فكرية نفسية وجدانيـة مشـخصة، هـي أن الرجـل كـان كتلـة حيـة متوثبة من قوة العقل وحرارة الوجـدان والعاطفـة وجـدت نفسـها مشـخصة في هذا المركب الحيّ، مركب العقل والوجدان.

ومع أن للقلـب أحكامًا لا يعرفهـا العقـل ـ مثلمـا تقـول عبـارة باسـكال الشهيرة ـ إلا أن العقل يظل مبدأ موجهًا أساسيًا في المعرفة عند الشيخ الغـزالي، وثقته فيه أعظم بكثير من ثقة باسكال فيه، مثلما هي أعظم بكثير من ثقة جملـة فقهاء الإسلام و"أصحاب الحديث" فيه، ومن ثقة المتصوفة الذين يزيحونه أصـلاً وابتداءً من الطريـق. والـرأي عنـدي أن الشـيخ الغـزالي يتمثـل في هـذه المسـألة موقفًا يتفوق فيه صراحة على جملة تجـارب الفكـر الإسـلامي الكلاسـيكي الـتي

خلّفها المعتزلة والفلاسفة، وبخاصة الغزالي وابن رشد منهم، والمتصوفة، فضلاً عن "أصحاب الحديث" بطبيعة الحال. وأنا أعتقد أن رؤية الشيخ الغزالي للعقل ـ وأنا لا أتحرج من أن أسميها بـ "العقلانية الواقعية" ـ تبدو في سياق مرجعي إسلامي، أكثر موافقة من تلك الرؤى لواقع الأحوال البشرية في عالمنا المعاصر. لا شك في أنها لا تتوسل للتعبير عن نفسها بالجهاز الفلسفي والمنطقي الذي يستند إليه النظام المعرفي الاعتزالي، أو النظر الاصطلاحي الذي أتقنه أبو حامد الغزالي وبرع فيه ابن رشد، لكنها تدرك الغايات التي تسعى إليها بآليات "إنسانية" أقرب إلى "الحس العام" و"البداهة" و "الطبع" و"الضمير".

والحقيقة أن التصور المبدئي للعقل عند الشيخ الغزالي هو تصور "توليدي"، بمعنى أن العقل لا يدرك حقائقه مرة واحدة وإنما يسير "على طريق المجهول"؛ إذ هو يدرك حقائق من جملة الحقائق المستورة، ثم ما يلبث أن يدرك حقائق أخرى فأخرى وهكذا. المجهول القابل للاكتناه هو عالمه. وهذا العالم الرحب الممتد يشتمل على قطاعات ثلاثة كبرى:

١ ـ قطاع الكون بعناصره المادية وآفاقه وقوانينه.

٢ ـ قطاع الشؤون الدنيوية البشرية مما يتصل بارتفاق الإنسان من الطبيعة، وبالأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية والحرفية، وجملة الخبرات الإنسانية.

٣ ـ قطاع العلاقات الإنسانية القائمة على تعرف القوانين النفسية والخلقية والاجتماعية والسياسية التي تحكم الجنس الإنساني في حياته على الأرض.

ما هي حدود العقل في هذه القطاعات الثلاثة؟ لا يتردد الشيخ الغزالي في التحديد. فالكون مفتوح أمام العقل الإنساني يستطيع أن يرتاده من غير حدود. والشؤون الدنيوية البشرية كذلك أيضًا، إذ هي الأخرى "مجال فسيح أمام الفكر الإنساني يتحرك فيه دون قيد وإلي غير حد". أما "قطاع العلاقات الإنسانية" والقوانين التي تحكمها فله شأن خاص. ففي المواطن التي لم تدركها تعاليم الدين ينفرد العقل بالأحكام. أما بعد نزول الشرائع وحيث تصل تعاليمها فإن الكلمة لها وحدها. وهو يعتقد أن جملة ما تقرر عند الأمم خارج دائرة الدين لا يضاد الدين وإن كان ثم أخطاء تتحمل البشرية وزرها، وتحتاج إلى الدين للخلاص منها، كما أنه يتابع أبا حامد الغزالي فيما ذهب إليه في **المنقذ من الضلال** إذ

اعتقد أن جملة ما هو مقبول من الأمور الخلقية والسياسية والاجتماعية عند مختلف الأمم مما لا يرتد مباشرة إلى الدين، إنما يرجع في أصله إلى الشرائع السماوية القديمة. لكن القول الحاسم النهائي هنا ينبغي أن يكون للدين.[٢] أما ما لم يرد فيه نص أونص محكم من أمور الشريعة، فإن **الشيخ الغزالي** يلتزم فيه جانب أهل (الرأي)، فيقر للعقل بحرية استخدام ملكته الاستنباطية الاجتهادية في الاستدلال للأحكام، وفي استنباطها وفق أصول الاجتهاد التي توّجه فقه (أهل الرأي).

بتعبير آخر، للعقل مجاله الفذ: علوم الطبيعة والكون، وشؤون الدنيا وصناعاتها، واستنباط الأحكام الشرعية التي لم يرد فيها نص. أما مجال الدين فهو القوانين والشرائع التي تحكم العلاقات الإنسانية، والعقائد والعبادات التي تصل المخلوق بالخالق. والوحي هو الأصل الذي يرتد إليه كل شيء في هذا المجال.

ومعنى ذلك كله أن مملكة العقل ذات حدود "طبيعية" واسعة. لكن هل يستطيع العقل أن يتجاوز حدود الكون الطبيعي، وأطر المعرفة الطبيعية؟ إنه يستطيع أن يكشف عن "وجود" عالم ما بعد الطبيعة، أي أن "الله حق"، لكنه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك. يستطيع العقل أن يثبت وجود الله، لكنه لا يستطيع أن يتكلم على كمالاته الذاتية وعلى صفاته الماهوية. وعند هذه المسألة "يشتبك" **الشيخ الغزالي** مع سلفه الكبير **أبي حامد الغزالي**، ومع الكلام الاعتزالي.

إن الأصل (العقلاني) في تقرير وجود الله يرتد مرة واحدة في الفكر الإسلامي على وجه الإجمال إلى "مبدأ السببية". **والشيخ الغزالي** في هذه المسألة ينتسب إلى المتكلمين العقلانيين وابن رشد ويعارض صراحة صاحب **تهافت الفلاسفة**. لا أحد يجهل نص أبي حامد المشهور: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، وبين ما يعتقد مسببًا، ليس ضروريًا عندنا، بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما، متضمنًا لإثبات الآخر، ولا نفيه

[٢] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الخامسة، ١٩٨٨)، ص ١١٢-١١٣.

متضمنًا لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق واتقاد النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا، إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضروريًا في نفسه غير قابل للفوت".[٣] ولا أحد يجهل أيضًا مذهب ابن رشد إذ يقرر أن "العقل إنما يدرك الأشياء من جهة أسبابها"،[٤] ولا قولته السائرة: "والعقل ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل".[٥] في هذه المسألة الدقيقة يقف الشيخ الغزالي إلى جانب إقراره قانون السببية. وهو، خلافًا لما زعمه **جولدتسيهر** في تحليله لموقف الأشاعرة منه، يؤكد "أن أهل السنة لم يفكوا الرباط العتيد بين الأسباب ومسبباتها، ولم يتجاهلوا هذا التلازم المطرد بين العلة والمعلول. لقد قالوا: إن الماء يروي، وإن الأرض تنبت، وإن النار تحرق وإن العادة جرت بذلك والشيء الذي حرص أهل السنة على إثباته وإبرازه هو المشيئة العليا، فقالوا: إن النار تحرق بمشيئة الله..".[٦] بتعبير آخر إن الرأي الذي يتعلق به **الشيخ الغزالي** هو إقرار الخصائص الذاتية والطبيعية للعناصر، وأنها "أسباب" لما يتولد عنها، (الماء سبب للإنبات)، لكن ذلك لا يرجع إلى طبع خاص مطلق في العناصر ذاتها، وإنما إلى "أن هذه الخواص مفاضة عليه من الخالق الكبير فهو الذي جعلها كذلك"، مثلما أنه هو الذي يحفظ الوجود ويديره ويستمر في السيطرة المطلقة والهيمنة التامة عليه، بعد أن خلقه، وفقًا لترابط الأسباب والمسببات، إذ هو الخالق الحقيقي والسبب الحقيقي الأول".[٧] وفي هذه المسألة الأخيرة يبدو **الشيخ الغزالي** موافقا لما ذهب إليه **ديكارت** في نظريته في "الخلق المستمر"، التي لم

---

[٣] أبو حامد الغزالي: **تهافت الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٥٨)، ص ٢٣٧.
[٤] أبو الولد ابن رشد: **تهافت التهافت**، (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٧)، ص ٤٧٩.
[٥] المرجع نفسه، ص ٥٢٢.
[٦] محمد الغزالي: **دفاع عن العقيدة والشريعة**، ص ١٢٨.
[٧] المرجع نفسه، ص ١٢٩.

تكن في حقيقة أصلها إلا إحدى النظريات التي ترددت في أجواء الفكر (الأشعري) الإسلامي.

ويحرص **الشيخ الغزالي** حرصًا شديدًا على إقرار مبدأ السببية وفقًا لمبدأ آخر شاع شيوعًا واسعًا بين الناس هو مبدأ (الجبرية) الذي يرى أنه "من أسباب انهيار حضارتنا".[٨] وهو يبدو في هذا المقام أوضح وأصرح، والأشاعرة وأبو حامد هم الذين يقصدهم إذ يقول في معرض نقده للجبرية ولمنكري الأسباب: "وقد يذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع(!) أن للإنسان كسبًا أو اكتسابًا، والحقيقة أنه مسلوب الإرادة ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسيّرٌ لا مخيّر. ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية. والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن وشراح السنن. إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة، وعلى تقرير حاسم للمسؤولية الإنسانية. ولا يجدي في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ. ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسؤولية الشخصية بأسلوب غامض، لا تتضح معه عدالة التكليف، حتى قال الظرفاء فيه: أخفى من كسب الأشعري! أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية وجعلوا الإنسان مشدودًا بخيوط إلهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم.. وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر، وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات. فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الرِّي، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع.. وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية ـ على الإجمال ـ غير ملزم ولا مطرد..".[٩] وفي رأي **الشيخ الغزالي** أن علماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأي أرادوا بذلك الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة، وتنسب إلى الطبائع ما يقع هنا

---

[٨] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، (القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠)، ص ٧٢.

[٩] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية..، ص ٧٢-٧٣.

وهناك. والحقيقة أن كلام اليونان "أن الطبيعة تخلق، وأن السبب ـــ من ذاته ـ يفعل، كلام لا وزن له ولا دليل عليه. بيد أن الرد لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص وما ناطه بها من آثار، فإن الأسباب ـ بقَدَر الله فيها ـ تؤتي نتائجها حتمًا. أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة، وهي إذا صدقت شذوذ، يؤكد القاعدة ولا يهدمها".[١٠] وهكذا ينتهي النقد الغزالي للمتكلمين وفلاسفة اليونان الطبيعيين والمتصوفة وأبي حامد (الذي لا يذكره بالاسم) إلى إقرار قضيتين كبيرتين: السببية العقلانية، والحرية الإنسانية. وفي ضوء هذا الإقرار يوجّه إلى أنه "لا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط [في شأن الجبرية وإنكار السببية والمسؤولية الشخصية] بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدرًا من الاستقلال يُسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها..!".[١١]

ومع ذلك فإن علينا أن نتنبه إلى أن (عقلانية) **الشيخ الغزالي**، وإن كانت تقترب عند بعض المواطن من عقلانية المعتزلة وابن رشد، إلا أنها في حقيقة الأمر ليست كذلك. لا بل إنها، عند بعض المواطن، تنأى نأيًا تامًا عن العقلانية المسرفة، وعن عقلانية المعتزلة. ذلك أن للعقل عنده حدودًا لا يجوز له أن يتخطاها. و"العقل الإسلامي" بالذات بعد أن ابتعد عن المرحلة التي كان ملتصقا فيها بالوحي اختلطت عليه الأمور إذ "تقعر" في "دراسة ما وراء المادة" وخاض "بحارًا مغرقة في هذه البحوث العقيمة التي كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية والإفادة منها. وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة".[١٢] والحقيقة أن للعقل البشري حدودًا، فهو عاجز مثلاً عن فهم "حقيقة الروح"، وأنى له أن يعرف كنه الألوهية واتصال الذات بالصفات؟ لقد

---

[١٠] المرجع نفسه، ص ٧٣-٧٤.
[١١] المرجع نفسه، ص ٧٣.
[١٢] الدعوة الإسلامية، ص ٦٤-٦٥.

أكبر المعتزلة العقل وغلّبوا نظراته على مبادئ الشريعة. لا شك في أن "الإسلام يقوم على العقل" وأنه لم يؤثر عن دين ما أنه كرم العقل مثل ما كرمه الإسلام، "لكن ليس من العقل إقحام العقل في بحوث لا قبل له بها ولا طاقة لـه عليها". إن العقل قادر على البحث في العناصر الطبيعية لكنه لا يقدر على البحث في الروح أو في ذات الله العظمى وفي أسرار الألوهية مما يتصل بالذات والصفات وغير ذلك. وقضايا عالم الغيب تقع "فوق العقل".[١٣] وكلام الفلاسفة الإلهيين في الوجود وأصله ومباحث المتكلمين في الفلسفة، كل ذلك ليس من العلم الأصيل وهو في جملته تخمينات وترهات وحدوس. ههنا، أعني في قطاع "الإلهيات"، يقترب الشيخ الغزالي من سلفه أبي حامد الغزالي الذي يرى أن أقوال الفلاسفة في هذا الجزء من الفلسفة هي أقوال جدلية غير برهانية. وليس هذا الموقف بغريب في تاريخ الفكر الإسلامي والإنساني على وجه العموم، فالفيلسوف الألماني الكبير كانت لم يُجز هو أيضًا للعقل أن يتجاوز عالم الطبيعة، ولم يقر مشروعية استخدام مبدأ العلية للانتقال من عالم الطبيعة إلى عالم ما بعد الطبيعة. ومع ذلك فثمة فرق بين الاثنين: فالشيخ الغزالي يرضى باستخدام مبدأ العلية للانتهاء إلى وجود الله بإطلاق، لكنه لا يرضى باستخدام العقل لما هو أبعد من ذلك، ويرد ذلك إلى الوحي وحده، أما الفيلسوف الألماني فإنه يحصر جدوى مبدأ العلية بالعالم الطبيعي فحسب ولا يسمح باستخدامه لما هو أبعد من ذلك. ومع ذلك فإن كلاً منهما عقلاني، لكنها عقلانية بحدود.

والحقيقة أن الشيخ الغزالي واضح تمام الوضوح في أمر التمييز الفارق بين منطقين: منطق عالم الغيب، ومنطق عالم الشهادة. إن "التسليم" بخبر المعصوم هو المبدأ الذي يستند إليه منطق المعرفة الخاص بعالم الغيب. أما في عالم الشهادة فالعقل هو السيد في النقد وفي الأخذ وفي الرد، بلا سدود ولا قيود. والتنويه بالعقل الذي جاء في شعر أبي العلاء المعري لم يكن دليلاً على كفر المعري وغمزه بالدين، على ما توهمه بعض القوم، لكنه هجوٌ للمتدينين السطحيين

[١٣] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠)، ص ١٤٨.

الذين يبدي ظاهرهم التقوى وتخفي طباعهم الشر، و"دعم للحياة الدينية بأسلوب الاسترسال مع الخصم" وإنكار لـ "أن يكون الدين عند كثير من الناس مراسم وشعارات، ولا يكون فضائل ونظاماً وأن يمس ظواهر الأشياء ولا يتغلغل في صميمها".[١٤]

والعقلانية الغزالية المحدودة تبدي أحكامها في مسألة التحسين والتقبيح العقليين التي يتعلق بها المعتزلة، إذ يذهب الشيخ الغزالي مذهبا "عقلانيًا معتدلاً" فيوجه النظر إلى "أن علماء المسلمين المحققين من سلف وخلف يرون أن في بعض الأشياء حسنًا أو قبحًا ذاتيين يستطيع العقل معرفتهما ابتداء"، لكنه مع ذلك يقول جازمًا: "إن العقل لا يغني عن شريعة الله، وإن لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة".[١٥]

يوجز هذا القول الأخير جملة موقف الشيخ الغزالي في تحديد العلاقة بين هاتين الدعامتين اللتين تقوم عليهما المعرفة الإنسانية والفعالية العملية لبني البشر: حد العقل، وحد الوحي. والمسألة ـ كما نعلم ـ قديمة، وجهت إليها النصوص الدينية، وخاض فيها المتكلمون وأصحاب الرأي منهم بخاصة، وتكلم عليها الفلاسفة: من الكندي ـ أولهم ـ الذي قرر أن ما جاءت به الرسل قد ورد "بمقاييس عقلية"،[١٦] إلى ابن رشد ـ آخرهم ـ الذي جرد للمسألة رسالة هي **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**، وابن تيمية ـ شيخ السلفيين المتأخرين ـ الذي بذل بليغ وسعه إذ وضع فيها مصنفه الضخم **درء تعارض العقل والنقل**. يقول الشيخ **محمد الغزالي**: "هيهات أن يختلف العقل والنقل أو تتناقض ثمار الوحي والفكر، ما دام كلاهما تصويرًا مجردًا للحقيقة كما هي دون ريبة أو عوج. في العلاقة بين العلم والدين يجب أن نعرف أن قول العاقل وعمله لا يختلفان. وإذا كان الكون صنع الله والدين كلامه ـ جل شأنه ـ فيستحيل أن يكون في المعارف الكونية ما يخالف العلوم الدينية، إذ العلم

---

[١٤] محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة، ص ١٢١-١٢٣.

[١٥] المرجع نفسه، ص ١٢٧.

[١٦] أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠)، ج١، ص ٢٥٤.

ليس إلا وصفًا لما صنع الله في آفاق الأرض والسماء، وتقريرًا لما بث فيها من قوى وخصائص. وهذا البيان لأفعال الله يستحيل أن يجيء في وحي الله ما يختلف عنه أو يصطدم به. إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود".[17]

ومن جديد، ينقلنا هذا النص مرة واحدة إلى المبدأ الثالث الموّجه لتجربة الشيخ الغزالي الروحية ولدعائم النظر والعمل عنده: العلم. والغزالي ليس عالمًا طبيعيًا ولا فيلسوف علم"، لكن الناظر في مصنفاته يدرك بجلاء أنه كان حريصًا بالغ الحرص على أن يتزود من المعارف العلمية، ويتابع قضايا العلم ومكتشفاته ليتسنى له الإفادة منها في نشاطه "الدعوي". وملاحقة المسائل العلمية أمر تعلق به رجال النهضة الإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر، واشتد تعلقهم بها مع انتشار عدد من الفلسفات الطبيعية ذات السمة "الإلحادية" وبخاصة (الداروينية)، وعلى وجه الإجمال (المادية). وقد اعتقد هؤلاء المفكرون الذين تصدوا لهذه الفلسفات بالتحليل والنقد والرد أن الاستقصاء العلمي والتعمق في مسائل العلم وقضاياه ومناهجه ييسر لهم هذه الرسالة، ويؤدي إليهم أسلحة دفاعية وهجومية من الطراز الأول في معركة الذب عن الإسلام ورد هجمات خصومه "العلميين". وقد كان الشيخ اللبناني الطرابلسي حسين الجسر (١٨٤٥- ١٩٠٩) أبرع من جرد أسلحة ماضية في وجه الداروينية، كما كان المصري طنطاوي جوهري (١٨٧٠- ١٩٤٠م) من أبرز من عنوا بمتابعة المجالي المختلفة للعلوم وجواهرها، ولعجائب الكون التي يكشف عنها العلم الطبيعي، وللتعريف بالعلوم العصرية، وتقرير مساوقتها لنظام الإسلام ولآي القرآن الكريم. والحقيقة أنه يتعذر تمامًا أن نلقى أحدًا من المصلحين المسلمين المحدثين والمعاصرين إلا وقد عُنِيَ بمسألة العلم ووشائجه بالدين. ولهم في ذلك مناهج وأنظار وفهوم ليس هذا القول موضعها. والقضية عند الشيخ الغزالي قاطعة محسومة: "إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود"، مثلما مر وإن "العقول الذكية" هي وحدها التي تستطيع "اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة"، وهي وحدها التي "تميز الحق من الباطل

[17] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، (الاسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٣)، ص٢١٣-٢١٤.

وتعرف حقائق الوحي".[١٨] لقد خلقت العقول "للتجاوب مع حقائق الكون" و"لتكون مفاتح خزائنة وكواشف أسراره"، والحضارة الإسلامية نفسها قامت على "العقل والبصر".[١٩] وأبلغ من هذا وأبعد غورًا ما يصرح به من القول: "ونحن ـ باسم الإسلام ـ نعتبر تصديق الحقائق العلمية دينًا".[٢٠] وتأسيسًا على هذا القول يوجب" على علماء الكون والحياة أن يروا تصديق الحقائق الدينية علمًا"، إذ إن جحد شيء مما جاء الدين به يقينا، يساوي الجهل بالقوانين العلمية العادية". والعلة بيّنة، وهي أن الله هو مصدر الحقيقتين: الدينية والعلمية. ولهذا السبب نفسه يمتنع تمام الامتناع أن ينشأ تعارض أو تناقض حقيقي بين الحدين. ولا يملك الناظر وهو يتأمل هذا الفهم إلا أن يذكر ابن رشد وتقريره المشهور في أمر الاتصال بين العقل والشريعة، وإن كان من الحق أن نقول إنه لا يذهب مذهبه في التأويل الذي يبدو وكأنه يقدم العقل على النص. بيد أن الشيخ الغزالي يظل مفكرًا "واقعيًا" يدرك تمام الإدراك حدود علوم الكون والحياة من وجه، وحدود الرسالة الدينية ومضمون الوحي من وجه آخر. وذلك أنه يأبى أن يذهب إلى ما ذهب إليه أصحاب (التفسير العلمي) للقرآن، إذ يقرر صراحة "أن القرآن الكريم ليس كتاب مباحث فنية في علوم الكون والحياة، وغاية ما ألمع إليه أنه ـ وهو يبني اليقين على التأمل في ملكوت السموات والأرض ـ وصف هذا العالم بكلمات معجزة حالفها الصدق على اختلاف العصور وارتقاء العقول، فبقيت في تصوير الحق براقة الدلائل، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾".[٢١] والحق الذي لا لجاج فيه، في معتقد **الشيخ الغزالي**، هو أن هذا الوجه من المسألة لا ينبغي أن يشغلنا عن "الغاية العظمى" التي نزل القرآن من أجلها. فالواقع أن القرآن "من قبل ومن بعد، كتاب هداية جامعة للسلوك الإنساني الصحيح"، وهو في هذا الشأن "استوعب كل شيء" مما يرجع إلى الأمر بالخير أو النهي عن الشر، ومما يتصل بالمبادئ الموجهة للسلوك البشري كالإخاء والعدالة والحرية والمساواة، وجملة الحقوق والمبادئ التي تضمنها

---

[١٨] محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، (القاهرة: دار الصحوة، الطبعة السابعة، ١٩٨٧)، ص ١٩٤ـ ١٩٥.

[١٩] محمد الغزالي: **هذا ديننا**، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٩٠)، ص ٤٢.

[٢٠] محمد الغزالي: **حقوق الإنسان**، ص ٢١٤.

[٢١] المرجع نفسه، ص ٢١٤.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرتـه الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة في العاشر من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨، أي بعد أربعة عشر قرنًا مـن نـزول تعاليم الإسلام في هذه الحقوق. وهذا التساوق بين الوحي والعقل السديد ليـس أمرًا مبتدعًا، فقبل أن ينزل الوحي وفي المواطن التي لم تبلغها أشعته بعد أن نزل، لم يقف العقل الإنساني جـامدًا، وإنمـا مـارس وظيفتـه في الإدراك وفي استكناه طبيعة الحياة ورسالة الإنسان فيها، والكشف عن حقائق كثيرة مما يتصل بمعرفـة الله والعالم، وفي أمر العلاقة بين الإنسان وربه وبـين الإنسـان وأخيـه الإنسـان. ويلاحظ **الشيخ الغزالي** أن **أبا حامد الغزالي** قد تنبه في **المنقذ مـن الضـلال** إلى التوافق في السياسة الخلقية والاجتماعية بين أحكام الدين ومقـررات الفلاسفة، وإلى أنه قد أرجعه إلى تأثر هؤلاء بمواريث دينيـة عـن النبـوات الأولى. ومـع أن **الشيخ الغزالي** يرى أنه "قلما ظهـر مذهـب فلسـفي وأصـاب الحـق في نواحيـة الإلهية والخلقية والاجتماعية كلها"، وأن "في التفكير البشري المجرد آفـات يجـب أن تحذر"، وبخاصة حين تكون المعرفة سـطحية تتعلـق بـالظواهر، فإنـه يسـوق قول أحد مفكري الغرب: "إن القليل من الفلسفة يبعد عـن الله، ولكـن الكثـير منها يرد إليه جل جلاله".[٢٢] "ومع أن العقل البشري سار طويلاً وحـده، إلا أن حصيلة فكره انتهت في الجملة إلى المقررات الدينية الأصلية، فالإيمان بالله وحده نزعة الكثرة العظمى من الفلاسفة، ولا قيمة للشواذ." لكن "الدين ـ كمـا جـاء من عند الله ـ هو الخلاصة النقية السهلة التي جمعت الحق كله".[٢٣]

ثمة إذن توافق وتساوق بين هذه الأصول الثلاثـة: الوحـي والعقـل والعلـم. والدين بهذا المعنى ذو سمة عقلانية علمية. لكن هل هو معرفـة عقلانيـة الطبيعـة والماهية؟ هل هو محض قضايـا "مجـردة"، موضوعيـة، ذهنيـة، منطقيـة؟ هـل هـو محض تطابق بين مضمونه "الفكري" والواقع الموضوعي المشـخص العلمـي؟ لا، بكل تأكيد. إنه شيء آخر، أيضًا. إنه "عاطفة" و"وجدان". إنه "تقدم روحي". وهذا هو المبدأ الأخير الرئيس الموجه لتجربة **الشـيخ الغـزالي** المطلـة علـى آفـاق الروح النفسية والوجدانية الواسعة. والنص التالي واحد من نصوص كثيرة تحفل بهذه المعاني التي يقصد منهـا **الغـزالي** إلى إنـارة العقـل بضيـاء الـروح والقلـب،

---

[٢٢] المرجع نفسه، ص ٢١٥-٢١٦.

[٢٣] المرجع نفسه، ص ٢١٦.

يقول: "مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد، والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملاً وتأملاً، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب.

والإسلام المكتمل ليس "نظرية" علمية أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال. إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح".[٢٤] ثمة أمران ينبغي أن يتم الجمع بينهما في حياة الإنسان المسلم: الاستنارة الفكرية، والهداية النفسية. وفي عالم أصبح فيه "التفاوت بين التقدم الروحي، والتقدم العلمي" خطيرًا ــ إذ قطع العالم مراحل شاسعة في طريق التقدم العلمي لكنه تخلف أو بقي مكانه روحيًا ـ بات من الضروري توجيه القافلة البشرية بقيم الأخلاق وحياة الروح والوجدان، وبالتسامي النفسي. "إن الإنسان عقل وقلب".[٢٥] وإذا كان العقل الإنساني قد حقق مكاسب مادية جليلة للإنسان، فإنه بتضافره مع حياة الروح يمكن أن يضمن للإنسان أفضل صورة ممكنة للحياة الأرضية. وينبغي أن يكون مفهومًا هنا أن الفضائل الخلقية والعبادات الروحية التي قررها الدين لا تعوق ازدهار الحياة وتقدمها المادي. فزكاة الروح لا تتم بدمار البدن، وضمان الآخرة لا يتم بضياع الدنيا. إن عظمة الإنسان تقوم على نشاط عقلي لا حدود له يواكبه نشاط روحي لا يقل عنه كفاية وقوة. وذلك هو المفهوم الممتد للإيمان الذي يعيد الإنسان إلى الله ويتقدم به روحيًا بفضل هذا المركب الفذ الذي يجعل منه عقلاً وقلبًا في الحين نفسه، ويوجهه إلى ضرب من الحياة الروحية "الصوفية" التي تطهر البدن وتزكي الروح، في الوقت نفسه الذي يجعل منه ذا قدمين راسختين على أرض الواقع الزمني المعيش، وذلك في حالة فذة من "المصالحة" بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة".[٢٦] وتلك هي المزية الكبرى للتدين الإسلامي وفضائله النفسية والروحية التي تنحرف عنها

---

[٢٤] محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، (القاهرة: دار الاعتصام، بدون تاريخ)، ص ١٠١

[٢٥] المرجع نفسه، ص ٢١.

[٢٦] محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام، ص ١٠٤.

الحضارة المادية الشهوانية أو تنكرها. ذلك أن "آفة الحضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات وأخرست نداء الروح، وأطلقت نداء الطين، وجحدت أن الإنسان نفخة من روح الله، ورأت أنه ـ كلاً وجزءًا ـ نشأ من الأرض فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى يذكر الله ولي نعمته وسر عظمته." إن شرف الإنسانية يتمثل أولاً وآخرًا "في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء، بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال وأن يتصرف داخل نطاقها وحده".[٢٧]
إن "قيود الكمال" هذه تضعنا على "الطريق إلى الله"، طريق الكمال، والتصفية "والتحول عن مواطن الغفلة والركود إلى مواطن الذكر والحركة"، والسير في ميادين النفوس سيرًا "وجهته الله، وعدته صالح الأخلاق والأعمال"، وشاراته التوبة والرغبة إلى الله والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب.[٢٨]

هل كان الشيخ محمد الغزالي قريب نسب روحي بأبي حامد الغزالي؟

لست أشك في هذا ألبتة. لكنه، والحق يقال، أقرب إلينا من أبي حامد، وليس ذلك لأنه معاصر لنا فحسب، ولكن لأنه أيضًا "معاصر" بإطلاق، قلبًا وقالبًا. وسمة "المعاصرة" هذه هي التي وجهت روحه المتوقدة وفكره "النقدي" ـــ الذي تفجر في مصنفه الفذ **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث** ـ إلى استخدام جملة المبادئ المؤسِّسة لتجربته الروحية في سجاله الحيّ الكبير مع المخالفين المعاصرين الذين لم يدخر وسعًا طيلة حياته المناضلة في دراسة مذاهبهم ومناهجهم، تحليلاً ونقدًا وردًا: الاشتراكية، والشيوعية، والرأسمالية، والاستشراق، والصليبية والتنصير، والمادية، والداروينية، والعلمانية، والقومية. وقد كان ذلك كله استجابة فريدة لدعوته الدائمة أن "الإسلام للإنسان وللحياة".

---

[٢٧] المرجع نفسه، ص ١٠٥.
[٢٨] المرجع نفسه، ص ١٧٥-٢٩٧.



العطاء الفكري

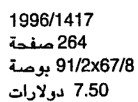
للشيخ محمد الغزالي

(رحمه الله)

نشر بالاشتراك مع المجمع الملكي لبحوث الحضارة،

وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية

المحرر د. فتحي حسن ملكاوي

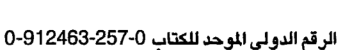


1996/1417

264 صفحة

91/2x67/8 بوصة

7.50 دولارات



الرقم الدولي الموحد للكتاب 0-257-912463-0

هذا الكتاب هو توثيق لوقائع الحلقة الدراسية التي عقدها المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن بالتعاون مع المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية في عمان. وقد عقدت هذه الحلقة يوم الخميس ٤ صفر ١٤١٧هـ الموافق ٢٠ حزيران (يونيه) ١٩٩٦م. وتضمنت إضافة إلى كلمات المؤسسات المنظمة للحلقة الدراسية في جلسة الافتتاح، ثمانية بحوث، عرضت في أربع جلسات عمل. تناولت هذه البحوث: الخصائص النفسية والخلقية للشيخ الغزالي، ورؤيته المنهجية للفكر الإسلامي والإنساني، والسنة النبوية في فكر الشيخ الغزالي ومؤلفاته، ومنهج الشيخ الغزالي في كتابة السيرة النبوية، والمبادئ الموجهة لتجربة الشيخ الغزالي، ومنهجه في الفقه والأصول، والتعريف بالشيخ الغزالي باعتباره رجل الدعوة المتميز، والسيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي.

وقد سعدت الحلقة الدراسية بحضور كريم ومشاركة عزيزة من عدد من العلماء الذين سعدوا بصحبة الشيخ ومعرفة فضله. كما حضر الحلقة جمع كبير من العلماء وطلبة العلم من أساتذة الجامعات وطلبتها وغيرهم من الباحثين والمهتمين.

ويتضمن الكتاب نصوص أوراق الحلقة والتعقيبات عليها والمناقشات والمداخلات الخاصة بكل جلسة من جلساتها.

الحق المر: الشيخ محمد الغزالي وقضايا المرأة

هبة رؤف عزت*

تمهيد

أتعب الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ مَنْ بعده، فالرجل قد كتب نيفًا وأربعين كتابًا، وطرق قضايا شتى، ووقف يحارب على عدة جبهات في مواجهة أعداء الإسلام وفي مواجهة أصحاب التدين الفاسد الذي فتن الناس عن دينهم؛ ولقد عرفته الحياة الإسلامية عالمًا عاملاً له مواقفه الاجتماعية والسياسية، فكان لزامًا على الباحث في قضية ما في فكره أن يلهث وراءه ويتابعها في منعطفات تجربته الثرية. ولا يستطيع الباحث أن يفصل قضية المرأة في فكر الشيخ الغزالي وكتاباته عن نهجه الأصيل ــ نهج الوسطية الإسلامية الذي طالما دعا إليه ونافح عنده. إن الشيخ لم يقدم ــ عبر مسيرته ــ رؤية شخصية "معتدلة" لوضع المرأة، فلم يكن مدافعًا، بقدر ما كان مع الحق حيثما كان، فرأى الحق في مناصرة نساء الأمة اللاتي عانين من التأويل الضيق لنصوص جلية ومن الفهم المقيد بتقاليد ضيِّقَة جامدة. وقد تضمنت كتاباته الأولى إشارات إلى هذا الظلم الذي قام يواجهه، ثم تزايد اهتمامه بالقضية حيث أفرد لها في أخريات حياته كتابًا خاصًا.

---

* ماجستير في العلوم السياسية من جامعة القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م؛ مدرسة مساعدة في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، مصر

في هذه الإطلالة على فكر الشيخ الغزالي نرصد ونتابع تلك الرحلة، رحلة رجل عاهد الله أن يقول الحق وإن كان مرًّا ويصبر حتى يلقاه، ونحسبه ـ قد فعل ـ ولا نزكي على الله أحدًا.

الشيخ محمد الغزالي: النشأة والمسيرة

ولد الشيخ **محمد الغزالي** بقرية "نكلا العنب" بمحافظة البحيرة بمصر سنة ١٩١٧م، وحفظ القرآن وهو لا يزال صبياً دون العاشرة، ثم تلقى تعليمه الابتدائي والعالي في معهد الاسكندرية الديني، ثم التحق بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر سنة ١٩٣٧م، وحصل على درجة العالمية سنة ١٩٤١م، وعلى إجازة الدعوة والإرشاد من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣م، وعمل واعظًا بالأزهر الشريف إلى أن أصبح مديرًا للدعوة والإرشاد سنة ١٩٧١م.

وقد اعتقل **الشيخ الغزالي** مرتين، الأولى عام ١٩٤٩، والثانية عام ١٩٦٥ بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

وقد بدأ التزامه بالدفاع عن المظلومين في مرحلة مبكرة من حياته، حيث كان يحرض الفلاحين على الثورة ضد كبار ملاك الأراضي قبل ثورة ١٩٥٢م في ريف مصر، وكانت كلماته المسموعة والمقروءة تدافع عن البسطاء وتنتقد أوضاع العمال المطحونين، فكتب **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**.

وكان رواد الأزهر من علماء ومجددين مجتهدين هم قدوة **الشيخ الغزالي** وعلى رأسهم **الشيخ محمود شلتوت**؛ أما التأثير الأكبر في حياته فقد كان **للإمام الشهيد حسن البنا** الذي وصفه بأنه كان "عالما بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة والشريعة".[١] وقد كان انتماؤه إلى جماعة الإخوان المسلمين لاتفاق منهجها مع رؤيته الشرعية الوسطية والمدرسة الفكرية التي كان ينتمي إليها والتي وصفها بأنها "تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي، كما ترى الاستفادة من كشوف

[١] "الشيخ محمد الغزالي بقلمه" عن: قطب عبد الحميد: خطب الشيخ الغزالي في شئون الدين والحياة (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٨)، ج١، ص١٤.

الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ، ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة".[٢]

بهذا المزج بين العلم والخبرة العملية في قلب المجتمع، بين القدم الراسخة في علوم الشريعة وسعة الإطلاع في مجالات الثقافة، جاءت كتابات **الشيخ محمد الغزالي** متميزة تشتمل على موضوعات شتى بنظرة وسطية قويمة وفهم دقيق لما هو كائن واستشراف واضح لما يجب أن يكون.

المرأة والأمة

انشغل **الشيخ الغزالي** منذ البداية بالدفاع عن الشريعة الإسلامية، ويلحظ القارئ لكتاباته هذا الإخلاص في الذود عن الإسلام، فقد دافع عن الإسلام في وجه أحقاد الاستعمار،[٣] وكيد الشيوعية والرأسمالية،[٤] وانتشار الاشتراكية العلمية التي أسماها "الزحف الأحمر"؛[٥] وكذلك وقف بالمرصاد للفكر القومي وأفكار "البعث العربي"،[٦] كما رد في كتاباته على مزاعم المستشرقين،[٧] وهاجم كيد الصليبية ومكرها وأعوانها.[٨]

انشغل **الشيخ** إذًا بالدفاع في المرحلة الأولى من حياته، وفي سبيل ذلك اشتبك في معارك فكرية وثقافية شهيرة في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات. وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك مبكرًا وجود مشكلة للمرأة في عالمنا الإسلامي، فلم يغفلها بل توقف عندها. ففي كتابه **الإسلام والطاقات المعطلة** الذي نشره في بداية الستينيات رصد الشيخ سوء وضع المرأة في العالم الإسلامي، وهو في ذلك ينحو منحى التروي ويدعو للتغيير والعودة للأصول، لكنه يكرر مع ذلك بعض المقولات المتأثرة بخلفيته الأزهرية التقليدية، فيقول:

---

[٢] المرجع السابق، ص١٥.

[٣] محمد الغزالي: **الاستعمار أحقاد وأطماع** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٧، ط٢).

[٤] محمد الغزالي: **الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥١، ط٥)

[٥] محمد الغزالي: **الإسلام في وجه الزحف الأحمر** (القاهرة: دار المختار الإسلامي، ١٩٧٥. ط٥).

[٦] محمد الغزالي: **حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٧، ط٣).

[٧] محمد الغزالي: **دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٤. ط٣).

[٨] محمد الغزالي: **قذائف الحق** (بيروت: المكتبة العصرية،١٩٧٥).

"لا ندري بدقة متى ساء وضع المرأة في المجتمع الإسلامي؟ ومتى انحدرت عن المستوى الذي بلغته في صدر الإسلام؟ لقد كانت على عهد السلف الصالحين إنسانًا يقوم بواجباته الدينية والدنيوية قيامًا حسنًا، ما كان شأنها الجهل بالإسلام ولا الغفلة عن قضاياه...

ونحن إذ نستنكر وضع المرأة بيننا في القرن الماضي مثلاً فإنما ذلك بالنسبة إلى حال المرأة في تاريخنا الأول...

أما بالنسبة إلى حياة المرأة في أوروبا وأمريكا الآن، فنحن نعتقد أن المرأة العاطلة أفضل من المرأة الفاسدة، وأن النساء المحتبسات في المخادع والبيوت، المقصورات على خدمة الولد والزوج، أشرف من النساء اللواتي يتكشفن لكل عين ولا يرددن يد لامس..."[٩]

ثم يستطرد قائلا:

"إن جنس الذكور عمومًا أقوى من جنس الإناث.

وقد تكون هناك فصائل من الإناث أقوى من بعض الرجال، إلا أن امتياز أفراد من النساء لا يعني خدش الحقيقة العامة التي ذكرناها وهي أن الرجال في الجملة أقدر من النساء، وأنهم بناة العمران، وعلى كواهلهم القوية نهضت الحياة الإنسانية. ولا يزال الرجال إلى عصرنا هذا ـ وسوف يبقون على كر العصور ـ قادة لكل نشاط مدني أو عسكري.. بل إن النهضات النسائية ـ كما تسمى ـ ليست إلا وليدة شعور بالرقة والألم غمر قلوب بعض الرجال فقاموا يحررون المرأة من القيود التي رماها بها رجال آخرون."[١٠]

وإذا كان الشيخ في صفحات تالية يذكر مكانة المرأة ووظيفتها في المجتمع الإسلامي الأول في مقابل ما أضحت عليه في العصور الحديثة من إهمال وتعطيل لطاقاتها، إلا أنه يعود للتحفظ خشية من الانبهار بالنموذج الغربي المسيطر الذي يريد إخراجها من الأسرة وإشراكها دون ضوابط في المجال العام، فالهم الأخلاقي و"سد الذرائع" كان هو الهاجس الذي يجده القارئ في تلك

---

[٩] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٣، ط٤) ص١٠٠

[١٠] المرجع السابق، ص١٠١.

الكتابات الأولى لشيخنا، وقد ظلت مقولته في تلك المرحلة: "لا نريد أن يخيّرنا أحد بين شرين"[11] هي المقولة التي تأسس عليها منهجه الوسطي البديل.

وفي كتابه **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة** يسير الشيخ على النهج ذاته، فيرحب بمشاركة المرأة، ولكنه يقصر المشاركة على حدود الحاجة إلى المال ويحدد دائرتها في مهن معيّنة هي "أصلح لها"، مدافعًا عن قوامة الرجل بمقولات تتعرض لتعسف الرجال في حجب المرأة عن المشاركة الاجتماعية.[12]

على أن الشيخ يبدأ بعدها بأعوام قليلة في إدراك أهمية وضع القضايا في سياق أوسع وبلورة الأطروحات والأفكار، والتركيز على المقاصد لضبط ميزان فهم أهمية وضع المرأة ووظيفتها في دائرة الأمة، وسرعان ما يتضح له أن التركيز على الضوابط وليس المهام وأساليب المشاركة هو المدخل الأسلم الذي ينبغي أن يتبع، بحيث يوضع الأصل وتلحق به الفروع، فيكتب:

"جرت على لساني كلمة تتصل بملابس الرجال والنساء كان الباعث على اختتام الحديث بها ما أحسه ويحسه الكثيرون من أن مشكلة الأزياء في مصر سيئة ومحرجة وتتطلب حلاً معقولاً..

هذا ما قلته، وما فوجئتُ بأنه أقام الدنيا وأقعدها! أو بتعبير أدق ما وجد الماكرون مجالاً لنقل المعركة إليه واختلاق قضية أخرى يدور حولها الجدل بعنف وتختنق في ضوضائها قضية التشريع الإسلامي من ألفها إلى يائها.

ولا أدري كيف وقعتُ في هذه الحفرة وكيف انسقت إلى هذا الموضوع الثانوي...

إن حرمان المرأة من التعليم والتربية والعبادة الشخصية والاجتماعية والسياسة، لا يمكن أن يكون إرضاءً لله ولرسوله، وما كان النساء المسلمات كذلك على عهد رسول الله والخلافة الراشدة والعصور الزاهرة.

---

[11] المرجع السابق، ص١١٣-١٢٢.

[12] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٣، ط٣)، ص١١٥-١٣٩

وخير لنا أن نتدارس كتاب الله وسنة نبيه وفقه الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين لنأخذ ديننا من مصادره الصحيحة..."[١٣]

وفي السبعينيات يشتبك الشيخ في معركة شهيرة أثناء محاولة تعديل قوانين الأحوال الشخصية إلى ما يخالف شرع الله من تقييد للتعدد والطلاق، وهي معركة خاضها دفاعًا عن الأسرة والمجتمع شغلته عن الاستطراد في بحث قضايا المرأة الضيقة،[١٤] إلا أنه مع مطلع الثمانينيات يبدأ في بلورة خطابه وتطوير أفكاره بشأن المرأة في سياق أوسع محّص فيه التراث وأسس منهجًا متكاملاً للتعامل مع الأصول ـ قرآنًا وسنة ـ تنقيةً لفهمها من النظر الملتبس بالهوى أو المتأثر بالعادات والتقاليد الموروثة، أو الواقع تحت ضغط الرؤى والأفكار الوافدة.

ففي كتابه: **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين** يدعو إلى العودة إلى المعين الصافي لتتحقق وحدة بين المسلمين وتياراتهم الفكرية والثقافية في شتى القضايا، ومنها قضايا المرأة: "... لقد لاحظت عند تحديد الوضع الاجتماعي للمرأة أن ما يجيء حديثان في قضية تتصل بها إلا أُخّر الصحيح وقدم الضعيف.

هناك أحاديث ضعيفة تحكم المجتمعات الإسلامية وتهزم الأحاديث الصحيحة بل المتواترة.. والتصرف في السنة بهذا الأسلوب لا يمكن أن يكون دينًا قويمًا ولا صراطًا مستقيمًا. أما الأمر الثاني الذي يؤخذ على المشتغلين بالسنن عمومًا فهو قصورهم الفقهي، وليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم..."[١٥]

ثم يستكمل حديثه تحت عنوان "تقاليد المسلمين غير تعاليم الإسلام" قائلا:

"... ولا يزال نفر من علماء الدين يكرهون وجه المرأة، ويحملونها مسؤولية خروج آدم من الجنة كما زعم اليهود في كتبهم، ويرون إمساك النساء في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وحرمانهن من أي نشاط عام، وأعتقد أن هؤلاء العلماء القاصرين لو كانوا على عهد رسول الله ﷺ لطالبوه بطرد

---

١٣ محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٤، ط٢) ص٣٣٥-٣٣٧.

١٤ محمد الغزالي: كفاح دين (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٩١، ط٥)، ص١٩٧-٢٩٦.

١٥ محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين(القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨١)، ص٢٩-٣١.

السيدتين اللتين حضرتا بيعة العقبة الكبرى، وقالوا له ما للنساء وهذه الشؤون، ولو كانوا موجودين عند فتح مكة لقالوا له حسبك بيعة الرجال وهم يعلمون نساءهم!"[١٦]

لقد وضع الشيخ يده على الداء وأدرك من اشتغاله بالدعوة زمنًا طويلاً أن للإسلام أعداء من الداخل قصر فهمهم وضاقت عقولهم، واستيقن أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور الماضية لا يُسأل عنه أعداؤه بقدر ما يُسأل عنه أبناوءه.[١٧]

وقد برز في كتابات الشيخ المتأخرة أثرُ تعامله مع المرأة ـ في مجالس الفتيا وفي الجامعات ـ في موقع قضاياها من فكره، إذ انتقل من الكتابة في هذ الشأن بشكل نظري قارئ للتاريخ والأصول إلى الكتابة عن الهموم المعاصرة للمرأة في المجتمع الإسلامي، وهو ما يتضح في الأمثلة التي يسوقها والوقائع التي يرويها ليدلل من واقع معايشته للمجتمع على بُعْدِ الشقة بين تعاليم الإسلام وأوضاع النساء، فيقول في كتابه **مائة سؤال عن الإسلام**:

"... إنني أسأل أولاً: هل عوملت المرأة في العالم الإسلامي وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لمامًا.."[١٨]

ويمضي الشيخ في إجابته عن الأسئلة حول قضايا المرأة ومكانتها في إبراز أهمية تعليم المرأة ومشاركتها في رسالة المسجد واتخاذ نساء الرسول والصحابيات قدوة في العبادة والعمل والجهاد، موضحًا حقوق المرأة في المجتمع والأسرة.

والشيخ يعلم مسبقًا أن أصحاب "التدين الفاسد" ـ كما يسمّيهم ـ أنصار حزب "والله لنمنعهن" الذي رفض تاريخيًا ترك مسيرة المرأة المسلمة تأخذ مجراها الناهض منذ عصر الرسالة،[١٩] ويعلم أنهم سوف يزعمون أن هذه آراء غربية توافق المدنية المستحدثة، فيرد تلك المزاعم قائلاً:

---

[١٦] المرجع السابق، ص١٧٩.

[١٧] محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٤، ط٤)، ص٣.

[١٨] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام (القاهرة: دار ثابت، ١٩٨٤)، ج٢، ص٢٥٣.

[١٩] محمد الغزالي: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٥)، ص٧٣-٧٦.

"لا أريد أن يفهم نفر أني راغب في نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا، فهذه الحضارة تجمع خليطًا من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة، وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسولﷺ وسلفه الأول."[20]

فالقضية إذنْ قضية عودة للسنة النبوية وفهم دقيق للكتاب وفقه بصير بالسنن الاجتماعية. بل يذهب الشيخ إلى أبعد من ذلك إذ يرى أن مستقبل الإسلام رهن بإعادة النظر في قضايا عديدة، منها قضية المرأة، وأن التضييق كان مدخلاً لأعداء الدين لكي ينفذوا إلى المجتمع الإسلامي، فيكتب:

"إن الذين أهانوا النساء، وحجروا عليهن، وظنوا بهن الظنون، ينطلقون من مبادئ شاعت في الجاهلية الأولى، إنها تعاليم آباء الكنيسة الأقدمين انتقلت إلى الأمة الإسلامية، لأن هذه الأمة قلدت اليهود والنصارى على الرغم من تحذير النبي من هذا التقليد وتشاؤمه من هذا الاتباع السيّئ.

ومن الإنصاف القول بأن تحامل قادة التنصير علينا لم يأت من فراغ، فإن سيرة بعض المسلمين وفتاوى بعض المتفقهين تجر على الإسلام صنوف البلاء!"[21]

ومع نهاية الثمانينيات يصدر الشيخ كتابه المهم **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث** الذي يجمع فيه أفكاره وملاحظاته حول قضايا مختلفة في التراث وقراءة بعضهم للسنة والسيرة، وكذلك قضايا المرأة.

ويبدأ الشيخ في الجزء الثاني الذي أفرده للمرأة بقضية الحجاب، حيث يرى جواز كشف الوجه، ولا يرى نفسه بذلك مخالفًا للجماعة، بل يسوق الأدلة التي تبيّن اتفاق رأيه في تلك المسألة ـ التي كثر الجدل بشأنها ـ مع آراء الفقهاء الأربعة الكبار؛ وهو بذلك يبدأ بالقضية التي اتخذت ذريعة لحجب المرأة بالكلية عن الشأن العام، وهدفه في ذلك العودة إلى الأصول وإحياء فقه الوسطية الذي كادت الحواشي على المتون أن تحول بيننا وبينه.

---

[20] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص٢٥٧.

[21] محمد الغزالي: صيحة تحذير من دعاة التنصير (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩١)، ص١٣٠.

وفي ذلك يقول: "يعلم الله أنني ـ مع اعتدادي برأيي ـ أكره الخلاف والشذوذ، وأحب السير مع الجماعة، وأتنازل عن وجهة نظري التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة.

فهل ما قلته رأي انفردت به؟

كلا كلا، إنه رأي الفقهاء الأربعة الكبار، ورأي أئمة المفسرين البارزين.

إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأيا مرجوحا، ويتصرفون في قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحي والثقافي والاجتماعي لأمة أكلها الجهل والاعوجاج كما حكمت على المرأة بالموت الأدبي والعلمي".[٢٢]

ثم ينتقل الشيخ إلى بحث قضايا المرأة والأسرة والوظائف العامة، وهو حين يدعو إلى مشاركة المرأة المسلمة في الحياة العامة تبدو قوة حجته وتتضح في رؤيته المرأة المسلمة العفيفة أهلا للنهوض بأمتها وتحمل أمانة هذا الدين جنبًا إلى جنب مع الرجال، على العكس مما كان عليه الأمر في الستينيات، حيث كان الشيخ يؤكد أولوية عمل المرأة داخل بيتها. فنحن نجده في الثمانينيات بعد طول خبرة واطلاع على أحوال المرأة المسلمة وتقديره للمهمات التي نهضت بها الصحابيات الأوائل، يسعى إلى إيجاد توازن بين مسؤولية المرأة داخل أسرتها ومسؤوليتها تجاه قضايا الأمة. فقد كتب في الستينيات يقول:

"لقد عرف عني أنني لم أهش لتوظيف المرأة في كل الأعمال، ولا لتسويتها بالرجل في كل الميادين، وقلت إن وظيفة ربة البيت هي أليق شيء لها، وقد تحتاج وظائف فنية كثيرة إلى النساء وحدهن، وقد تحتاج فتيات كثيرات إلى العمل قبل الزواج، ثم إن الأوضاع الاقتصادية لها أثر كبير في الطريقة التي يفهم بها الناس شؤون الحياة، ولست أحب نشر فتاوى جزئية في غياب الوضع الإسلامي الكبير عن هذه الحياة الصاخبة".[٢٣] ونجد الشيخ، بعد أن أدرك حاجة الأمة في عصرنا إلى نساء يخرجن يجاهدن في شتى المجالات بعد أن دخل العدو ديار المسلمين سياسة واقتصادًا وإعلامًا وتربية، قد صقل رأيه السالف وعدّله

---

[٢٢] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٩)، ص٤٩.

[٢٣] محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص٣٩٩

فكتب في كتابه **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، مؤكداً شأن الأسرة ولكن مشدداً أيضا على مكانة المرأة في المجال العام:

"أكره البيوت الخالية من رباتها، إن ربة البيت روح ينفث الهناءة والمودة في جنباته ويعين على تكوين إنسان سوي طيب، وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة فإني أكره وأد البنت طفلة ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة الخير لأمتها ولأهلها، فكيف نوحد بين الأمرين؟...

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة، ومطلوب أيضًا توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من أعمال. إذا كان هناك مائة ألف طبيب أو مائة ألف مدرس فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء، والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة وصانت بها حدود الله..

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله".[٢٤]

ومن منطلق هذه الثقة في قدرات المرأة المسلمة وإسهامها في تطوير مجتمعها وحفاظها مع ذلك على أسرتها وبيتها يقر الشيخ بأن بين النساء من تجيد إدارة شؤون الجماعة المسلمة على مستوياتها المختلفة، وأنه أولى أن يتولى الإنسان الكفء التقي، ذكرًا كان أم أنثى، فيكتب قائلا:

"ما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ إمرأة ذات دين خير من ذي لحية كفورا!"[٢٥] ويتوج **الشيخ الغزالي** جهده ونظره في شؤون الأمة وحال نسائها بكتابه **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة** في أوائل التسعينيات، ويكتب في مقدمته:

"الإسلام متهم بإهانة المرأة واستضعافها...! فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة؟؟ القرآن بين أيدينا لم يتغير منه حرف، وهو قاطع في أن الإنسانية تطير بجناحين، الرجل والمرأة معًا، وأن انكسار أحد الجناحين

---

[٢٤] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص٥٢- ٥٣.

[٢٥] المرجع السابق، ص٥٩.

يعني التوقف والهبوط. فلننظر إلى السنة ولنستبعد ما التصــق بها مـن الواهيـات والمتروكات.

إن مصاب الإسلام في المتحدثين عنه لا في الأحاديث نفسها".[٢٦]

وينتقل الشيخ في كتابه من قضية لأخرى، بادئًا بمفاتيح لفهم مكانـة المـرأة ووظيفتها مقارنا بين وضعها في دار الإسلام ووضع النساء في مجتمعات أخـرى، آسِيًا لِحَالها:

"المرأة عندنا ليس لها دور ثقافي ولا سياسي، ولا دخل لها في برامـج التربيـة ولا نظم المجتمع، ولا مكان لها في صحون المساجد ولا في ميادين الجهاد، ذكـر إسمها عيب ورؤية وجها حرام، وصوتها عورة ووظيفتها الأولى والأخيرة إعداد الطعام والفراش.

المرأة اليهوديـة تشـارك مدنيًـا وعسـكريًا في قيام إسرائيل، وهـا هـي ذي توشك أن تكون في البيت الأبيض تضع اللمسـات الأخـيرة في الإجهـاز علينـا، ولا يزال نفر من أدعياء التديـن يجـادلون في حـق المـرأة أن تذهـب إلى المسـجد وتحضر الجماعات.

إننا نموت قبل أن يحكم علينا غيرنا بالموت! فهل نعي ونرشد؟"[٢٧]

وينتقل الشيخ في الباب الثامن مـن الكتـاب السـالف الذكـر إلى استعراض صفحات مطوية من تاريخ مشـاركة المـرأة وإسـهامها في صنـع نهضـة الإسـلام وحضارته تحت عناوين مثل: "إمرأة بألف رجل"، و "المـرأة في العلـم والأدب"؛ وفي الباب الثالث يتحدث عن وظيفة المرأة في إطار الأسرة تحـت عنـاوين مثـل: "لا تهونوا من وظيفة ربة البيــت"، و "البيـوت تُبْنَـى علـى الحـب"؛ وفي البـاب الرابع يتناول مفاهيم ينبغي أن تصحح مثل: القوامة وفلسفة المهر وبيت الطاعـة والتشدد في إيقاع الطلاق ومشاركة النساء في المساجد، مذكرًا النساء والرجـل بآداب المجتمع الإسلامي الطاهر.

ويسوق الشيخ خبرته في العديد من الجامعات كالأزهر وأم القـرى والأمـير عبد القادر بالجزائر في كثير من المواضع ناقدًا فهـم شـباب الصحـوة الإسـلامية لمكانة المرأة ووظيفتها، فيكتب:

---

[٢٦] محمد الغزالي: المرأة بين التقليد الراكدة والوافدة (القاهرة دار الشروق، ١٩٩)، ص٦

[٢٧] المرجع السابق، ص٣٢.

"عندما كنت أدرس في الجزائر الإسلامية كان الطلاب عن يميني في المدرج والطالبات عن يساري، ولا حظت أن الوجوم يخيم على الطالبات بعد أيام قلائل كن يسألنني فيها على استحياء! وعلمت أن الطلاب الذكور هددوهن إذا سألن ـ فصوت المرأة عورة!ـ ورددت على ذلك بمنع الأسئلة الشفوية من الجنسين وقبول الأسئلة المكتوبة وحدها! وأكدت ما قررته مرارًا أنه لا عورة في صوت المرأة ولا في وجهها! ثم شعرت بأن مستقبل الإسلام في مهبة الريح إذا بقي الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي ينشره بعض العلماء."[28] وربما كان ذروة ما كتبه الشيخ عن النساء هو ما ذكره في كتابه **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، إذ ينتقل خطوة أبعد من تكريم المرأة في ذاتها إلى تكريمها في كفاءتها ومشاركتها في صنع "حضارة الإسلام وتراثه" وحمل أمانة هذا الدين، فيقول:

"علوم السنة من أهم علوم الشريعة، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حافظ، وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل بهذه العلوم بَلْهَ أن يبرزن فيها ويبلغن مرتبة الإمامة، حتى قرأت رسالة **السنة النبوية في القرن السادس الهجري** للدكتور محمد إبراهيم الديك فوجدت عالمات بالسنة لا يشق لهن غبار، ولسن نزرًا يسيرًا، بل عشرات من العالمات الثقات."[29] ثم يروي كيف شاركت المرأة في النهضة الدينية والثقافية والاجتماعية في عصور الإسلام المختلفة.

لقد تجاوز الشيخ في مؤلفاته الأخيرة إفراد المرأة بالحديث أضحى يضمنها خطابه عن الإسلام في مواضع شتى ومناسبات مختلفة ليقر بذلك بعد مسيرته الطويلة أن حضارة الأمة بناها ويبنيها الرجال والنساء معًا.

المرأة والأسرة: تكامل الدوائر

إذا كان الشيخ قد طور رؤيته التي ساعدت خبرته على صقلها وإنضاجها بشأن الحاجة للاهتمام بقضايا المرأة في عالمنا الإسلامي من منظور إسلامي

---

[28] المرجع السابق، ص٥٢.

[29] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق. ص١٥٨ـ١٦٨

قويم، فإن الخط المستمر في كتاباته منذ البداية كان هـو الإدراك المبكـر لأهميـة الأسرة ومحوريتها في التصور الإسلامي، وفي مواجهة التحديات الـتي تجابهنـا في هذا العصر.

وقد اتخذ هذا الاهتمام صبغة أخلاقية في البداية، يهاجم الرذائل التي نجمـت عن خروج المرأة وسـفورها والكـوارث الـتي حلـت بالحيـاة الأسـرية.[٣٠] فحـين كتب عن حقوق الإنسان أفرد جزءًا للحديث عن الأسرة واضعًا بذلك المفهـوم الإسـلامي للحقـوق الـذي يقـوم علـى روح الجماعـة مقـابل المفهـوم العلمـاني الفردي المفرط في الفردية، ومؤكدًا كون الأسرة نسقًا للحقوق والواجبات يمثل قاعدة المجتمع الإنساني، وهو تصور يقـدم جوهـر النمـوذج النظـري الإسـلامي سواء بالنظر للإنسان ووظيفته في الكون أو فلسفة الحق في الإسلام.[٣١]

وقد توالت كتاباته تدافع عن حقوق المرأة، لكنها تحذر في الوقت ذاتـه مـن الموبقات التي ترتكب باسـم إشـراكها في الحيـاة العامـة، مشـددًا علـى ضـرورة الالتزام بضوابط السلوك وقيم الأخلاق الإسلامية، وعلى عدم التنازل ولـو قيـد شعرة عنها، وإلا عم الفساد؛[٣٢] ويصوغ ذلك في تعبير بليغ فيقول: "إننا لا نريد أن تنتقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام"،[٣٣] موضحًا أن طريقًا وسطًا هـو السبيل، وليس اتباع خطى الغرب أو إبقاء الحـال علـى مـا هـو عليـه: "الأسـرة أساس المجتمع، فكل ما يتهدد كيانها أو يضعف سلطانها أو يفسد جوها فلا بد من منعه باسم الإسلام.

"وقد عرف القريب والبعيـد أن الإسـلام نظـام متكـامل، وأن إنفـاذ بعـض تعاليمه مع غيبة البعض الآخر لا يقيـم مجتمعـًا إسـلاميًا، وأن إصـدار فتـاوى في الحالات العارضة مع إغفـال الملابسـات القائمـة قـد يسـيء إلى الإسـلام أو إلى الأمة أو إليهما معـًا."[٣٤] ويخـوض الشيخ المعركـة مدافعـًا عـن الأسـس الفقهيـة والأصولية التي انبنت عليها مواد القانون المصري الذي يراد تعديله، ويـرد علـى

---

٣٠ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص١١٣-١٢٢.

٣١ محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، مرجع سابق، ص١٣٧-١٥٩.

٣٢ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص١١٣-١٢٢.

٣٣ محمد الغزالي: معركة المصحف في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص٢٣٨.

٣٤ المرجع السابق، ص٢٣٩

دعاة تقييد تعدد الزوجات والطلاق، مشفقًا على الأمة من مزيد طعنٍ في شريعتها، ومهاجمًا من يريد أن يبدل في شرع الله، ويستعرض في أناة الباحث المدقق مواد القوانين المدنية في ضوء واقع الإحصاءات الرسمية موضحًا بُعْدَ كثير منها بالفعل عن أحكام الشرع، واضعًا الحق في نصابه ومؤكدًا حقوق المرأة في ضوء الشريعة كما هو الأمر في حق الخلع، وهو في ذلك لا يدافع فحسب عن المرأة المسلمة بل عن شريعة الله وتماسك المجتمع المسلم: "فشرائع الإسلام ليست أحوالاً شخصية تهم أصحابها وحدهم من حقهم أن يقروها إذا شاؤوا أو يغيروها إذا شاؤوا.

وإذا كان هذا العنوان اصطلاحًا فنيًا محضًا فهو ليس من صنع علماء الإسلام."[٣٥]

ويرفع الشيخ صوته في خطب الجمعة داعيًا جماهير المسلمين إلى ضبط العلاقات داخل الأسرة بموازين الشرع، فهو لا يواجه "السادة" الذين يريدون تغيير القوانين فقط، بل يستنهض الناس أن يستمسكوا بشرع الله في ممارساتهم اليومية داخل الأسرة وفي القوانين،[٣٦] مذكرًا الأمة بوصية رسول الله للرجال في حجة الوداع أن يستوصوا بالنساء خيرًا.[٣٧] وفي موطن آخر يهاجم "بدع العادات" التي انتشرت في مجال العلاقة بين الجنسين والعلاقات داخل الأسرة، داعيًا الرجال والنساء إلى صحوة تأخذ سبيلها إلى أسرهم وبيوتهم،[٣٨] ومذكرًا المرأة المسلمة بواجبها ووظيفتها في هذا الصدد.[٣٩]

وحين تعرض على الشيخ أسئلة الناس وشكاويهم يدرك الظلم الذي يكتنف ممارسات الطلاق، والتعسف في استخدام هذا الحق على يد بعض الرجال، فيوجه ويرشد ويربط على قلب الشاكيات بتفقيههن بحقوقهن،[٤٠] ولا يرى العلاج في تشريع قوانين تقيد الطلاق الذي يهز أركان البيت المسلم، بل

---

٣٥ محمد الغزالي: كفاح دين، مرجع سابق، ص٢٠٤.

٣٦ قطب عبد الحميد، مرجع سابق، ج٢، ص٩٤-١٠٤.

٣٧ المرجع السابق، ج٣، ص١٢٦-١٢٧.

٣٨ محمد الغزالي: ليس من الإسلام (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٣، ط٥)، ص٢٣١-٢٣٢.

٣٩ محمد الغزالي: الطريق من هنا (القاهرة: دار البشير، ١٩٨٧)، ص٤٦-٤٧.

٤٠ محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص٢٤٢-٢٥٢.

في تعليم الناس: "إن منع الطلاق إجراء يقع في الغرب حيث يستطيع الرجل أن يبقى زوجًا صوريًا لإمرأة ويتصل بغيرها وتتصل بغيره.

علاج سوء التطليق هو رفع المستوى العلمي والخلقي، وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهي قواعد أنبل وأشرف ما وعى التاريخ".[41]

وإذا كان الشيخ قد اتخذ موقفًا يعضد مشاركة المرأة في فعاليات الأمة، ويشدد في الوقت ذاته على أهمية الأسرة ووظيفة المرأة بداخلها، فقد أدرك أن المقولات النظرية وحسن النوايا وحدهما لا يحلان الإشكالية؛ لذا فهو يسعى لحلول عملية يمكن من خلالها صياغة هذا التوازن. وقد نادى بتغيير قوانين العمل لتصبح مدة عمل المرأة نصف مدة عمل الرجل فيجمع النساء بين الخيرين: دائرة الأسرة، ودائرة الأمة:

"كثيرًا ما تساءلت: لماذا تكون للمدير سكرتيرة خاصة؟ لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة في الطائرات وحدهن؟ ويقضين في الجو وفي الفنادق ليلهن ونهارهن؟

إن النساء يحشرن في أعمال كثيرة لا معنى لها، وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع على الفور، وسيكون عملها في أي موقع مضبوطًا بآداب الشرع وحدوده، ذلك ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة وصاحبة منصب منتجة. إن ذلك قد يقع على ندرة، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت [بالنسبة لمدة عمل الرجل] حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شؤون بيتها وأولادها.

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرفة طاهرة أمر ميسور. إنني غيور على الأعراض كأشد المتزمتين، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان، فالبون بعيد بين تكوين عقلية وضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد في قفص من حديد."[42]

---

[41] محمد الغزالي: هذا ديننا (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٠، ط٢)، ص١٧٣-١٧٧.

[42] محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مرجع سابق، ص٢٧٢-٢٧٣

كذلك نظر الشيخ في مسوغات منع المرأة من المشاركة العامة ثم نظر في السيرةالمطهرة وكتب: "حبذا لو درس المسلمون كيف انتظمت العلاقات بين الجنسين في صدر الإسلام، وكيف اجتمع أفراد الأسرة كلها في ساحة المسجد طرفي النهار وزلفا من الليل، بل كيف قاتل الرجال والنساء معًا لإعلاء كلمة الله، وكيف أجمع الفقهاء على أنه إذا وقع هجوم عام على الوطن الإسلامي كلف كل مسلم ومسلمة بإجابة النفير والخروج لبذل النفس والنفيس.

إنه في ضوء هذه العلاقات المقررة شرعًا يمكن تصور البيئة التي تولد فيها الأسرة وتنتعش وتحيا وتؤدي رسالتها الكاملة"[٤٣]

نحو نهضة نسائية رشيدة

إذا كانت أصوات عديدة منذ بداية القرن قد ارتفعت تحذر من مقولات تحرير المرأة التي تدثرت بعباءة حقوق الإنسان لتخفي أطروحات علمانية، واتهمها الكثير من الإسلاميين بالعمالة والخيانة والانحلال وغير ذلك من الأوصاف القاسية، فإن الشيخ **محمد الغزالي** رحمه الله قد وجه اللوم منذ البداية إلى أهل الفقه والذكر من المسلمين وفضل نقد الذات، مؤكدًا في هذه القضية وغيرها أن "الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"،[٤٤] فاللوم يتوجه إلى من قصر وأساء ابتداءً.

ومنذ وقت مبكر نصح الشيخ في هدوء أهل دعوات تحرير المرأة أن يؤسسوها على نهج الإسلام إذا أرادوا لها النجاح، فكتب في الستينيات بأدبه المعهود يقول:

"نحن نلفت رواد النهضة النسائية إلى ما في التراث الإسلامي من نفاسة تعجب، وما فيه كذلك من أسانيد لقضاياهم النزيهة إذا أرادوا أن يربطوا حركتهم بالإيمان والمعرفة ويبتعدوا عن مزالق الهوى والتحلل."[٤٥] ولا يكتم الشيخ نقده للخطاب السائد بشأن قضايا المرأة وغلبة الغلو فيه، بل يرفع صوته من فوق المنبر خطيبًا فيقول:

---

[٤٣] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، مرجع سابق، ص٢٣٢.

[٤٤] أنظر: محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧).

[٤٥] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، مرجع سابق، ص١١٣.

"أمتنا بحاجة إلى نهضة نسائية رشيدة، لم؟ لأن هناك بعض المتدينين لا يعقلون قضايا المرأة، أو ينظرون فيها بحماقة وقلة فقه، ولو وكل الأمر إليهم لحبسوا النساء في البيوت فلا عبادة ولا علم ولا عقل ولا فكر ولا نشاط ولا شيء. هذا النوع من المتدينين الجهلة ينبغي أن يحرم من الكلام باسم الله! والنهضة النسائية الرشيدة تحتاج إلى أن يطرد نوع آخر من المتحدثين في قضايا المراة، وهم عبيد أوروبا الذين يريدون إشاعة الخنا في بلادنا، والذين لا يعنيهم أمر العفة ولا أمر الأسرة، ولا يالون أن ينقلوا ما هنالك بعمى غريب!

... نريد تسليم النهضة النسائية إلى نساء عفيفات عاقلات محصنات آمرات بالمعروف ناهيات عن المنكر حافظات لحدود الله."[٤٦] وقد زادت الشيخ خبرته في الجزائر وفي بلدان إسلامية أخرى إدراكًا لخطورة هذا الاستقطاب بين من يريدون إقصاء النساء، ومن يريدون إقصاء الإسلام، فهو يقول على سبيل المثال:

"ما الذي دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة في الجزائر والمطالبة بالغائه؟ الذي دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثًا استفز أولي الألباب وبعث في النفوس الوجل من مستقبل يستولى فيه أولئك الإسلاميون على الحكم."[٤٧]

ويكرر الشيخ في كتابه **قضايا المرأة**... تأكيد هذه الهموم:

"لو نجح أهل الدين في تولي السلطة لغلّقت على النساء الأبواب ولم يُر وجه واحدة منهن! أقول: والكارهون للإسلام والخائفون من عودته لهم العذر عندما يلتقطون للدين هذه الصورة الكالحة الشائهة.

إن حاجة العالم للإسلام ملحة، بيد أن ناسًا من ذوي الجهالة والجرأة لا يعلمون ويكرهون من يعلم، ولا يعملون ويكرهون من يعمل، وقفوا في هذا العصر سدًا أمام تيار الإسلام، يعكرون صفوه، ويمنعون ورده، ويصدون الأمم عنه".[٤٨]

---

[٤٦] قطب عبد الحميد، مرجع سابق، ج٤، ص١٥٩-١٦٠.

[٤٧] محمد الغزالي: **تراثنا الفكري**، مرجع سابق، ص٤٨.

[٤٨] محمد الغزالي: **قضايا المراة**، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

خاتمة

إن ما نحتاجه هو نهضة إسلامية رشيدة نسائية كما يرى الشيخ، تضع الأمور في نصابها وتعالج داء الأمة بدواء دينها الشافي لا بحلول غربية تزيدها عللاً وأسقامًا، وتحرر النساء باسم الإسلام، بقيادة نساء عالمات عاملات.

لقد استمد جيلنا من قوة الشيخ الغزالي على قول الحق المر ونقده للذات قبل نقد الآخرين دروسًا وآدابًا ترسخت في أعماقنا، ونهضت نساء هذا الجيل في ثقة بالله ويقين بعدل رسالة الإسلام التي أرسلها رحمة للعالمين، يشاركن في الصحوة الإسلامية ونهضة مجتمعاتهن، بل يدافعن عن حقوق المرأة في كل مكان. ولقد شهدت المؤتمرات الدولية ـ وآخرها مؤتمر بكين سنة ١٩٩٥م ـ وفودًا نسائية إسلامية تدعوة لتحرير المرأة بتحكيم الشريعة وبالتصالح مع الدين لا معاداته أو إقصائه عن الحياة الاجتماعية والسياسية.

والله نسأل أن يجزي شيخنا عنا خير الجزاء، ويعوضنا عنه خيراً، ويرزق الأمة ـ رجالا ونساءً ـ بعلماء شوامخ يقولون الحق ويصبرون على ذلك لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة.

ملامح الفكر السياسي للشيخ الغزالي

محمد وقيع الله*

عاش الشيخ محمد الغزالي (١٩١٧م ـ ١٩٩٦م) عمرًا مديدًا أنفق قسطًا وافرًا منه في الكتابة، وخلّف ما يفوق تعداده الخمسين كتابًا في شتى قضايا الفكر الإسلامي، أبرز فيها الأبعاد الاجتماعية الحقيقية للإسلام. وكان أول ما صدر له كتاب **الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية** الذي كان أول بادرة جديرة في حقل الفكر الإسلامي تصدت لعلاج الظاهرة الاقتصادية، وكان من آخر كتبه ـ **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل** ـ ليعالج إحدى الآفات في حقل الدعوة وهي آفة التصلّب العقلي، وليطبق أصول الفقه الإسلامي على بعض القضايا المستجدة والخلافية، ونزع فيه إلى اتخاذ منهج أصولي معتدل يكفكف به من غلواء بعض المتفقهين وتطرفهم، ويصفي به بعض محاور الجدل الحاد في الشأن الاجتماعي.

وفي كل إنتاج الشيخ الغزالي كانت سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة واضحة، سواء في تركيبه للأفكار، أو في أسلوبه في الطرح والحوار، أو في الوعاء اللغوي الأنيق الذي استخدمه لبث تلك الأفكار. وعلى مدى نصف قرن ونيف من جهاده الفكري، هبت في وجهه مختلف الجبهات المتناقضة في تفكيرها، والمتحدة من حيث اعتراضها على أفكاره ومنطلقاته التجديدية. وقد كانت اصطدامات عنيفة حقًا إذ لم يكن الشيخ هو الآخر ممن ينحنون للعواصف، أو يتلطّفون في العراك الفاصل؛ ودارت رحى جدال عنيف حام، أصلى فيه الشيخ معارضيه من

---

* دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة المسيسبي بالولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م؛ محاضر بجامعة أم درمان الإسلامية (السودان).

العلمانيين وأولياء الجمود والتبعية ـ مثلما أصلوه ـ من قارص القول وحديد الكلم. ولكن للعركة انجلت في النهاية عن انتصار بيِّن لصالح الفكر التجديدي المستقبلي الذي نافح عنه الشيخ، وانكسار واضح لقواعد الجمود والتقليد وتيارات الغزو الفكري، التي توطدت في بلادنا منذ زمن بعيد. ولقد كان ذلك البلاء الفكري هو بعض ما أهله لأن تعده الدكتورة **إيفون حداد** ـ إحدى خبيرات الفكر الإسلامي في الغرب ـ واحدًا من أقوى العلماء الذين تصدوا لغزوة الأفكار الغربية الحديثة التي كان من الممكن ـ كما قالت ـ أن تصيب الإسلام بمثل ما أصابت به المسيحية واليهودية في أوربا.[١]

لقد كانت اجتهادات **الشيخ الغزالي** السياسية هي الثمرة الناضجة لجهود المدرسة الإصلاحية التي بدت بوجه سياسي سافر على يد **جمال الدين الأفغاني**، ثم اتخذت منهجا تربويًا تعليميًا تكوينيًا متأنيًا على يد **محمد عبده**، ثم عادت على يد **رشيد رضا** ومدرسة المنار لتشتغل في إطار العلوم الشرعية مع الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي السياسية.[٢] وقد كان لمدرسة المنار فضل تعميق الخطين معًا: خط السياسة الثورية **للأفغاني**، والخط التربوي التكويني **لمحمد عبده**، وذلك مع تصحيح أطر التفكير التي أرساها كل من هذين الرائدين. ولأن **الشيخ رضا** كان أقل "راديكالية"، وأكثر دأبًا من سابقيْه، فقد أدت مثابرته في عالم الكتابة والنشر إلى التأسيس الحقيقي لما يعرف، وفق التسمية الفضفاضة غير الدقيقة، بالمدرسة السلفية.

وأسهمت إشعاعات تلك المدرسة في إنضاج أفكار عدد من أعلام الفكر والعمل السياسي الإسلامي مثل **عبد الحميد بن باديس وعبد الكريم الخطابي وحسن البنا**. وهنا يمكن إرجاع الفضل إلى جهود **الشيخ رشيد رضا** في تنقية فكر الشيخين **الأفغاني وعبده**، وترشيحه عبر منظوره السلفي النقلي، وتقديمه مخلصا من شوائبه وشطحاته، ليكون أساسًا لفكر عصر اليقظة

---

[١] Hadad, Yvonne Y.: "Muslim Revivalist Thought in The Arab World", *The Muslim World* (October 1986), p. 146-147.

وقد خصَّت بالذكر الأثر الذي تركته ثلاثة من كتب الشيخ هي: **معركة المصحف في العالم الإسلامي، وكفاح دين، وقذائف الحق.**

[٢] لقد كان طريفا مثلما كان ثاقباً من **هاملتون جب** أن انتقد **رشيد رضا** لاستبداله **ابن تيمية** **بأبي حامد الغزالي** لتوجيه المدرسة السلفية الإسلامية الحديثة. صحيح أن أبا حامد انتقد الفلسفة اليونانية وأبان عن تهافتها وعوارها، إلا أنه ظل ـ بسبب استمرار تأثره بها ـ أقرب إلى قلوب المستشرقين من منطق الأصالة الصارم **لابن تيمية**، كما كانت تعاليم **ابن تيمية** أقرب إلى تحريك الحركات السياسية وتعبئتها من تعاليم **الغزالي**، ولذلك فلا عجب أن كان **الغزالي ومحمد عبده** أقرب إلى عقل **جب** وقلبه من **ابن تيمية ورشيد رضا**. راجع كتابه:

Modern Trends in Islam (Chicago Univ. Press, 1949), p.34.

الإسلامية، وإلا فإن أفكار **الأفغاني ومحمد عبده** في صورتها الأولى قد انجبت عددًا من التلاميذ ممن لا يمكن وضعهم في سياق فكري سياسي إسلامي، شأن **سعد زغلول ولطفي السيد**، وكلاهما كان يعتز بتتلمذه على خط محمد عبده، ويظن أنه كان الامتداد الحقيقي لذلك الخط.

بل إن بعضهم كان يستكثر بحنق واضح جهود **الشيخ رشيد رضا** في تصحيحه خط الأستاذ الإمام، كما يستكثر عليه أن يكون الوارث الحقيقي لخط المدرسة السلفية بِزَعْمِ أنه كان مقلدًا أكثر منه حاملاً للواء التجديد.[٣]

ومن كان يظن أن جهود الرواد يمكن أن تذهب هدرًا،[٤] فلينظر إلى جهود **رشيد رضا** كم أثمرت سواء على صعيد المنهج أو على صعيد إنتاج المفكرين. ومن جملة المفكرين الذين ورثوا خط السيد رشيد رضا النابض بالإيقاعات السياسية، كان **الشيخ محمد الغزالي** الذي استطاع أن يعطي ذلك الخط دفعة قوية، استقاءً من دراساته الشرعية النظامية، ومن انخراطه في قيادة العمل السياسي التنظيمي في **جماعة الإخوان المسلمين** التي انتظم في خطها إلى أواسط الخمسينيات، ثم تخلى عنها تنظيميا، من دون أن يتباعد عنها فكريًا أو سياسيًا.

المدخل الكلي في السياسة

لقد كان انتماء **الشيخ الغزالي** الفكري لتلك الجذور العريقة هو ما أعطى فكره صورته الكلية. ومن بين الكتب العديدة التي ألفها يمكن اعتبار عشرة منها كتبًا سياسية خالصة، أما بقية أفكار الشيخ السياسية فقد توزعت على مختلف كتاباته، وقل أن تجد له كتابًا لا يتعرض لموضوع السياسة. وهكذا فبغير قراءة واسعة في تراث الشيخ يتعذر على القارئ أن يجمع خيوط تلك الأفكار، وأن يضعها في نسق منتظم؛ فبقدر ما أكثر الشيخ من الإنتاج الفكري، كانت أفكاره السياسية تتناثر وتتوزع وتتداخل مع موضوعات أخرى، محققة بذلك نوعًا رائعا من التلاحم ما بين الشأن السياسي والاقتصادي والثقافي والتربوي والروحي. وقد كان طبيعيًا أن تأتي أفكار **الغزالي** بهذه الصورة الكلية، إذ إنها منبثقة عن إطار عقائدي ومعرفي أشمل هو الإطار الإسلامي.

---

[٣] ذلك هو زعم الدكتور طه حسين الذي كان يميل لاعطاء تلك الوراثة للشيخ مصطفى عبد الرازق. ومع جدارة الشيخ عبد الرازق، واجتهاداته فيما يتصل بمناهج البحث وتأصيل الفلسفة الإسلامية، إلا أن جهوده لم تكن تتصل مباشرة بالخط السياسي الاجتماعي، وإنما ظلت حبيسة أطر الأبراج الأكاديمية.

[٤] ذكر رشيد رضا في بعض مذكراته أن الأعداد الأولى من مجلته التي أصدرها باسم: المنار، كسدت في الأسواق، ولكنه لم يشأ أن يجعلها وقودًا للنار أو يبيعها وزنًا لتكون مادة للفائف التجار، موقنًا أن الأمة ستعود إليها لاحقًا بعد أن أعرضت عنه .. وبالفعل فقد استطاع الشيخ رشيد رضا أن يبيع في وقت لاحق كل ما كسد من أعداد المنار

وهكذا فقلما يفصل الشيخ فصلاً حاسمًا ما بين النظامين الاجتماعي والسياسي، فقد يركز على الجانب الاجتماعي كما هو الحال في كتابيْ: **الجانب العاطفي من الإسلام و جدد حياتك**، ولكنه لا يُخلي مثل تلك الكتب من إشارات إلى أثر الدولة أو العامل السياسي في حياة الناس. وأما عندما يتناول الجانب السياسي الخالص فإنه يصله بخيوط قوية بمفاهيم الإسلام الاجتماعية، ولذلك فإنك تعثر في خضم تحليلاته السياسية على تصورات أخلاقية خالصة. وقد يتعذر على المرء أن يعثر على كلمة "عفاف" مثلا في كتاب من كتب علم السياسة، ولكنك واجدٌ مثل ذلك بكثرة في كتب الغزالي السياسية، وواجدٌ ربطًا قويًا لمفاهيم الدين المركزية مثل "الورع" و "التقوى" و "الجزاء الأخروي" بتفاصيل ممارسات العمل السياسي.

لقد كان الشيخ الغزالي يحاول دائمًا رفع المعالجة السياسية إلى أفق الوضاءة الروحية. وهذا هو المنهج الأسدُّ، لأن النظام السياسي الإسلامي لا يؤتي ثماره ناضجة إلا في هذا الأفق؛ وكما لاحظ مالك بن نبي بحق، فإن الحضارات الإنسانية كافة ما كانت سوى حلقات متشابهة في أطوار نموها، تبدأ الحلقة الأولى بظهور الروح الدينية، ثم تتغلب جاذبية الأرض والمادة عليها فتفنى قوة الروح والعقل.[٥] وهذه ناحية في غاية الأهمية ينبغي أن يتفطن إليها المجتهدون في علم السياسة الإسلامي، في نهضته المرتجاة، فلا يحلُّوا من مداه الرحب، ولا يجردوه من المضامين الروحية والأخلاقية. وقد ظهرت بالفعل إلى عالم الوجود كتب سياسية إسلامية اختار أصحابها ـ بتعمد ـ أن يتخذوا منحًى دستوريًا جافا مجردًا من روح الدين، وخاليًا ولو من إشارات عابرة إلى جوانب الروح، وضمانات الإسلام الاجتماعية والتربوية الكثيرة، التي بدونها لا يمكن أن يستقيم نظام الحكم الإسلامي؛[٦] وهي كتابات نرجو ألا تكون نموذجًا يحتذى في الاجتهاد السياسي الإسلامي المنشود، إذ إنها تجزّئ الإسلام بالطريقة نفسها التي جزأت بها العلوم السلوكية الحديثة مفهوم الإنسان،[٧] وعملت على معالجة مشكلاته من منظورات جزئية اقتصرت على دلالات علم واحد كعلم الاقتصاد أو علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو

---

[٥] مالك بن نبي: **شروط النهضة** (دمشق: دار الفكر، ١٤٠١)، ص٥٣.

[٦] من أمثلة تلك الكتب دراسات الدكتور عبد الحميد متولي، وقلما تجد في مطولاته **مبادئ نظام الحكم في الإسلام** أدنى إشارة إلى الإطار الكلي الإسلامي، أو الى روح الدين التي تصوغ الحكم والرعية وتشكل ضمانة فعالية النظم الإسلامية.

[٧] في ذلك يمكن مراجعة الكتاب القيم لـ:

Floyd W. Matson: *The Broken Image: Man, Science and Society*, (New York: George Braziller, 1964).

وهو يحتوي على نقد لتجرد العلوم الاجتماعية عن النظرة الشاملة، واستبعادها للقضايا الميتافيزيقية، واستعراض لمغبة ذلك على حياة الإنسان المعاصر.

الاجتماع.. إلخ، غير واضعة في الحسبان ضرورة النظر إلى الكينونة الإنسانية في أبعادها كافة. ومن البديهي التسليم بضرورة التخصص في إطار بحثي ضيق لاستخراج نتائج علمية محددة، ولكن من الخطل الفكري والمنهجي الفادح أن ينظر إلى الإنسان مثل تلك النظرة التجزيئية، التي تعامل بها حيوانات المعامل أثناء البحث.

وبلغة مناهج البحث يمكن أن يقال إن عوامل التغيير هي دومًا عوامل متفاعلة، بمعنى أنها عوامل مؤثرة في عوامل أخرى ومتأثرة بها في الوقت ذاته، ويندر إن لم يستحل وجود العامل المستقل the independent variable، وإن كانت العلوم الاجتماعية الحديثة توهم بإمكان وجود مثل ذلك العامل. وإن أمكن وجود مثل ذلك العامل بالفعل، فإنه يبدو مستقلا فقط في إطار علم اجتماعي محدد، ولكنه يبدو متأثرًا بعوامل أخرى حين فُتّح مجال الدراسة على تخصصات علمية أخرى. ولذلك يتحتم على أصحاب التخصصات الضيقة مثل علم النفس والاقتصاد والتاريخ أن ينفتحوا كثيرًا على العلوم الأخرى المجاورة لتخصصاتهم، فضلا عن التمكن في الفكر الإسلامي من منابعه وأصوله، وذلك بالطبع لكي يتبلور اجتهاد إسلامي صلب وأصيل في مجالات العلوم الاجتماعية، ولكي تضم أجزاء الإسلام بعضها إلى بعض، وحتى لا يُبتَر أيّ جزء منها بحجة عدم ملاءمته لأوضاع الناس اليوم.

ردُّ السلطة إلى الدين

وفي سبيل ضم أجزاء الجسم الإسلامي بعضها إلى بعض، كان الفكر السياسي **للشيخ الغزالي** يعمل على جلب قضايا الغيب والروح والأخلاق إلى ميدان السياسة، كما يعمل من ناحية أخرى في سبيل جذب السياسة نفسها إلى إطار الدين، وتلك جهود ووجهت بمعارضات ومعاندات شتى، حتى من جبهة أولياء الدين.

إن قضية العلاقة بين الدين والسياسة، والمسلَّم بها حاليا بوجه عام في الأفق الثقافي، لم تتأت إلا عقب جهاد عقلي كثيف خاضه العلماء والمفكرون المسلمون ضد أساطين الغزو الفكري. ومنذ بداية العشرينيات من هذا القرن كان العلمانيون قد لجأوا إلى حيلة "علمنة الإسلام من الداخل"، أي ترويج أفكارهم باستخدام أغطية شرعية. وكانت المهمة الكبرى تتمثل في عزل الدين عن الدولة. وفي هذا الصدد أصدر الشيخ **علي عبد الرازق** - أحد علماء الأزهر - الذي أتيح له أن يدرس العلوم السياسية بجامعة أكسفورد البريطانية[٨] كتابه الشهير: **الإسلام وأصول**

---

[٨] Adams, Charles C.: *Islam and Modernism in Egypt* (New York: Russell & Russell, 1968), p. 260.

الحكم، الذي ذهب فيه إلى القول بأن "الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية! كلا ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها، ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها".[٩] وعلى إثر هذه الأفكار اللدوية صدرت سبعة كتب لعلماء ومفكرين مسلمين تعقبتها بالرد، فاضطربت مراكز الغزو الفكري، واضطرب علي عبد الرازق نفسه زمانًا، وامتنع عن إعادة نشر كتابه على الرغم من إلحاح العلمانيين عليه،[١٠] وعلى الرغم من ترويج دوائر الاستشراق له ودفاعها عنه.

وانقضت ثلاثون عامًا حتى برز خالد محمد خالد من الأزهر يروج للمضامين ذاتها في كتابه من هنا نبدأ. وإذا كان علي عبد الرازق قد تشبَّث بمفاهيم العلوم السياسية التي شدَا بعضها في أكسفورد، فإن خالد محمد خالد قد انتحل لنفسه صفة المفكر الإنساني humanist الحادب على الحريات العامة وحقوق الإنسان أن تنتهكها الكهانة الدينية إذا ما استبدت بزمام السلطان. وعلى الرغم من معرفته بالتجربة التاريخية الإسلامية التي تنفي وجود مثل تلك الطبقة أصلاً، بَلْه أن يتاح لها أن تتحكم في رقاب الناس، فإنه فضَّل أن يعزف على وتر تملك للمخاوف المتوهَّمة، التي لا يمكن تأمين الناس من شرها إلا بفصل الحكم عن الدين.

وفي كتاب من هنا نعلم تولى الشيخ الغزالي نقض تلك الأطروحة من الأساس. وقد كان طريفاً أن يشتبك شيخان أزهريان، يفترض أن مبادئ ثقافتهما موحدة، يعتركان حول قضية أصولية كبرى من قضايا الدين، هي معلومة من الدين بالضرورة الآن، ولكنها لم تكن كذلك في ذلك الزمان. وبمنطق علمي راسخ تولى الشيخ الغزالي إعادة تعريف المصطلحات المستخدمة في الجدال؛ فنظام الكهنوت ـ بتعبير خالد محمد خالد ـ أو طبقة رجال الدين بالاستخدام الدارج، طبقة لا وجود لها، ولا شرعية لها في الإسلام.. فقط "قد يوجد فريق من الناس يختص بنوع من الدراسات العلمية المتعلقة بالكتاب والسنة، وهذا النوع من الدراسات لا يعدو أن يكون ناحية محدودة من آفاق الثقافة الإسلامية الواسعة، تلك الثقافة التي تشمل فنونا لا آخر لها من حقائق

---

[٩] علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم (القاهرة: مطبعة مصر ١٩٢٥)، ص١٠٣.

[١٠] ذكر محمود أمين العالم أنه سعى إلى الشيخ علي عبد الرازق قبيل وفاة لإقناعه بإعادة طبع الكتاب، فتمنع كثيرًا، ولم يقتنع إلا بعد أن أوضح له أن الجو الفكري قد تغير كثيرًا، وأن السلطات السياسية أصبحت أكثر جرأة في رعايتها لمثل هذه الأفكار، وحمايتها لأصحابها، فأذن له بإعادة طبع الكتاب، على ألاّ يُحمَّل هو ـ أي علي عبد الرازق ـ أي مسؤولية من جراء ذلك! وفي ذلك يقول محمود أمين العالم: "تمنيت أن يخرج الكتاب في حياته ليكون معنى من معاني الوفاء والعرفان بالجميل يقدمه جيلنا المعاصر لهذا الجيل السابق الذي مهد لنا الطريق"! جريدة أخبار اليوم (مصر)، بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٩٦م.

الحياتين ومن للعارف للادية وغير للادية"،[١١] وهؤلاء لا يشكلون طائفة مغلقة ذات تفويض سلطاني خاص.

وأما مصطلح (تأويل القرآن) الذي اتخذه **خالد محمد خالد** حجة أخرى تشير إلى سعة سلطان الحاكم المسلم، الذي يستطيع تأويل القرآن كما يشاء لتسويغ تصرفاته وتمريرها على الناس، فإن **الشيخ الغزالي** يعطيه حدَّه الدقيق فيقول: "صحيح أن القرآن اعتمد في أحكامه وتوجيهاته على التعبيرات العامة والألفاظ المرنة، حتى يساير العصور كلها إلى قيام الساعة، وهذه آية من آيات إعجازه، بيد أن العموم والمرونة شيء آخر غير الغموض والإبهام... و[في] السنة مزيد من البيان لما أجمل القرآن وذكره من تفاصيل. [وأما إذا] كانت بعض الآيات المتصلة بذات الله وصفاته فوق مستوى العقول، فإن آيات العقائد والأحكام والأخبار والأوصاف ـ وهي أكثر القرآن ـ محكمة ، ثم هي وحدها منبع التشريع ومناط التكليف"؛[١٢] فليس ثمة فوضى في التأويل بحجة أن القرآن حمّال أوجه شتى، لك أن تختار منها ما يوافق هواك، كما زعم **خالد محمد خالد**.

وتناول **الشيخ الغزالي** للنهج الذي بنى عليه **خالد محمد خالد** حججه في سلب حق الإسلام في الحكم قائلا إنه منهج مقلوب، "ونحن نعلم أن الناس يُعيَّرون بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه ... بيد أن الشيخ خالدًا يعيِّر الإسلام بخروج البعض عليه ويريد ليحمله تبعة أعمالهم. فإذا ضلَّ الحجاج فالعلة في نظره أن التشريع غامض، لا أن الحجاج حاكم ساقط... وتطرد الأمثلة في استدلالاته على هذا النحو المتداعي، حتى يخرج منها في النهاية بأن الدين ليس أهلاً لأن يحكم! ولو كان عبث الحكام بنصوص الحكم سببًا لإهدار العمل بها، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام في العقائد والآداب سببًا لإهدارها كذلك؟"[١٣]

فالمنطق مقلوب بشكل مثير، فقد كان على **خالد محمد خالد** ـ كما ذكر **الغزالي** ـ أن يميز بين المثال والواقع التاريخي، وأن يحاكم الوقائع التاريخية الشاذة في ضوء المثال الإسلامي العام، لا أن يحمِّل الدين آصار تلك الوقائع، أو أن يبني أحكامه الشاملة التي قضت بحرمان الدين من سلطته، على إساءة استخدام بعض الحكام لها.

---

[١١] محمد الغزالي: من هنا نعلم، (الجزائر: دار الكتب)، ص٢٢.
[١٢] المصدر نفسه، ص٣٧
[١٣] المصدر السابق، ص٣٩

وعلى الرغم من أن خالد محمد خالد قد سبق أن رفض منهج التأويل، إلا أنه عاد ليستخدمه لما رأى أن يقضي مأربه في سلب سلطان الدين السياسي. وها هو يؤول حديث "أنتم أعلم بأمور دنياكم" ليستنتج منه أن الناس أولى بأن يترك لهم أمر اختيار أو ابتكار أنظمة الحكم التي تناسب أوضاعهم؛ وفي هذا المقام يتجاهل أن أصول الاستدلال الفقهي لا تعطي هذا الحديث ذلك المدى للطاط الذي ولج فيه، وإنما تقصره على مدى القضايا الفنية المتعلقة بمسائل الصناعة والزراعة والطب ونحوها من الحرف والمهن، من غير ما تعدٍّ إلى حدود القضايا المبتوت فيها شرعا، كقضايا الحكم والقضاء والاقتصاد. والغريب أن خالد محمد خالد قد استخدم هذا الحديث ليحمل على مبدأ الحدود الشرعية، وليوهم جواز تغييرها أو تعطيلها، وإمكان توكيل السلطات المدنية بتنفيذها في إطار ما تنفذه من أحكام القضاء المدني، هذا إذا كان لابد من تنفيذها!

وردًا على ذلك يؤكد الغزالي أن نظام الحكم الإسلامي ليس نظاما من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء، ويهمل ما يشاء، وإنما هو نظام منبثق رأسًا عن عقيدة التوحيد ومعبِّر عنها في واقع الحياة الاجتماعية، وأن الحدود جزء لا يتجزأ عن نظام الإسلام القضائي؛ صحيح أن الجانب العقابي في الدين ليس هو الجزء الأهم من التشريعات الإسلامية، ولكنه جزء أصيل لا يتجزأ عن مجمل شريعة الإسلام.[١٤]

وفي تعقُّبه لاستدلالات صاحب من هنا نبدأ، فإن الشيخ الغزالي يتولى دحض الحجة التي ابتكرها الكاتب، والتي ستصبح - مع ذلك! - الحجة الأثيرة للعلمانيين، الذين لا يريدون مصادمة الدين بعنف، وإنما يظهرون بمظهر الحادب عليه. يقول خالد محمد خالد: "إن الدولة عرضة للنقد والتجريح، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار، فكيف نعرِّض الدين لهذه المهانة؟" وعلى ذلك يرد الغزالي ردًا معجبًا حيث يقول: صحيح أن "الدولة عرضة للانتصار والانحدار، فإذا تأسست على الدين، فأي ضير على الدين أن يكون في حال النصر زمامًا يمنع المنتصر من الطغيان، وفي حال الهزيمة حافزًا يغري بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان. ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها فهل ينقلب الحق باطلا لأنه انخذل في معركة؟ أيّ عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التي تنافح عنه؟ وقديما هزم الدين وقتل في هزيمته

---

[١٤] راجع تلك المناقشة في صفحات ٢٩-٣٢ من المصدر السابق

صديقون وأنبياء"؛[١٥] فهزيمة الدين أو أوليائه لا تعني ألاَّ يناضل الدين ودعاته، وأن ينسحبوا من ميدان المعركة ابتداءً.

وبهذا النهج المنطقي تعقب **الغزالي** مفاصل كتاب **من هنا نبدأ**، وترصد حججه التي بذل صاحبه جهدا كبيرًا في تطويرها وإلباسها ثوب المنطق الإسلامي، حتى تستأصل ـ في عملية جراحية شرعية ! ـ هذا "الزائد الإسلامي"[١٦] المسمَّى "أصول الحكم"، الذي ما كان سوى مظهر سياسي خارج عن حدود الدعوة الدينية التي كلف بها الرسول صلوات الله عليه، كما قال **علي عبد الرازق**، أو طارئ استلزمته الضرورات الاجتماعية في ذلك العهد لا غير، كما زعم **خالد محمد خالد**. وهنا يعطي **الغزالي** هذا المثال المقارن المستقى من المناخ السياسي لتلك الأيام.. يقول **الغزالي**: "هب أن رجلا كوَّن فكرة عن **تشرشل** داهية انجلترا المعروف أنه أديب وخطيب وأن حياته تقوم على الكتابة والخطابة فحسب، وأنه لا يعرف عن السياسة شيئًا و لم يعمل في ميادينها يومًا!! فإذا قلت له: إن هذا الرجل ولد وشاخ في السياسة، وإنه خاض حربين هائلتين، وضرب دول العالم بعضها ببعض، وكان لتدبيره وتفكيره أثر عميق في تاريخ بلاده، فكيف يوصف بأنه غير سياسي؟ قال لك: ولو! ... إن الظروف هي التي اضطرته إلى ذلك! وشنُّ الحروب وعقدُ المعاهدات وتشريعُ القوانين وتولي القضاء وغيرُ ذلك من الأعمال قد يتولاه الرجل ولا يسمى سياسيا"![١٧]

وهكذا فغِنى الإسلام بالتوجيهات التي تغطي مجالات العقيدة والعبادة والتربية لا يعني بالضرورة أن تلك هي حدود الإسلام، وأن كل ما سوى ذلك من قضايا السياسة والسلطة مجردُ "زائد" ينبغي أن يزاح!

لقد تطلب الدفاع عن ذلك "الزائد" جهادًا متطاولاً، أدى في النهاية إلى تأصيله في مقامه الصحيح فرضًا لا يُمَارَى فيه من فروض الدين. ولئن كان كتاب **خالد محمد خالد** قد حظي بالشهرة الواسعة حتى غدا من مراجع العلمانيين الأثيرة، فإن كتاب **الغزالي**، الذي لم يحظ بالقدر ذاته من العرض والتلميع، قد أسهم بقدر معلًى في تقويض تلك الأطروحة الجامحة، وفي تحويل المناخ الفكري لصالح الإسلام، حتى استنار بنور الفكر الإسلامي عدد كبير من غلاة العلمانيين

---

[١٥] المصدر السابق، ص٥١.

[١٦] عبارة "الزائد الإسلامي" استخدمها د. محمد البهي في تلخيصه ونقده لموقف الشيوخ الذين استخدموا لأداء مهمة التنظير لفصل الدين عن الدولة. راجع مناقشته العلمية القيمة لهم في كتابه **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩١)، ص١٩٦-٢٠٦

[١٧] من هنا نعلم. ص ٥٠

ومعتنليهم، وحتى غدا بعضهم من أشهر المنظّرين السياسين الإسلاميين المشهودين في ساحة الفكر اليوم.[١٨]

الشورى ومناخ التداول السياسي

وإذا كانت إدارة الدولة جزءًا من وظائف الدين، فإن السؤال الأول الذي يُطرح يتعلق بتفويض السلطة وكيفية ممارستها، وهل هي سلطة شورية "ديمقراطية"، أم هي سلطة الحق الإلهي المطلقة. وكما هو الشأن دائمًا مع **الغزالي** فإنه لم يكن ليتوقف عند مجرد المصطلحات والتسميات في أمر الديمقراطية، وإنما كان ينفذ دائمًا إلى جوهرها، ويعقد المقارنة بينه وبين التوجيهات الإسلامية.

وإذا كانت التعريفات الأشهر للديمقراطية هي تلك التي تثير الإشكالات لدى القارئ المسلم وتستحضر لديه مفهوم (الحاكمية) الذي صاغه **المودودي** ونظر له وأشاعه **سيد قطب**، ذلك المفهوم القاضي بأن هناك تعارضًا ما بين الإسلام والديمقراطية فيما يتصل بأمر التشريع... إلا أن التعريفات الأدق للديمقراطية، وهي التعريفات الأحدث، لا تثير ذلك الإشكال، لأنها لا تنحو ذلك النحو الذي يثيره تعريف **أبراهام لنكولن** القائل بأن الديمقراطية هي "حكم الشعب بالشعب للشعب"، وإنما تتحدث عن آليات الحكم والتأثير في القرار السياسي. فالديمقراطية بهذا الاعتبار هي "النظام السياسي الذي يتيح فرصًا دستورية منتظمة لتغيير الفئة الحاكمة. وكذلك تهيىء تنظيمات اجتماعية تسمح بأن يكون للسواد الأعظم من السكان تأثير في القرارات الهامة، وذلك عن طريق الاختيار بين المتنافسين على المراكز السياسية".[١٩]

ومثل هذا المعنى هو الذي يركز عليه الفكر السياسي **للشيخ الغزالي** ويحاول أن يؤصله إسلاميًا[٢٠] ويبلوره بحسبانه قناعة راسخة في الضمير الإسلامي. وفي هذا المنحى فقد أكد الشيخ

---

[١٨] غني عن القول إن **خالد محمد خالد** نفسه قد تراجع في منتصف السبعينيات عن مقولات كتابه من هنا نبدأ، ولكن فكره ظل مشوشا حتى آخر حياته، لأنه لم يقم بمراجعة أصيلة وحازمة لمجمل أفكاره.. وعند مماته حظي برثاء كثير من العلمانيين الذين ربطوا بين إنجازاته الفكرية وكتابه من هنا نبدأ والضجة التي أثارها عند صدوره.

[١٩] صاحب هذا التعريف هو المفكر السياسي النمسوي **جوزيف شمبيتر** وقد ورد في كتاب رجل السياسة لسيمور مارتن ليبست (بيروت: دار الآفاق الجديدة)، ص٢٣.

[٢٠] يعتقد جون اسبوزيتو أن ذلك التأصيل هو من قبيل إعادة التفسير والإصلاح الذي جرى لليهودية والمسيحية، التي كانت في وقت ما مؤيدة للاستبداد السياسي، لكي تتوافق مع الفكر الديمقراطي الأوربي، وفي ذلك يقول: "وكذلك قد يكون الإسلام ملائماً لتفسيرات متعددة، فقد استخدم لتأييد الديمقراطية والديكتاتورية، الجماهيرية والملكية" وفي الحقيقة فإن قياس التجربة الغربية، في هذا الشأن، مع التجربة الإسلامية، قياس مع الفارق؛ إذ إن النصوص الإسلامية لم يلحقها من الطمس والنحل ما لحق بالنصوص اليهودية والنصرانية. وكل ما حدث في التجربة الإسلامية لا يتعدى إما تجاهل النصوص، أو الاقتصار على

أن الوضع الطبيعي لاختيار الحكام في المجتمع المسلم هو الوضع الشوري، أي الوضع الذي يختار فيه الناس حكامهم، غير مكتفين بمجرد مبايعتهم أئمة نافذين أو متغلبين، مستنتجًا ذلك من وقائع اختيار الخلفاء الراشدين الذين يمثلون التجربة الأقرب التصاقا بتوجيهات النصوص، وبروح الدين، وبتجربة الرسول ﷺ في الحكم. أما فيما يتصل بمهمة الشعب في صنع القرار، وهو الأمر الذي نوقش في الإطار التنظيري المعروف: هل الشورى ملزمة أم معلمة؟، فقد أبدى الغزالي انزعاجه من الطريقة المغرضة التي حُشدت بها مرويات الفتن، التي كرست دائمًا لأمر طاعة القائد ولزوم أمره، حتى بدا أن ذلك الوضع، "الذي يمكن أن يسمى وضع الطوارئ"، هو الحالة الأصيلة التي تصادر على الدوام حريات الشعب وحقه في المناقشة وإبداء الرأي، والضغط في سبيل اتخاذ قرار ما.

وليست تلك هي الصورة الإسلامية المثلى بالطبع، فالتوجيه بضرورة لزوم الشورى جاء حتى قبيل قيام الدولة الإسلامية، عندما نزلت آية الشورى المكية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، (الشورى: ٣٨)، تؤكد أن الشورى صفة لازمة للمجتمع المسلم تتخلل حياته كلها، لا حياته السياسية فقط، ثم توالت آيات الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي آيات لم تستثن الحكام من الخضوع لذلك الأمر أو النهي.

والوقائع النبوية المطردة أكدت أن النبي ﷺ كان يستشير صحابته في كل قضايا السياسية، ويقطع فيها على رأي الشورى الراجح (مثل اتخاذ الموقع الاستراتيجي في موقعه ببدر، وقرار الخروج للقتال في أحد، وقرار حفر الخندق في غزوة الاحزاب إلخ..). وهكذا كان الرجل الذي تكلؤه السماء، ويؤيده الملأ الأعلى، وتصلي عليه الملائكة، ويبلغ رسالته بعين الله، ويصحبه من آي القرآن قول الله له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (البقرة: ١١٩)، لم يمنعه هذا من أن يلتقط الحكمة من أي إناء، وأن يبحث عن الحق مع أولي الفطنة والفقه من صحابته". [٢١]

ولكن دعاة تضييق نطاق الشورى لا يعدمون حجة، إذ يتحككون بظاهر الوقائع والنصوص، ليستنبطوا من واقعة رفض الرسول ﷺ رأي صحابته يوم الحديبية، غير الموافق على

بعضها دون بعضها الآخر، أو سوء التفسير والاستنتاج. ولذلك فإن محاولة الإصلاح والتأصيل في الفكر الإسلامي لا تُواجَهُ بتلك العقبات ذات الطابع المرجعي والمنهجي الخطير في التجربة الغربية مع الدين. راجع مقاله بعنوان: "الإسلام والتحول للديمقراطية"، ترجمة عبير مصلح ومعاذ جابر، بمجلة السياسي، ١٧يناير، ١٩٩١، ص٢٨ وما بعدها.

[٢١] محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي (القاهرة: دار الكتب الإسلامية)، ص٥١

إمضاء شروط تلك الهدنة، أن الرأي الشوري غير ملزم على الإطلاق، طالما أن الرسول قد اتخذ قراره بقبول شروط تلك الهدنة على علاتها..

وهنا يستعرض الغزالي بالتفصيل ملابسات تلك الواقعة ليؤكد أن خلوء القصواء (ناقة الرسول ﷺ وتقاعسها هو الذي حسم الأمر، فقد "حبسها حابس الفيل"، أي تدخلت الإرادة الإلهية في الموضوع، وأخرجته عن مجال الشورى، واجتهاد الرأي. "ومع أن الرسول كان يقول لأبي بكر وعمر: "لو اتفقتما على أمر ما خالفتكما"، فإنه هنا خالف جمهور الصحابة، لأن المجال قد قطع فيه الوحي، وأصبح لا رأي فيه لبشر... فإذا جاء حاكم مستبد، وافتأت على رأي الأمة، مستشهدًا بما حدث في الحديبية، فيجب أن يصفع بحد السيف، لا بباطن اليد، فإن الاستبداد لا يُستشهد له بدليل من دين الله".[٢٢]

وإذا كان "خلوء الناقة" والوحي أمرًا لا يتعلق إلا بشخص رسول الله ﷺ، وبمثل تلك الواقعة، فإنه يكون الاستثناء الذي لا يجُهز على القاعدة؛ ولو كانت الشورى لا تلزم لتراجع رسول الله ﷺ عن عزم صحابته بالخروج لقتال الكفار يوم أحد، وهو الخروج الذي كان أحد أسباب الكارثة. ولقد ارتضى رسول الله ﷺ دفع ذلك الثمن الباهض ليؤكد إلزامية الشورى لحكام المسلمين، ونزل القرآن يقر ذلك التصرف النبوي ويشيد به في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ، واسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وقد كان تصرف رسول الله ﷺ هو الذي حدد مناط العزم، وهو عزم الجماعة لا الفرد.

وإذا استقر أن الشورى هي الإطار العام للتداول السياسي، فإن من مستلزمات ذلك أن يتمتع المجتمع الإسلامي بحرية التكتل والتنظيم و"مأسسة" العمل السياسي، أي حرية تكوين الأحزاب وتكتلات للمعارضة ومراكز البحث والتوجيه الفقهي السياسي (Think Tanks).. فهل يجيز الإسلام أياً من ذلك؟

إن إجابة الشيخ الغزالي تأتي بالإيجاب.. فهو القائل: "كثيرًا ما رمقت للمعارك الداخلية في تاريخنا الإسلامي ثم حدثت نفسي: ماذا لو أن النزاع بين علي ومعاوية بتَّ فيه استفتاء شعبي، بدلاً من إراقة الدم؟. ولو سلمنا أن الأسرة الأموية تمثل حزبًا سياسيًا له مبادئ معينة، فماذا عليها

[٢٢] المصدر السابق، ص٥١.

لو تركت آل البيت يكونون حزبا آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح أو يحرم منه بانتخاب صحيح؟

قال لي مُتعالم كبير: إن الانتخابات بدعة!

قلت له: وسفك الدم واستباحة الحرمة هو سنة؟"[٢٣]

فتكوين الأحزاب إذا كان يسمح بالتداول السلمي للسلطة، ويحقن دماء المسلمين، أقرب إلى سنة الإسلام إذن، وأيما طريق ظهر به الحق فثمَّ سنة الإسلام وشرعه كما ورد في عبارة ابن القيم الشهيرة! فتكوين الأحزاب هو أحد وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي وسيلة قد يتعين اتباعها لأنها تيسر أداء ذلك الواجب الكفائي في مواجهة الحكومات التي تضاعف قوتها في هذا العصر، بالتقدم التقني، وتراكم التسلح، وتوسع المعارف الاستخبارية، بحيث لم يعد يجدي في مواجهتها أمر ونهي يتقدم به أفذاذ لا عضد لهم، ولا عمق تنظيمي يدعم آراءهم ومواقفهم.. وهذه الأحزاب والتنظيمات قد تخطئ أو تصيب، مثلما تخطئ الحكومات أو تصيب، وليس بالضرورة أن تكون أحزاب المعارضة في النظام الإسلامي ـ كما يدعي بعض المنظرين ـ أحزابَ نفاق أو إفساد عام!![٢٤]

إن الغزالي يفتي بأن تكوين أكثر من حزب سياسي في النظام السياسي الإسلامي أمر مباح ومشروع، بل إن له سوابق تاريخية في ظل الحضارة الإسلامية، وهو مبدأ تقترب به الديمقراطية الغربية من الإسلام وليس العكس. ويقرر الغزالي أن "من خصائص الديمقراطية أنها اعتبرت المعارضة جزءًا من النظام العام للدولة! وأن للمعارضة زعيما يعترف به ويتفاهم معه دون حرج! ذلك أن مالك السلطة بشر له من يؤيده وله من ينقده، وليس أحدهما أحق بالاحترام من الآخر. والواقع أن هذه النظرة تقترب كثيرًا من تعاليم الخلافة الراشدة".[٢٥] ويستشهد لذلك بأن سيدنا عليًا بن أبي طالب لم يستبح دماء معارضيه، وإنما أبقاهم على رأيهم، وسالمهم، ما لم يحدثوا الفوضى والاحتراب، وذلك بغية الاستفادة من رأيهم.

---

[٢٣] محمد الغزالي: أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية (القاهرة: دار الشرق الأوسط للنشر، ١٩٩٠)، ص٤٩.

[٢٤] يرى الأستاذ صفي الرحمن المباركفوري أن المبادرة بتكوين أي حزب معارض في الدولة الإسلامية هي مجرد محاولة لصبغة بالنفاق. يقول: "نعم كان هناك طائفة تستحق أن تسمى بالحزب المعارض، بكل ما أوتي هذا اللفظ من الدلالات والخصائص، تلك هي طائفة المنافقين". راجع كتابه الأحزاب السياسية في الإسلام (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧)، ص٦٣؛ ولا ندري بماذا يسمي المؤلف تكتلات المعارضة في واقعة الجمل، وصفين، ومعارضة أبي ذر من معقله بالربذة؟!.

[٢٥] محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (القاهرة: دار الشرق، ١٩٨٩)، ص١٣٦.

وقال لهم: "كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دمًا حرامًا، ولا تقطعوا سبيلا، ولا تظلموا أحدًا! فإن فعلتم نفذت إليكم بالحرب!" وبالفعل لم يحاربهم حتى تمادوا في الغي وأشاعوا الفوضى وسفكوا دماء الأبرياء.

وهكذا فالبقاء على رأي مخالف لرأي الحاكم، أمر لا جناح عليه، مادام التزم حدود التعبير السلمي، حتى ولو اقتضى الأمر تكتيل الأنصار عليه. وفي الحقيقة إن وجود مثل هذه التكتلات السلمية، وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى توزيع القوة في المجتمع المسلم، ومنع احتكارها في يد الحاكم، أمر يجد مشروعيته، طالما كان هناك تسليم عام بأسس المجتمع الإسلامي..

هذه الآراء التي أفصح عنها الفكر السياسي للشيخ الغزالي، قد كانت نتاج إيمان عميق، قديم ومتجدد، بقيم الشورى والحرية، دأب صاحبه على الذود عنه طوال سنوات جهاده الفكري. فمن قديم كان الغزالي قد أعلن تأييده وحمايته للدستور المصري لسنة ١٩٢٣م، الذي كفل حق تكوين الأحزاب والجماعات السياسية وغيرها؛ وكان الغزالي لا ينفك يبدي سخطه وعجبه من تجاهل جمهرة المتدينين لأمر حماية ذلك الدستور، الذي هيأ لهم حق التكتل والتنظيم. وذات مرة اندفع الغزالي لينتقد ذلك الموقف في حوار له مع شيخ الإسلام حسن البنا. ويتحدث الغزالي عن ذلك فيقول: "وأذكر أني ـ من ثلث قرن ـ قابلت أستاذي الكبير الإمام حسن البنا، لأشكو إليه موقف المتدينين عامة من قضية الحريات الدستورية، وكان يصحبني الأستاذ خالد محمد خالد، وبوصفي عضوًا مؤسسًا في جماعة الأخوان فقد تحدثت يومها كثيرًا، وكان حوار عاصف قلت فيه: إن المركز العام لا يدفع عن الدستور كما ينبغي، وتمادى بي الغضب فقلت: كأني أسمع جرس الملكية يدق هنا!! وكان الإمام الشهيد أحلم مني وأرزن، فرد اتهامي بلطف، وأصدر أمره إلى مجلة الإخوان أن تنشر لي ما أكتب ولو كان ضد سياسة الجماعة".[٢٦]

وشبيه بموقفه في تعضيد الدستور المصري، موقفه من تأييد المودودي دعم ترشيح فاطمة جناح لرئاسة الجمهورية الباكستانية ضد يحيى خان. يقول الغزالي : "قلت: رحم الله المودودي وأجزل مثوبته، ما أظنني اختلفت معه في شيء طائل، ولكن للملابسات التي أحاطت بالرجل جعلت أحكامه لا تفهم إلا في ضوء هذه الملابسات .. لقد أيد ترشيح أخت محمد علي جناح لتحكم الباكستان، وفي ذلك ما فيه. وعندي أنه أفضل أن تحكم الباكستان امرأة من نوع أنديرا غاندي، من أن تحكمها عساكر من طراز يحيى خان الذي ما كان يفيق من سكر".[٢٧] ويعتقد

[٢٦] أزمة الشورى، ص٧١.

[٢٧] المصدر السابق، ص٤٤.

الغزالي أن لو "أن امرأة حكمت العرب من هذا الطراز لكان أجدى على العرب من عسكر وضعوا على صدورهم أعلى الأوسمة، فلما جدَّ الجد تحول عمالقة الاستعراض إلى معز وضأن.. إن امرأة على رأس حكم شوري أفضل من مستبد على رأس سلطة مغتصبة".[28] ولكن الغزالي يعقب على ذلك باحتراس قائلا: "وبديهي أن ذلك ليس هو النظام الأمثل"،[29] وإنما هو ترجيح العقلاء لخير الشرين!

لقد كان إيمان الغزالي بأن الاستبداد هو سر انحطاط المجتمعات المسلمة، وانكماش حركة الدعوة الإسلامية، سببَ ثورته العنيفة عليه، فإن "طريقة الإسلام في إدارة دفة الحكم بالشورى هي التي جعلت الشعوب تفتح ذراعيها له"،[30] أما عندما ساد التسلط فقد فقدت حركة الدعوة جاذبيتها إلى حد بعيد، كما تعطلت طاقات الأمة، وتبددت مواهبها بفعل ذلك المناخ الموبوء.

العمل وتوزيع الثروة

وقرين بقضية الشورى موضوع العدل الاقتصادي، فلا تكفي آليات الشورى وحدها لاستقرار المجتمع، وإنما لابد من التوازن أو التعادل الاقتصادي، وقد أثبتت الدراسات المسحية لعلم السياسية الحديث، أن اتباع سياسات اقتصادية تهدد مكتسبات فئات بينها في المجتمع، تكون نتيجته قيام حركات احتجاج واسعة من هذه الفئات تنذر باختلال نظام العمران برمته. بل إن بعض النظريات تنحو إلى تقرير أن شدة بطش النظام الحاكم تتماشى، حذو القذة بالقذة، مع مستوى توزيع الثروة في المجتمع، فبطش الحاكم يتوالى طرديًا مع تركيز الثروة في يده.

واهتداءً باكرا بهذه الأفكار كتب الغزالي أقدم وأحد أشهر ثلاثة كتب ظهرت بالعربية عن فلسفة النظام الاقتصادي الإسلامي؛ أما كتاب الغزالي فهو **الإسلام والمناهج الاشتراكية**، وأما الكتابان الآخران فهما **العدالة الاجتماعية في الإسلام** لسيد قطب، و **اشتراكية الإسلام** لمصطفى السباعي. وقد جاءت الكتب الثلاثة إبان صعود المد الفكري الاشتراكي في العالم العربي في الأربعينيات وما بعدها، وتميزت ثلاثتها بالأصالة الفكرية والإضافة إلى الفكر الإسلامي، وذلك على الرغم من أن مصطلح "الاشتراكية" ظهر في عنوانيْ كتابين منها، بينما آثر سيد قطب نَحْتَ مصطلح "العدالة الاجتماعية" الذي شاع استخدامه بعد ذلك.

---

[28] المصدر السابق، ص٤٤.
[29] المصدر السابق، ص٤٤.
[30] المصدر السابق، ص٣٦.

وقد يبدو الآن أن تلك الكتب ما كانت سوى كتب رحلة، لأن زمان الاشتراكية قد ولّى بعد انهيار نظريتها ودوال أنظمتها. وهذه نظرة قاصرة بالطبع، لأن الفكر الاشتراكي فكر أصيل عتيق، أسس معالمه **أفلاطون**، وما تزال الكتابات تتنوع وتتالى فيه، والحاجة إليه تتجدد وتشتد، ولا يضير أن تسقط بعض الصور المتطرفة لذلك الفكر. فطالما ظل هناك استغلال وظلم في هذه الدنيا (والظلم من شيم النفوس، كما تقرر عند الحكماء)، فإن الحاجة إلى العدل والمساواة تظل إحدى الحاجات الملحة للإنسانية.

ولأن دراسة السياسة بلا اقتصاد هي من قبيل دراسة اللغة بلا نحو، فقد تحتم على **الغزالي** ولوج الميدان الاقتصادي لإعطاء آراء أصيلة حول تقسيم الثروة في المجتمع. وقد كان الرأي الشائع حينها أن الإسلام يقرُّ التفاوت الهائل في توزيع الثروات، ويحابي الأغنياء، ويسكّن ضغائن الفقراء المغبونين. هذا الرأي التبسيطي تناوله **الغزالي** بالنقض في كتابه **الإسلام والمناهج الاشتراكية**، ثم قارن ما بين حلول الإسلام للمشكل الاقتصادي، وحلول المدارس الاشتراكية على اختلاف منازعها. ومع أن آراء **الغزالي** الاقتصادية قد تشعبت لتشمل قضايا المساواة والحرية والكرامة الإنسانية، إلا أننا سنقصر هذا العرض على ما يهم الناس عادة عند التطرق لقضايا الاقتصاد وتنظيم الحياة الاقتصادية، وفي هذا المقام فإن أهم ما يهم هو:

١ ـ حق العمل: الذي يكتسب في ظل النظام الإسلامي أهمية خاصة، إذ إنه الحق الذي تترتب عليه حقوق الملكية، وهو كذلك هدف مقصود من غايات الخلق[٣١]، وتكليف من تكاليف الرسالة. ولحكمة عليا جعل الإنسان يكدح لابتغاء الرزق: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨). ويقرر الإسلام لكل أفراد المجتمع حق اختيار نوع العمل الذي يوافق مواهبهم، ونوع التدريب الذي من حقهم أن يحصلوا عليه، بيد أن العمل قد قيد بأطر تشريعية تمنع الغش فيه والسرقة والاحتكار والاستغلال وسائر أنواع الكسب الحرام.

٢ ـ حق الأجر: ويقرر **الغزالي** أن العمل سلعة مثله مثل أية سلعة أخرى. والسلع جميعاً تترك في ميدان السوق لقانون العرض والطلب، وقلّما تتدخل الدولة لتحديدها: "ونحن نرى أن للموظفين والعمال أصحاب خبرة ودراية ومهارة، وأن الخدمات التي يؤدونها للمجتمع لا تعدو أن تكون هي الأخرى سلعًا يرتفق الناس بها، ولا يستغنون عنها. فهل تترك هذه المواهب والمنافع المقرونة بها، في مهب الريح ترتفع وتنخفض دون ضابط عدل؟ لا !! إن الجهد البشري

---

[٣١] محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٣)، ص٢٠٦.

الذي يبذله موظف أو عامل في إنجاز أمر من الأمور، أو إتقان سلعة من السلع، له عوض مالي يمكن جعله ثمنا مقبولاً له، فإذا تدخلت ظروف مصطنعة لبخس هذا الثمن أو للمغالاة فيه، فإن العدالة التي قررتها الشريعة فمنعت المتبايعين في الأسواق عن التغرير والخداع والاحتكار، تنتقل هنا لتمنع كذلك الغلو والحيف، أو الجشع والانكسار. والواقع أن الخدمات العلمية والفنية واليدوية يجب أن تلقى مقابلا مجزئا، لا يشعر معه الموظف أو العامل أن جهده أُهْدِر، وأن مواهبه بيعت بثمن بخس".[٣٢] فالدولة الإسلامية ملزمة ـ إذن ـ بحماية العمال ضد تغول الرأسماليين الذين أثبت لهم التاريخ طبيعة الجشع والاستغلال.

٣ ـ حق الملكية: والملكية تثبت عادة اكتسابًا عن العمل، ولكن الإسلام لا يمنع وسائل التملك الأخرى كالميراث والهبة، ولكن يبقى العمل هو وسيلة التملك الأساسية، ومن هنا تنتفي وسائل السخرة والاستغلال والاحتكار والربا ... إلخ. وقد احترم الإسلام حق الملكية ووضع الضوابط الكثيرة لحمايته وتعزيزه، "إلا أنه أثقل هذا المبدأ بالواجبات الاجتماعية النبيلة حتى يكون المال في يد صاحبه مصدر خير له وللناس"،[٣٣] ففيه حق للفقراء المحرومين من الزكاة، وفيه حقوق أخرى للمجتمع غير الزكاة، وهو مجرد استخلاف على المال، المحتاج إليه أحق من الثاوي عليه في بعض الأحيان، كما عبر سيدنا عمر بن الخطاب عند استنكاره لسلوك بعض الناس عند حرمانهم ابن السبيل من الماء، فقال: "إن ابن السبيل أحق بالماء من الثاوي عليه".

والضمان الاجتماعي مبدأ قديم قدم الدولة الإسلامية، قرره رسول الله ﷺ عندما كفل الفقراء والمعدمين، وقرر لهم حق "العطاء" الثابت في بيت المال، بما يكفي حاجاتهم، ويدفع عوزهم. وإذا كانت الدول جميعًا، بما فيها أشدها تطرفا وغلوًا في الرأسمالية، قد رأت أهمية ضمان حياة فقرائها، واندفعت لتنشئ برامج للمعونة والبرامج الاجتماعية التي تضمن تحسين مستوى حياتهم، فإن هذا المبدأ قد تقرر من قديم الزمان في الإسلام، وما كان سوى اشتقاقٍ طبيعي من مبدأ العدل الإسلامي العام؛ وما كان الإسلام ليحتاج إلى أن يكتشف، اكتشافًا متأخرًا، أن مبدأ فائض القيمة بما يؤدي إليه من إفقار متزايد للفقراء، وتوسيع لهوة التباين الطبقي في المجتمع، يمكن أن يولد شرارات الثورة والاحتراب الاجتماعي؛ فقد كفى الإسلام للمسلمين شر بلايا تلك التجربة الوبيلة، وبالتالي عصم مجتمعاتهم من أن تنشأ فيها صور الإقطاع والظلم الطبقي الفادح كما اعترف بذلك بعض المنظرين الماركسيين.

---

[٣٢] محمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (القاهرة: دار الدعوة)، ص١٨٥-١٨٦

[٣٣] المصدر السابق، ص١٩٢

وبما أن الدولة الإسلامية مكلفة بإرساء قواعد للمساواة والعدل، فإنه لا ينتظر منها أن تقف تلقائيًا في صف أصحاب الملكيات وأرباب العمل، كما تفعل الدولة الليبرالية، وإنما عليها أن تصغي إلى العمال والمستخدمين وتمكنهم من الضغط على مستخدميهم لاستيفاء حقوقهم وامتيازاتهم. وهنا لا يمانع الغزالي أن تنشأ نقابات مهنية قوية، في المجتمع المسلم، تكون بمنزلة جماعاتِ مصالح ومراكزِ ضغطٍ، تعمل في سبيل انتزاع حقوق منسوبيها.[٣٤] وإن كان الغزالي لم يفصل كثيرًا في موضوع النقابات ـ وهو تفصيل ليس مطلوبًا منه بالطبع ـ فإنه يمكن القول إن فكرة إعطاء النقابات حظاً من القوة التي تستطيع بها التأثير في عملية اتخاذ القرار، إنما هو فرع من عملية الشورى في المجتمع المسلم، وهي العملية التي تتوخى توزيع القوة توزيعًا عادلاً في المجتمع، وبداية ذلك إنما تكون بتخفيض قوة الدولة والرأسماليين، وتزويد الطبقات المسحوقة بشيء من أدوات الضغط لتمكينها من الإسهام في صياغة القرار.

هنا وربما صلح لتطوير تلك الفكرة النظر في اقتصاديات الأقطار الصناعية التي تصوغ سياساتها النقابات (corporatism)، وهي التجربة التي ثبت نجاحها في أقطار كثيرة مثل النمسا والنرويج والسويد والدانمارك. وتنال تلك التجربة اهتمامًا متزايدًا من علماء السياسة المقارنة بحسبانها تشكل منظورًا اقتصاديًا جديدًا يسهم في ضبط إفراط النظام الليبرالي، ويعالج أمر تفريطه في مفهوم العدالة الاقتصادية. ففي ظل إدارة الاتحادات النقابية (corporatism) تتلاقى مصالح هذه الفئات جميعًا، وتتوافق في اتخاذ السياسات العامة للدولة، وخصوصًا فيما يتصل بتحديد الأسعار، وتوجيه الخدمات، وذلك بما يحقق ـ إلى أقصى مدى ممكن ـ مصالح جميع الفئات. وعادة ما تكون العلاقة هنا بين النقابات علاقة تنسيق وتوفيق بين المصالح، على العكس مما عليه الحال في المجتمعات الليبرالية حيث العلاقة هي التنافس وهيمنة الأغلبية على حظوظ الأقلية.[٣٥]

---

[٣٤] المصدر السابق، ص١٨٦.

[٣٥] لا يتسع المقام هنا للتفصيل أكثر في شأن ال "corporatism" ، ويا حبذا لو يتخصص بعض طلاب الاقتصاد الإسلامي أو العلوم السياسية في دراسة جوانب هذه التجربة الخصبة وإغناء الفكر الإسلامي بها. وذلك مع ملاحظة أن المناخ الاجتماعي الإسلامي بما فيه من خلال التساند والتكافل خليق بإنجاح التجارب التعاونية. ولعله من المناسب أيضا ملاحظة أن الأقطار الغربية التي نجحت فيها تجارب ال corporatism كانت هي الأخرى بمنجاة من عقابيل تجارب الإصلاح الديني، وما يسمى بالأخلاق البروتستانتية، وصور الليبرالية والرأسمالية المتطرفة، مما هيأ مناخًا صالحًا لنجاحها.. لمزيد من التوسع راجع:

Williamson, Peter J.: *Corporatism in Perspective* (London: Sage 1989), Zeigler, Harman: *Pluralism, Corporatism & Confucianism* (Philadelphia: Temple University Press, 1988).

إن النظر في مثل هذه التجارب أمر لا يعاب، إنما يُعاب النقل الحرفي انبهارًا بما عند الآخر وجهلاً بغنى الذات. وبعض تجارب الفكر الإنساني والمجتمعات الإنسانية يمكن أن نستصحب منها أجزاء تتلاءم مع معتقداتنا وثقافاتنا ومقررات الشرع. وعلى العموم فما سبق استعراضه هو جوهر ما أسماه **الغزالي** بالاشتراكية الإسلامية؛ وفي الحقيقة إنه لم يستنبط شيئًا عجبًا من نصوص الإسلام ولم يَقْسِرْ تلك النصوص قسرا ليتمخض عنها ما تأباه طبيعتها، وإنما يمكن أن نجد أمثلة ونظائر كثيرة لهذا الفكر مثورة في كتب الفقهاء القدامى **كابن حزم وابن القيم والماوردي** وسواهم. وقد كان جهد **الغزالي** هو أن كيَّف هذا الفقه بصورة جديدة ليتوافق مع أفهام المعاصرين، حيث أصبح العرض الفكري المقارن، وأحيانا استخدام المصطلحات السائدة، ضرورة لا مهرب منها.

وقد عُوتب **الغزالي** كثيرًا على ترخصه في استخدام مصطلح الاشتراكية، كما جرت مؤاخذة السباعي على ذلك.[٣٦] وكثيرون من القراء الإسلاميين لهم حساسية شديدة من استخدام المصطلحات الأجنبية، هذا الاستخدام الذي يستدعيه منهج العرض الفكري المقارن؛ وأحيانا يثيرون السؤال الآتي: أليس الإسلام منهجا إلهيا مستقلا بذاته يمكن عرضه كما هو باستخدام مصطلحاته الخاصة به، بعيدًا عن المقارنة بالأديان والنظم الأخرى؟ أم أنه لا بد من مقارنته بالأنظمة الأخرى، الأمر الذي قد يتطلب استخدام مصطلحات وتصورات غريبة عنه؟

وفي نظري إنه لا ضير في استخدام أي من الطريقتين، فالمهم هو عرض الإسلام عرضا عصريًّا حيًّا، يخاطب حاجات الناس، ويجيب على إشكالاتهم، فإن أمكن ذلك بالمقارنة أو بسواها فقد تحقق المقصود. و**الغزالي** كان ميالاً للأخذ بأسلوب المقارنة في كل ما كتب، وله شفيع – أي شفيع – في استخدام القرآن منهج المقارنة بين عقائد التوحيد وعقائد الشرك، وعرض المنهج الإسلامي على غيره من المناهج، والموازنة بين مصائر المؤمنين والكفار في الآخرة وغير ذلك. وفي العصر الحديث فقد كانت أقوى عروض الإسلام هي العروض التي استخدمت المنهج المقارن، وتحدثت بلغة العصر، وفي ترخص **الغزالي** في استخدام مصطلح الاشتراكية مراعاة لكل هاتيك الحيثيات.

---

[٣٦] نجا سيد قطب من مثل تلك المؤاخذة لأنه (صك) التعبير الشهير "العدالة الاجتماعية"، وذلك مع أنه أقرب إلى الترجمة الحرفية لمصطلحي socialism و communism.

أسلمة الإطار القومي

ومصطلح "القومية" قد خضع هو الأخر لتحليلٍ وتقويم رصينين من **الشيخ الغزالي**. والقومية حالة عقلية تجعل ولاء صاحبها متصلاً بالدرجة الأولى بالشعب والأرض وبالتقاليد المحلية والسلطة الزمنية التي تحمي كل ذلك.[٣٧] وبهذا الاعتبار فالمبدأ القومي مبدأ دنيوي لا يتعدى الارتباط بالأرض، وهو بالتالي-كما يقول **بريزنسكي** - "لا يتسع لتوجيه الفرد نحو اللانهاية، ولكن [يستخدم] لتنشيط الجماهير عموما في سبيل أهداف قريبة مباشرة".[٣٨]

فهل يمكن تكييف هذ المبدأ المحدود الأثر وفقا للتعاليم الدينية التي تربط ما بين السعي الدنيوي والأخروي معًا، بل تجعل من السعي الدنيوي سبيلاً إلى السعي الأخروي؟

إن هذا السؤال قد ظل مطروحًا لعقود متطاولة في الفكر العربي والإسلامي الحديث؛ وعلى الرغم من أن الفكرة القومية بمعناها المتقدم فكرة أوربية في الصميم، إلا أنها استطاعت مع غيرها من الأفكار الغربية أن تتسرب وتتمكن في الواقع الفكري في العالم العربي، حتى أصبحت بمنزلة الند والمنافس للرابطة الإسلامية، التي جمعت العرب بعضهم مع بعض، ومع مجاميع الشعوب الإسلامية خارج الرقعة العربية. لقد بدأت هذه الفكرة تتسرب إلى الضمير العربي غداة الحرب العالمية الأولى، التي أتت على الخلافة العثمانية التي مثلت آخر رابطة فكرية وسياسية (واهية) تجمع بين المسلمين، وكان معظمُ نَقلةِ الفكر القومي "الرواد" من أبناء الأقليات النصرانية، وظلت جهودهم نخبوية الطابع، حتى جاءت اتفاقية **سايكس- بيكو** لتجذر واقع التجزئة القومية في العالم العربي، ولتعمق الشعور القومي المحلي لأبناء كل إقليم في الدولة القومية الحديثة التي نشأت فيه.

وفي هذه الغضون كانت أصوات المصلحين والمفكرين الإسلاميين تحاول أن تعالج ذلك الخَلَل الجَلَل الذي حل بالجسم الإسلامي، وهكذا تصاعد صوت **الأفغاني** لتأسيس الجامعتين الإسلامية والعربية معًا، وكان دعم **محمد عبده** الواضح للاتجاه العروبي الذي يمكن أن يعمل في إطار إسلامي أشمل، ولا يتناقض معه، وهو الاتجاه الذي برز فيما بعد في صيغة الحزب الوطني الذي أسسه **مصطفى كامل**، ثم جاء **رشيد رضا ومحبُّ الدين الخطيب**- وكلاهما من ذوي

---

[٣٧] Kohn, Hans: *Nationalism: Its Meaning and History* (New York: Nostrand Co., 1965), p.9.

[٣٨] زبغنيو بيرزنسكي: امريكا والعصر الإلكتروني، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠)، ص٨٧.

السابقة في النضال القومي - ليساويا بين النضال من أجل الأمجاد العربية والإسلامية معًا، وليعتمدا للتطور الإسلامي في رؤيتهما السياسية بشكل عام.

ولكن للمناخ الفكري كان في صالح التغريبيين الذين تولوا أزمَّة السلطة، أو استنصروا بها عقب استقلال كثير من أقطار العالم العربي. هذا وربما تأكد الانحراف الفكري في وقت سابق مستندًا إلى ثقل شخصية عبد الرحمن الكواكبي، الذي دعا إلى إقامة دولة عربية خالصة، فمهَّد الطريق بذلك لكوكبة التغريبين الخُلَّص الذين استبعدوا أي جامع بين القومية والدين من أمثال **نجيب العازوري وساطع الحصري وميشيل عفلق وقسطنطين زريق وشبلي العيسمي** وجورج حبش وغيرهم من منظري القومية الذين تألقوا في عصر الشيخ الغزالي. وهكذا فقد كان من قدر الغزالي أن يواجه ذلك التيار المستفحل، الذي استذرى - في مصر وما جاورها- بالمظلة الناصرية التي انتحلت في الستينيات فكرة القومية العربية، وتقمَّصتها بشكل حاد، وكادت تجعل منها عقيدة الدولة الرسمية. وجاء عديد من شيوخ الأزهر ومن قادة الفكر الماركسي، على بُعْدِ ما بين منطلقيْ الفريقين،[٣٩] لتقديم حيثيات القبول والدعم لما سمي بالموقف القومي والالتزام القومي، وغير ذلك من مطالب السلطة الناصرية في ذلك الحين.

أما الشيخ الغزالي فقد أنشأ فصولاً عديدة أوضح فيها رأيه مفصلاً عبر مناقشته لتلك الطروحات، كما أفرد كتابا كاملا للموضوع بعنوان **حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي**، كان في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب كلية الشريعة بالأزهر، إبان الحقبة الناصرية، حيث كُلِّف بتدريس موضوع القومية العربية. وقد كان الشيخ محمد المدني، عميد الكلية حينذاك، من الحصافة بمكان، إذ لم يشأ أن يجادل في تسمية للمقرر، طالما ائتمن على تدريسه الشيخ الغزالي الذي كان مرجوًّا عنده أن يعطي للمقرر المحتوى الإسلامي. وقد تمكن الغزالي فعلا من أن يمرِّر أفكاره الإسلامية النقدية في موضوع القومية، وأن يعطي تصوره الخاص للموضوع.

وفي هذا المنحى فقد ابتدر الغزالي مناقشته بتحليل أشد التصورات القومية تطرفا واستبعادًا للإسلام، وهي التصورات العرقية واللغوية لساطع الحصري الذي استجلب نظرية القومية

---

[٣٩] معظم كتابات الأزهريين التي حاولت التوفيق بين القومية والإسلامية حاولت تطويع الإسلام وتتبيعه للفكر القومي، حتى أن إحدى افتتاحيات مجلة **الأزهر** -وقد كان كتبها **أحمد حسن الزيات**- جعلت من عبد الناصر بطلا أعظم من النبي ﷺ، وأما الماركسيون فقد حاولوا أن يسيروا في ركاب التيار، وكان معذرتهم إلى أنفسهم أن الارتباط القومي يمكن، في بعض الحالات، ألا يتناقض مع التركيب الطبقي ولا يخل به، ذلك التركيب الذي يمثل وحدة التحليل المعتمدة في الفكر الماركسي الكلاسيكي

الألمانية القائمة على أساس العنصر واللسان، وميشيل عفلق الذي استبدل برسالة الإسلام، رسالةَ العرب الخالدة التي سئل عنها، فقال إنها "تقوم على فهمهم الصحيح لأنفسهم وإدراكهم الجريء لقضاياهم وتحررهم بقواهم الخاصة من الاحتلال الأجنبي"؛ وعبد الرحمن البزاز الذي تصدى لخطر مزج القومية بالدين، وللماركسي لطفي الخولي الذي كان عنده ما يضيفه إلى موضوع القومية وعلاقتها بالدين قائلا: "هناك اتجاه خاطئ وشائع، للأسف، يسجن الثقافة العربية في عمامة الشريعة الإسلامية. صحيح أن الإسلام قد لعب ـ ولا يزال ـ دورًا في بناء الثقافة العربية، إلا أنه ليس إلا عنصرًا واحدًا وسمة مميزة ونقطة رئيسية من نقط انطلاق الثقافة العربية إلى الأعماق العربية من ناحية، وإلى الآفاق الإنسانية من ناحية أخرى"؛[٤٠] هذا هو أقصى ما سمح به لطفي الخولي للإسلام لأن يتحرك ويؤدي رسالته ، التي ذكر الله تعالى أنها للعالمين كافة من الإنس والجن!!

وفي مواجهة هذا الفهم الذي يحجِّم الإسلام ويضعه مجردَ عنصر من عناصر العروبة، جاء الغزالي ليقول بالعكس، ولينقض الأساس العرقي والعنصري للعروبة، معتمدًا أساسها اللغوي والثقافي، بل وليؤكد أن العروبة تظل قومية مفتوحة لأن "الاستعراب ركن أصيل في دعم كيانها وإمدادها بأسباب البقاء والنماء، ونحن نعلم أن صاحب الرسالة العظمى ﷺ من العرب المستعربة، وليس من العرب العاربة، من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قومية خاصة؛ إن الإسلام جعل منها دائرة عالمية فسيحة الأرجاء، وسعت شتى الدماء والألوان، وانضوى تحت لوائها سيل موَّار من المؤمنين الذين تركوا بني جلدتهم، وآثروا هذه الجنسية الجديدة، وأسدوا إليها من الخدمات العلمية والأدبية والسياسية والعسكرية، ما يعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد وثمود، أو عدنان وقحطان".[٤١]

وبهذا المفهوم فإن العروبة تظل رديف الإسلام، تنهض بنهضته، وتذوي بذبول حضارته. وقد كانت الأندلس عربية لأنها كانت مسلمة، فلما طرد الإسلام منها لحقته العروبة!

وإذا كان الغزالي يمتدح العرب وصفاتهم، ويقدر عاليا ويثمِّن تاريخهم في حمل الإسلام ونصر رسالته، إلا أنه لا يفوته أن يقرر بحسم قاطع "أن في العالم الآن عشرات القوميات، وهذه القوميات لا تعدو أن تكون أغصانا في شجرة الإنسانية الباسقة، يغذوها جذر واحد، وتنتشر

---

[٤٠] من مقال له في جريدة الأهرام اقتطفه الشيخ الغزالي أثناء المناقشة في كتابه حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي (القاهرة: دار الروضة للنشر)، ص٨.

[٤١] حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص١١٢-١١٣.

فيها حياة مشتركة، وما يمتاز غصن على آخر إلا بما يحمله من ورق وثمر، أو ما يقدمه من ظل وجنىً ... والعرب إذا نسبوا إلى قوميتهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سواهم من الأمم، ولكن للميزة التي ترفع قدرهم هي ما انفردوا بتقديمه للحياة والأحياء من الإسلام وخيراته.. هذه الرسالة التي حملها العرب أفاءت عليهم من الأمجاد مالا يحصيه عدد".[٤٢]

فالعروبة في ذاتها ليست دينا، ولا رسالةَ لها سوى رسالة الإسلام. وفي دحض دعاوي **البزاز وعفلق** وقبيلهما من القائلين بأن للعروبة حضارتها الخاصة، وأن الإسلام ما كان سوى طور من أطوار الحضارة العربية الراقية أصلا قبل ظهور الإسلام، يتساءل **الغزالي** ساخرًا: "كيف تكون الجزيرة العربية الأم صِفراً من الحضارات القديمة ويكون النازحون عنها في العصور الخالية ابتغاء الرزق رسل حضارة؟"[٤٣]

إن هؤلاء ما خرجوا إلا ابتغاء الرزق فقط و لم يتركوا أثرًا حضاريا قط، وما كان لفاقد الشيء أن يعطيه، وإنما أعطى الأثر الحضاري الحق أولئك الذين خرجوا من جزيرة العرب يبتغون ما عند الله، وينشرون نور الإسلام ودعوته التي أرست مبادئ المساواة، وأهدرت فوارق الجنس، وميزت بين الخلق بمدى قربهم أو بعدهم عن الله.

إن تصور **الغزالي** للعروبة قد أعطاها مقومين اثنين لا غير، هما: وحدة العقيدة، ثم وحدة اللغة؛ ولا ضير بعد ذلك أن تتعدد الأعراق، أو تتباين الأقاليم. فالعروبة بهذا الاعتبار مفهوم ثقافي مرتبط من حيث الأصل بالإسلام، ومتوافق معه، ولا جناح على المسلم أن يكون قوميا بهذا المفهوم.

هذا التصور المعتدل الذي قدمه **الشيخ الغزالي**، قد تعذر توفيقه مع الرياح الهندية التي حملت فكر **المودودي** إلى **سيد قطب** الذي أخذ يؤصل، في المرحلة نفسها تقريبًا، للقطيعة التامة بين الفكر القومي والفكر الإسلامي؛ وانظر إليه وهو في سجنه العتيد يسطر في **الظلال** عباراته القوية القائلة: "لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق، العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية... و لم تكن هذه الحضارة الضخمة يومًا ما "عربية"، وإنما كانت

---

[٤٢] المصدر السابق. ص٥٨-٥٩.
[٤٣] المصدر السابق. ص٦٠

دائما "إسلامية"، و لم تكن يومًا ما "قومية" وإنما كانت دائمًا عقيدية".[٤٤] وهكذا فقد استحال في ظل هذا الفكر المفاصل أن يتم التوفيق بأي شكل من الأشكال ما بين الإسلام والفكر القومي.

وإذا شئنا أن نعقد المقارنة من طرف آخر بين آراء **الغزالي** وآراء منظر آخر في الموضوع نفسه، فإن آراء **محمد جلال كشك** تصلح للمقارنة بالتأكيد. لقد كان **جلال كشك** في الفترة ذاتها [١٩٦٤ بالتحديد] قد بدأ كتاباته الإسلامية بعد أن انخلع عن الفكر الماركسي. و لم تكن رؤيته الإسلامية قد صفت بعدُ، إذ كانت لا تزال مختلطة بكثير من الغبش الفكري من سابق تجربته، وفي خلال انتقالاته الفكرية الحادة فإنه يسجل لنا هذين للموقفين المتباينين من مفهوم القومية.

الموقف الأول يمكن وصفه بالاعتدال التام، بل ربما أمكن وصفه بأنه كان أكثر اعتدالا ودقة وعمقاً من موقف **الشيخ الغزالي** من القومية. وهو الموقف الذي رفض به **جلال كشك** كل الاتجاهات التي رمت إلى استبعاد الدين الإسلامي جوهرًا للفكرة القومية العربية، داعيا إلى القول بأن الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية يشكلان من الناحية الواقعية الثقافة التي عاش ويعيش عليها غير المسلمين من العرب [أنا نصراني دينا مسلم وطنا، بتعبير **مكرم عبيد**]. وهذا للموقف هو الذي يستجلي أدوار التاريخ، ليؤكد أن الوحدة العربية لم تتحقق إلا في إطار الحضارة الإسلامية، "فلم يحدث أن اتحدت مصر والعراق والجزائر إلا في ظل الخلافة الإسلامية: أموية كانت أو عباسية أو عثمانية.. ولكنها لم تتحد قط في ظل دولة عربية، ولا يلوح حاليًا بصيص من أمل في قيام دولة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج".[٤٥]

هذا الموقف القومي المعتدل، سرعان ما تخلّى عنه صاحبه، وتجاوزه إلى مفهوم الأخوة الإسلامية الجامعة التي تعلو على المفاهيم القومية المحدودة، التي هي اضطرار يؤدي إلى تقسيم الناس بسبب العنصر واللون، وذلك "يعني عزل قطاع من الإنسانية خلف سور ليس من صنع الإنسان، ولا يملك الإنسان أن يهدمه أو يقيمه بإرادته الحرة! إذ لا سبيل إلى تغيير لون الجلد، وتقسيم الناس بحواجز القوميات يعني فرض قدرية عليهم لا يمكن تخطيها بسبب من حادثة مولدهم عند خط الطول أو العرض المعين أو بسبب لغة أمهاتهم".[٤٦]

---

[٤٤] سيد قطب: في ظلال القرآن (القاهرة:دار الشرق، ١٩٧٨)، ص١٥٦٢.

[٤٥] محمد جلال كشك: القومية والغزو الفكري (الكويت: مكتبة الأمل، ١٩٦٧)، ص٧٢.

[٤٦] محمد جلال كشك: خواطر مسلم عن الجهاد والأناجيل والأقليات (القاهرة:دار ثابت، ١٩٨٥)، ص٢٥

هذا الموقف الأخير الذي تخلى عن مفهوم القومية لصالح الإسلام- كما تصور صاحبه - لم يكن موقفا موقتاً بالتأكيد، ولكن ربما كان الدافع إليه هو تزايد إحساس صاحبه، في أواخر سنوات حياته، بخطورة قضايا مفهوم "الإسلام الحضاري"، وضرورة حماية للقوميات الثقافية والمادية على امتداد الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، وهو الإحساس الذي دفع بجلال كشك إلى ابتدار التنظير لقضايا المواجهة الإسلامية للمسيحية التي سبق بها مقالة صمويل هنتنجتون في صراع الحضارات بأكثر من عقد من الزمان.[٤٧]

لم يكن موقف محمدجلال كشك الرافض للقومية موقفا موقّتًا، لأن التوفيق بين المبدأين الإسلامي والقومي ظل دائما في حيز الإمكان، ومن العجب فإنه كان أحد الموفّقين للموفقين في ذلك المسعى فيما مضى. أما موقف الشيخ الغزالي فيبقى هو الموقف الأمثل، لأنه هو الذي أوفى العروبة حقها، ثم استوعبها في إطار الدين. وكما لا حظ ليونارد بايندر بعد أن أجرى مقارنة بين تصور كل من الغزالي وعفلق للقومية، فإن اتجاه الغزالي "لأسلمة" القومية كان ذا أثر بعيد في الفكر السياسي العربي اللاحق، إذ إنه أدى إلى جرّ سدنة العلمانية إلى محيط الإسلام، وليس العكس. وبعبارة بايندر "فإن عملية أسلمة القومية قد أخذت تمضي قدمًا، ومن الممكن أن ننتظر يومًا فنجد أن الدولة القومية قد توافقت تمامًا مع مبادئ الإسلام؛[٤٨] وقد كان ذلك أخشى ما يخشاه بايندر من عواقب مسعى أمثال الشيخ الغزالي في تشذيب المبادئ القومية وتهذيبها لتتوافق مع الإسلام.

الإسلام والعلاقات الدولية

ومن دون استبعادٍ لأثر عوامل القوة المختلفة، فإن منظور الشيخ الغزالي للعلاقات الدولية يركز على أثر العامل الديني في دفع العلاقات الدولية وتحريكها. إنه لا يزعم أن العامل الديني هو العامل الوحيد أو الأرجح، وإنما يركز دراساته عليه بحكم تضلعه في موضوعه وتعلقه بهمّه.[٤٩]

---

[٤٧] نرجو أن تتاح لنا فرصة تقديم المقارنة بين أطروحتي كشك وهنتنجتون عن صراع الحضارات في دراسة مستقلة. وقد كنت أزمع أن يكون ذلك هو موضوع أطروحتي لنيل ما يسمى بالدكتوراه، ولكن حالت صعوبات عملية دون ذلك.

[48] Binder, Leonard: *The Ideological Revolution in the Middle East* (New York: John Wiley & Sons, 1964), p.138-139.

[٤٩] يمكن أن يضاف إلى ذلك أيضا شعور الشيخ بأن دور العامل الديني في العلاقات الدولية، قد لحقه تجاهل مقصود من قبل معظم المحللين السياسيين في العالم العربي، وذلك في عصر كانت بعض الدول العربية تناصر فيه بعض الدول غير الإسلامية، ضد دول إسلامية، كما بدا ذلك في الصراعين الهندي/ الباكستاني، واليوناني/ التركي. وتجاهل العامل الديني كان المقصود منه تسويغ مثل تلك المواقف، وأيضا منع نمو العاطفة الإسلامية الجامعة...و الغريب أن هذا التجاهل أصبح تقليدًا في مجال التحليل

وهو في الوقت ذاته يدعو إلى استبصار سنن الاجتماع والتاريخ التي تحكم علاقات الدول بعضها ببعض، لأنه من دون مثل تلك الدراسات الكثيفة المتشابكة، يصعب كثيرا تحديد أثر كل عامل على حدة في دفع علاقات الأمم بعضها ببعض.

وعلى خلاف ما يكاد ينعقد عليه الإجماع بين خبراء العلاقات الدولية من أن الدين عامل تفجير في هذا المجال، فإن الشيخ الغزالي يراجع الأصول الإسلامية والممارسات التاريخية للمسلمين، ليعطي صورة مغايرة لتصور الإسلام للعلاقات الدولية، حيث تصبح حالة السلم هي الأصل، وأما الحرب فهي وسيلة حماية لذلك السلم حين تعرضه للخطر.

وفي هذا الصدد فقد أحصى الشيخ الغزالي نحوًا من مائة وعشرين آية من القرآن الكريم، تؤكد أن الإسلام يتحرك بدعوته في لحظات السلم لا الحرب أو الغزو.. وعمَّا يسمَّى بآية السيف التي يحتجُّ بها بعض الدعاة، يذكر الغزالي أنه بحث في القرآن كله عن تلك الآية فلم يجدها.[٥٠] أما ما ورد في سورة براءة من حديث عن القتال في ثلاثة مواضع من السورة، فهو ليس قتالَ الهجوم أو القسر، وإنما هو الهجوم على من تلاعبوا بالمعاهدات ونقضوا العهود، وغدروا بالمسلمين، وأضرُّوا بهم. وهكذا فليس في هذه الآيات الثلاث ما يمكن أن يسمى بآية السيف ـ بالمعنى الذي تشيعه تلك التسمية ـ بل إن آيات براءة تأتي لتأمر المسلمين بالاستقامة لمن لا يقاتلهم: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧). فمن تقوى الله ألا تبدأ الناس بعدوان، طالما لم يبادئوك به.

وعن تقسيم العلماء للدور الحرب والعهد والإسلام، فإن الغزالي يورد ملاحظة صائبة، أملاها تأمله العميق في تاريخ علاقات المسلمين الدولية، مفادها أنه يمكن في كل الأحوال وجود دار رابعة تسمى دار الحياد. ويبدي الشيخ عجبه لعدم اهتمام فقه العلاقات الدولية الإسلامي بالتنظير لأحكام تلك الدار. وفي شرح مفهومه لدار الحياد يقول الغزالي: "إن الذي يقول لي: أنا كافر بدينك، أقول له: لي عندك طَلبان: ألاّ تمنعني من أن أنشر الإسلام، فيقول لي: ليس لي شأن بك، فأقول له: وألا تعترض غيرك إذا دخل فيه. فيقول لي: ليس لي شأن به أيضًا، وهنا

السياسي في العالم العربي تكاد تلمس آثاره في كل الصحف والمجلات السياسية، ولم يهتز ذلك التقليد إلا أخيرًا مع قوارع مأساة البلقان حيث بدا العامل الديني بشكل أوضح من أن يُخفى في مواقف الدول الأوربية من مذابح مسلمي البوسنة.

[٥٠] ندوة العلاقات الدولية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب القاهرة ٢٩ـ١٩٨٩/١١/٣٠م، ص٧. ويمكن مراجعة تفاصيل ذلك في كتاب فقه السيرة للشيخ الغزالي، وفيه تحليل لبعض الأحاديث التي يوهم ظاهرها أن الإسلام يقر الهجوم دون إنذار.

يصبح لا شأن لي به هو الآخر، ولكن أن أقول له: هات الجزية، فهذا يعني أنني خطّاف، فعلى أي أساس آخذ منه الجزية مادام هو محايد؟!"[٥١] وهكذا يمكن وجود تلك الدار الرابعة، مادام وجد هذا الصنف من المتعاملين مع الإسلام. ويؤصل الغزالي لفكرته بالآية القرآنية الشريفة: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠)، ففيها دلالة صريحة على عدم جواز التعرض لمن لم يتعرض للإسلام أو للمسلمين بسوء.

وعندما راجت فكرة "عدم الانحياز" في أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات، ناصرها الغزالي بقوة، وأضاف إليها من أفكاره قوله إن المسلمين أحوج إلى البعد عن التحالفات الاستغلالية الظالمة من بعض الدول التي كانت تتزعم حركة عدم الانحياز (مثل يوغسلافيا السابقة، والهند)، لأن تلك الدول لا تخشى على خصائصها الثقافية كثيرًا من تأثيرات الغزو الفكري الأجنبي كما يخشى المسلمون، وكذلك لأن تلك الدول أقوى عسكريًا في مواجهة المعسكرين الروسي والأمريكي من المسلمين.[٥٢]

وفي محاولةٍ لإعطاء فكرة الحياد بعدها الإسلامي، فإنه لم يرتض أن يكون الحياد سلبيا فقط، ودعا بالمقابل إلى الارتكاز إلى الخصائص الروحية، وتنمية الموارد المادية الذاتية للأمة بما يغني عن الحاجة إلى الآخرين، ويعصم عن الوقوع تحت ضغوطهم واختراقهم لعمليات التنمية الذاتية لبلاد العالم الإسلامي.. وهكذا فمن "العبث تصور حيادٍ إيجابي ينهل عن الإسلام أو يستهين بربط الأمة به، ودفع شؤونها إليه".[٥٣] فالحياد السلبي جمود أو فراغ لا تسمح به طبيعة الحياة الدولية التي هي في غالب أحوالها إما مُدافعة أو عراك، أو تأهب للعراك.

وأما في مجال القانون الدولي فقد كانت مهمة الشيخ هي أن يسهم في تقديم الصياغة الحديثة لفقه الإسلام في ذلك الشأن. وفي كتابه **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان**

---

[٥١] المصدر السابق، ص٨٦.

[٥٢] راجع نص تحليله لحركة عدم الانحياز ومدى ملاءمتها لأوضاع العالم الإسلامي في فصل "الحياد... كما نفهمه" من كتابه **الاستعمار أحقاد وأطماع** (القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٣هـ)، وراجع كذلك أطروحة كتابه **الإسلام في وجه الزحف الأحمر** الذي طغى على مصر في ذات أيام الدعوة إلى عدم الانحياز.

[٥٣] قد يلاحظ طلاب العلاقات الدولية أن هذه الفكرة قريبة من طرح مدرسة رفض التبعية (Dependency Theory) التي نظّر لها بعض كتاب أمريكا اللاتينية، وبعض أقطاب مدرسة اليسار الجديد. ولكن ما يعاب على نظرية رفض التبعية أنها ركزت اهتمامها على العامل الاقتصادي، ومحاولة تحليل أثر الشروط الدولية على مسارات التنمية الداخلية في البلدان المتخلفة. أما تحليل الشيخ الغزالي فقد أولى العناية الكبرى للجانب الثقافي والعقائدي في الموضوع، وهو الجانب الذي أهملته مدرسة رفض التبعية. وفي هذا السياق يمكن عقد مقارنة إيجابية بين أفكار الشيخ الغزالي وأفكار الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي حول الفكرة الأفروآسيوية ومؤتمر باندونج.

الأمم المتحدة، صياغة أولية جيدة لتعاليم الإسلام في ضمان حقوق الإنسان، مضاهاة بأحد مصادر القانون الدولي الحديث، وهو **الإعلان العالمي لحقوق الإنسان** الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٤٨م. ويمكن ملاحظة أن كتاب **الغزالي** آنف الذكر لم يقدم الصياغة النهائية، وإنما قدَّم للمادة الفقهية الزاخرة، التي يمكن أن تعتبر المرجع الأوفى، والحيثيات التي يمكن أن تستند إليها الصياغة الإسلامية المطلوبة[٥٤] في هذا المجال.

ومضاهاة الوثائق السياسية الدولية بمعطيات الشريعة وإنجازات الفقه الإسلامي، ليست أمرًا بدعًا، وإنما خطوة إيجابية حافزة سواءً على صعيد تطوير صياغة الأدبيات الإسلامية، أو على صعيد اجتذاب مزيد من المناصرين لها، من الذين لا يمكن مخاطبتهم إلا عن طريق تلك الصياغات المتطورة. وكثير من دارسي العلاقات الدولية وباحثيها لا يتيسر لهم الاطلاع على مطولات **الشيباني والسرخسي وأبي يوسف** وغيرهم من كتاب السِّيَر والخراج، ولذلك تأتي أعمال أمثال **الشيخ الغزالي والعلامة محمد حميد الله** خطوة لازمة تيسر تلك المراجع العسيرة على طلاب اليوم، وتهيئ لهم أمر الولوج إلى مناجمها واجتناء كنوزها.

والاطلاع على كتابيْ **حقوق الإنسان** و **التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام** للغزالي، ربما كان كافياً لإقناع طلاب العلاقات الدولية بتقدم الإسلام على الفكر البشري بقرون في شأن تقرير حقوق الإنسان الأساسية وضمانها. ومعظم ما يعزى تحقيقه إلى الثورات الانجليزية والأمريكية والفرنسية يجده المرء مسطرًا في الشريعة الإسلامية وتراث الفقه، مثل حقوق الحرية، والسلامة من التمييز العنصري، والمساواة أمام القانون، والضمانات القضائية، وحق المشاركة السياسية، وحق تكوين الأسرة وحق التعليم وغير ذلك من الحقوق. ولقد يدهش دارسو العلاقات الدولية، إذ يكتشفون أن تلك الحقوق قد نالها المسلمون دونما حاجة إلى ثورات ونضالات عارمة تريق الدماء، وتهزّ الأوضاع الاجتماعية والسياسية هزًّا عنيفًا، وإنما نالوها ضربة لازب بنزول التنزيل الحكيم. ولقد يدهشون أكثر إذ يكتشفون أن حقوق الإنسان في الإسلام ليست هي حقوق الإنسان المسلم وحده،[٥٥] وإنما هي حقوق الإنسان، أي إنسان؛ ولذلك فقد

---

[٥٤] أجاز المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في لندن في أبريل ١٩٨٠ صياغة "البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام" وكانت مبادرة رائدة، وفرت وثيقة ممتازة، تعد إضافة نوعية لأدبيات الفكر الإسلامي الحديث. ولعل تلك الوثيقة قد استقت كثيراً من مادتها من كتاب الشيخ الغزالي، ومن بحث الإمام المودودي "نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية"، المنشور بدورية المسلم المعاصر، شوال ١٣٩٤هـ/نوفمبر ١٩٧٤م.

[٥٥] لا يخفى أن حقوق الإنسان المستنبطة من الماجنا كارتا (Magna Carta) والثورة الفرنسية والثورة الأمريكية كانت هي حقوق الإنسان الغربي الأبيض فقط، ولذلك فلا عجب أن انتهكت حقوق غيرهم عيانا بيانا بالتحركات الأمريكية البريطانية

تطوعت الحضارة الإسلامية بحماية أتباع الديانات الأخرى كأقباط مصر، وماروني لبنان، ويهود العالم، من الانقراض. وفي ذلك يقول الشيخ الغزالي: "وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن، فإن مردّ ذلك إلى قيام الدولة الإسلامية في العصور الوسطى، ولو بقي النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاءً مبرمًا".[٥٦] وهكذا فوجود الدولة الإسلامية بفهمها الأريحي لحرية التدين، هو الذي حمى اليهود بالأندلس وغيرها من الانقراض، كما حمى الأقباط والمارونيين من أن يذوبوا في خضم الطغيان الروماني والبيزنطي.

فوجود العامل الإسلامي في العلاقات الدولية، هو وجود موجِّه لحماية الإنسان بصرف النظر عن أصله أو انتمائه، وضمانة لبسط العدل المطلق عن أي اعتبار من اعتبارات القوة، أو الانتماءات الدينية أو العنصرية، ولتحقيق السلم الذي هو حالة الأصل في تصور الإسلام للعلاقات الدولية، ولذلك فلا غرو أن كان تركيز الغزالي واضحًا على ضرورة جلب هذا العامل الإيجابي الأثر إلى حقل العلاقات الدولية.

الغزالي والثقافة السياسية للأمة

إن مصطلح "الثقافة السياسية" أحد المصطلحات حديثة الاستخدام في علم السياسة، وهو مصطلح تفسيري يوضح جانبًا من أسباب نشأة أي نظام سياسي ونجاحه أو فشله، فهو يوضح مثلا: لماذا نشأ النظام البرلماني في بريطانيا؟ ولماذا نشأ النظام الرئاسي الأمريكي مختلفًا عنه؟ ويحاول أن يستنتج أسباب ذلك من الطبيعة النفسية للشعبين، ومن الثقافة السياسية السائدة في ذينك المجتمعين، باعتبار أن هذين النظامين ما كان لهما أن يتوطدا ويستقرا ويجتازا الاختبارات والهزات والشدائد ما لم تكن لهما أسس قائمة من ثقافة الناس السياسية،[٥٧] وكما جاء في الأثر الشريف: "كما تكونوا يولَّ عليكم".

والفرنسية والأمريكية في الشرق، ولم يثر سؤال حينها حدي في فقه العلاقات الدولية عن تناقض تلك الممارسات مع إعلانات ومواثيق حقوق الإنسان.

[٥٦] محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (القاهرة: دار الكتب الحديثة)، ص٢١٠.

[٥٧] تعرف الثقافة السياسية بأنها ذلك النسق من الإدراكات والمشاعر والمواقف والتوقعات، الذي يحمله المواطنون تجاه حكوماتهم، وكذلك طريقتهم في تقويم أعمال الحكومة وتقويم مشاركتهم في صنع القرار السياسي. لمزيد من التفصيل حول هذا المفهوم، راجع:

Almond, Gabriel A. and Verba, Sidney: *The Civic Culture Revisisted* (California: Sage Newbury, 1989), p. 26-32.

والنظم السياسية على اختلافها لا تؤدي وظائفها مقتصرة على استخدام آليات صنع القرار السياسي من برلمانات، وجماعات ضغط، وأجهزة إدارية مقتدرة، وإنما أيضًا بالاستظلال بأجواء واعتقادات ثقافية مواتية؛ فكلما يسرت تلك الثقافة عملية الحوار والتساوم، أدى ذلك إلى صنع القرار الذي يُرضي الشريحة العظمى من الشعب ويحقق مصالحها، الأمر الذي يعد دلالة على كفاءة النظام ونجاحه في التوفيق بين مصالح مواطنيه.

ولا نريد أن نمضي في تعريف مصطلح الثقافة السياسية أو تبيان أهميته لأكثر من ذلك، إنما يعنينا هنا لفتُ الانتباه إلى الشيء الأساسي في الموضوع، وهو أن النظام السياسي (political structure) لابد أن يكون متوائمًا بشكل دائم أو قائمًا على أسس متين من الثقافة السياسية (political culture). وفي هذا الإطار فقد كان **الشيخ الغزالي** حريصًا على تصفية أجوائنا الفكرية والثقافية من موروثات ثقافة عصور الانحطاط التي قامت على التعايش مع الاستبداد، والتجافي عن التعاطي مع الشأن السياسي. وهذا داء عضال كانت له أسبابه القديمة من إدبار الحكام عن الشريعة، وكراهيتهم أو عدم رضاهم عن الحديث عن السياسة في دوائر العلم الشرعي، أو في دائرة العلماء المحظيين، ثم أصبح ذلك بمُضيِّ الزمان علة متأصلة في الثقافة الدينية، وأصبحت الكثرة الغالبة من العاملين في ميدان الفقه بمنأى عن الشأن السياسي، ومنهم من تجده يعلن ذلك بالصراحة القاطعة، ومنهم من يستنكر أصلا أن تكون هناك علاقة من أي نوع ما بين السياسة والفقه أو الدين بشكل عام. بل إن منهم من ينعى على من يفهم الإسلام فهمًا شاملاً، بأن فهمه للإسلام فهم سياسي، هذا إذا لم يتهم السرائر بسوء الغرض ونية استغلال الدين لمآرب أخرى. وفي سياق تجاهل بعض العلماء لشأن السياسة يحكي لنا **الشيخ الغزالي** الطرفة ذات الدلالة التالية:

"أرسل أحد الظرفاء سؤالاً إلى لجنة الفتوى ظانًا أنه يستطيع أن يستدرجها بذلك للحديث في شأن السياسة من المنظور الديني ... وقد غلّف سؤاله بغلاف اجتماعي يتعلق بقضايا الزواج والطلاق التي تركها الزمنيون لرجال الفقه، وكان السؤال كالآتي:

رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التي جرت في البلاد كانت مزورة، فهل تطلق امرأته أم لا؟.

وعلق **الشيخ الغزالي** قائلاً: "إن لجنة الفتوى كانت من اليقظة والانتباه بحيث لم تقع في ذلك الشرك، ولن تقع فيه ولو بقيت تلك المرأة معلقة أبد الدهر!"[٥٨]

---

[٥٨] الإسلام والاستبداد السياسي، ص٩.

فهؤلاء هم العلماء الذين كان ينبغي أن يكونوا طلائع أهل الحل والعقد، الذين يزودون صناع القرار بالنصح السديد، ويقفون معترضين على كل تجاوزات الحكام للشريعة ومصالح جماهير الأمة الإسلامية؛ لقد أصبحوا من السلبية بمكان، وأسهموا في شكل الثقافة السياسية التي مكنت الحكام من الانفراد بشؤون الحكم. وعلى هذا يعلق الغزالي قائلاً:

"وثَمَّ أمر جدير بالإبراز والإثارة! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو في جو الثقافة الفاسدة، وهي إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها".[٥٩]

ولا سبيل لتفعيل تلك الثقافة إلا بإحكام ربط الدين مجددًا بقضايا السياسية، وإشغال علماء الإسلام من ثم بالشأن السياسي، باعتباره جزءًا أصيلا من مهام الشريعة والفقه.

وعلى نطاق جبهة العمل الإسلامي ثمة معوّق آخر يسهم في تشويه الثقافة السياسية للأمة، وكان يثير حفيظة الشيخ وغضبه، فيشن عليه النكير في مختلف كتاباته: إنه داء النظرة التجزيئية وعدم قدرة بعض الناس على ترتيب الأولويات والمهام؛ إن الفرعيات المستصغرة من القضايا الأخلاقية تصبح هنا أهم من القضايا السياسية للصيرية الكبرى كافة، والخلاف حول هذه القضايا الهامشية قمين بأن يضرم من نيران الخلاف ما يُعشي الأبصار عن رؤية أعظم الأخطار الداهمة من قبل الأفق السياسي، وهاك مثالاً لذلك:

"سمعت جدالاً بين أناس يتحدثون عن حكم لمس المرأة، ولمس إحدى السوأتين، والأقوال المتضاربة في هذه القضية.

فقلت لهم: هذه أحكام تُقرر في خفوت، ويذكر الخلاف فيها بكثير من التجاوز! وأمرها لا يستحق هذا الحماس ولا ذاك العناد، فنظروا إلي مستنكرين، فقلت لكبيرهم: أتعرف شيئاً عن السوأة الكبرى في الإسلام؟

وجاء الرد بسرعة: أي سوأة؟ قلت: ضياع الإسلام في الأندلس وذهاب ريحه وانتهاء دولته ومحو حضارته! هل درستم أسباب ذلك وأخذتم الحيطة حتى لا تتكرر المأساة؟"[٦٠]

هذه الأخطاء والكوارث الكبرى لا تلفت نظر كثير من أصحاب الثقافة الدينية أولي النظر الأخلاقي المحدود، الذين صوروا الدين وكأن رسالته العظمى محصورة في قضايا المرأة والغيرة عليها، ومن ثم فهم مفتونون بتوليد قضايا الجدل المتتالية من تلك الشاكلة، غافلين عن دروس السياسة وعظاتها في الماضي، والآني، والآتي. وفي كثير من كتاباته لا يني الغزالي يبدئ ويعيد

---

[٥٩] محمد الغزالي: الطريق من هنا (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢)، ص٨٥.

[٦٠] محمد الغزالي: أزمة الشورى، ص٨٢.

مؤكدًا ضرورة دراسة ملف الأندلس الدامي، واستخراج الدروس الكافية منه؛ والحقيقة لو أننا فعلنا ذلك لأوقفنا مسلسل سقوط أطراف الوطن الإسلامي، وهومسلسل لم تنقطع حلقاته منذ سقوط الأندلس.

وقرين بمسالك هؤلاء، تعاطي المترمتين في الشأن السياسي، وهم من جمهرة المتدينين المتشددين الذين لا يفهمون السياسة ـ التي هي أساسًا فن للممكن، والقدرة على المناورة والمساومة ـ إلا على أنها فن للمفاصلة وحرق للمراحل بالجهاد والثورة. وهؤلاء كانت نتائج دخولهم معتركات العمل السياسي ويلاتٍ وكوارث متلاحقة، ابتلي بها العمل الإسلامي برمته.. ولقد كان للغزالي صولات وجولات في مناهضة مثل هذا التفكير .. هذا وربما ظن بعضهم أن الغزالي كان مغاليًا في تقديره لخطر هؤلاء الأغرار، وأن معاركه معهم لم تكن متكافئة، بسبب التفاوت الهائل بين ثقله العلمي، وبضاعة أولئك المزجاة من العلم، ولكن تقدير الشيخ كان مصيبًا لأن قلة وعي من كان يحاورهم كان تسبب تلك الكوارث، وكان يريد أن يصفي أثرهم من ميدان الدعوة، ومن مناخ الثقافة السياسية للمجتمع الإسلامي.

وبالمقابل فإن الشيخ الغزالي كان متجهًا، في سائر كتاباته وخطاباته، باتجاه إعطاء محتوى إيجابي لثقافة المسلمين السياسية. ولذلك فإنه لم يكن ليملَّ السعي في تبصير الأمة بشؤونها العامة، وبحقوقها، وواجباتها، والعمل على تنشئة الشباب المسلم على الحسِّ السياسي، والانفعال مع مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في العمل السياسي بأفق مستقبلي واسع، وعقلانية خصبة، وتربص وتريث في انتظار الجولات والنتائج. فمثلما أن للسلطة أثرها ووظيفتها في تحقيق قيم الإسلام، فللجماهير أيضًا مثل ذلك. وفي ذلك يقول الغزالي: "لست أنكر قيمة السلطة في اختصار المسافة، وإقرار المعروف ومحو المنكر، وإني أعلم أن الدولة جزء من الدين، وأن أجهزتها الفعالة جزء من شُعب الإيمان السبعين .. وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يماري فيها إلا جاهل أو جاحد..! وهذا كله لا يلغي ولا يوهن عمل الأمة نفسها في تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة، وفي إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية، وفي فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم، وإبطال شرعيتها إن هي نسيت وظيفتها أو جاوزت حدودها. إن الدولة في الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة، وهي يدها التي تحقق بها ما تبغي، وقدمها التي تسعى بها إلى ما تريد".[٦١] وتعبير أن الدولة هي الصورة الظاهرة لباطن الأمة من أدق التعبيرات في تحديد أهمية شأن الثقافة السياسية ومركزيتها ووظيفتها في صياغة شكل الدولة ونظامها السياسي، وفي ذلك عظة بالغة للدعاة بعث دولة الإسلام، للاهتمام ببذل مزيد

[٦١] الطريق من هنا، ص١٢٨

من الجهود لتطوير الثقافة السياسية الذاتية للأمة، وذلك بإنتاج فريدٍ من الدراسات المختصة بتحليل ذلك الشأن، وغرس خلق الشورى ممارسة في كل شؤون الحياة، وتدريب النشء على المسؤولية، والإقدام على المشاركة في اتخاذ القرارات، والجرأة على محاسبة الحكام، فذلك هو أساس التحول نحو قيم الإسلام ونظمه في محيط السياسة.

خاتمة

وفي الختام يمكن القول أنَّ الفكر السياسي **للشيخ محمد الغزالي** قد كان الامتداد الطبيعي للأفكار النهضوية لمدرسة المنار: تطويرًا للطروحات السياسية الإسلامية الحديثة، ومدافعة لما خالفها من واردات الفكر السياسي الغربي. وقد اتسمت أفكار **الشيخ الغزالي** السياسية، في مجملها، بالواقعية، والاعتدال؛ وذلك مع الالتزام بالأصول الإسلامية، ومُمَاسَّةٍ للمستجدات والابتلاءات التي ترامت على العالم الإسلام في هذا الزمان.

ويمكن القول أيضًا أنَّ أفكار **الغزالي** السياسية كانت من أقوى الأسلحة التي كسحت جناح التغريب، إذ إن كتاباته السياسية، وإن جاءت دائما في معرض دفاع حار عن الإسلام، إلا أنها لم تكن مجرد هتاف أجوف، وإنما اشتملت على مادة علمية أولية اتخذت بديلا لطروحات التغريب. وكما يقول **منير شفيق** في كتابه **الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر** الصادر في أوائل الثمانينيات، فقد "كان من الممكن للفكر المتغرب قبل ثلاثين، أو عشرين سنة، أو عشر سنوات، أن ينظم القصائد الطوال في مدح علمه الاقتصادي وبرامجه الاصلاحية"،[٦٢] ولكن بعد فشل تلك التجارب ونهوض البديل فقد كسدت تلك الأدعاءات.

وكتابات **الغزالي** السياسية، قد تأسست عليها، وتفرعت عنها، كتابات سياسية إسلامية، هي أكثر تخصصًا، فهي بالتالي يمكن اعتبارها ـ من منظور تاريخي للفكر الإسلامي الحديث ـ بمثابة حلقة تطور وانتقال مهم، أفضى إلى النهضة المائلة للفكر السياسي الإسلامي وإذا أمكن اعتبار كتب الشيخ **أبي زهرة** الفقهية، مدخلاً جيدًا للولوج إلى عالم الفقه الإسلامي، ولاستيعاب دواوينه الموسوعية الشاملة، فإنه يمكن القول كذلك إن كتب **محمد الغزالي** السياسية هي المدخل المناسب لولوج عالم النظم الإسلامية، مثلما أنها حلقة انتقال وسيطة نحو التنظير السياسي الإسلامي المنشود.

---

[٦٢] منير شفيق: **الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر**، لندن: دار طه للنشر. لندن. ١٩٨٣. ص١١٢ ومنير شفيق نفسه تجربة مثيرة من تجارب الخلاص الفكري، وكم نتمنى أن يتفرغ لكتابة سيرته الذاتية. ويسجل مراحل تطوره الفكري. حتى تظفر المكتبة العربية بمنقذ آخر من الضلال.

الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد

الشيخ محمد الغزالي

لعل الفتوح الإسلامية كانت أسرع الفتوح في تاريخ العالم وأبعدها أثرًا؛ ففي خلال عشرين سنة بعد وفاة صاحب الرسالة الخاتمة كانت أركان الدول الكبرى تنهار، وكان الاستعمار العالمي يتقلص كما تتقلص الظلمات أمام مطالع النهار... فقد الرومان أملاكهم في إفريقية وأسيا، وتحررت شعوب احتبست قرونا داخل مصيلة محكمة من البطش.

نعم تحرر في الشمال الإفريقي ما يسمى الآن مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وتحرر من آسيا فلسطين وسوريا والأناضول، وحاول الفاتحون تحرير القسطنطينية فعجزوا، ولكنهم حرروا جزر البحر المتوسط تقريبًا.

وكان جناحهم الشرقي في آسيا قد محا دولة الأكاسرة ووصل شمالا إلى جنوب روسيا وأوغل في الشرق حتى أخذ أقطارًا من الهند والصين.

إن الدولة الإسلامية الأولى تكونت في زمن خارق للعادات في قصره، وأقامت حضارة لا تزيدها الأيام إلا قدرة على البقاء ومقاومة الأحداث.

ويرجع ذلك فيما أرى إلى أمرين:

الأول: حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام، واقتناعه بها ورضاه عنها عندما بلغته، حتى أن أبناء البلاد المفتوحة سابقوا العرب إلى فقه الإسلام ونشره، وصاروا أئمة للأمصار الكبرى تثق الجماهير بهم وتصدر عنهم.

الثاني: أن أصحاب محمد ﷺ قدموا الرسالة للناس علمًا ذكيا وثقافة أصيلة.

والإسلام من ينبوعه الأول علم ينير العقول ويمحو الأهواء، لذلك قال الله لنبيه: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

ويكرر هذا المعنى فيقول في سورة أخرى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِن اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ (الرعد:٣٧).

إن الإسلام علم واسع الدوائر، وقرآنه الكريم كون مسطور يضارع الكون المنظور في تفتيق العقول وتجلية الفطرة.

ولولا ما في آيات القرآن من هدى ونور ما قامت أزهى حضارة في التاريخ! إنني أرمق الأوج الذي ينقل القرآنُ الناسَ إليه في كل مجال فأردد قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ [تاركي خلالهم القديمة] حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: ١-٢).

ثم أشعر بالأسى للأمية الثقافية التي لفت جماهيرنا في أكفانها وجعلتهم في هذا العصر آخر الأمم، وأنزلها رتبة.

نعم، هناك أشرطة حية تحفظ القرآن حرفا حرفا ولا تعي منه ما يرفع رأساً.

وهناك عشرات الدول تنتمي إلى الإسلام تذكرنا بتغلب وحِمْير وطسْم وجديس.

ماذا حدث؟ إن الإسلام الذي سُمِّي في وحي الله علما أمسى أهله أسوأ الأميين في العالم..!!

تذكرت الأيام الأولى من عمري عندما كنت أحفظ القرآن الكريم ـ من سبعين سنة مضت.

كنا نتعلم الحساب في كتاب تضمن القواعد الأربع مترجم عن الإنجليزية ألفه مستر تويدي!

قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة نأخذها عن خواجة؟!

إن آباءنا وضعوا طائفة من النظريات الهندسية، وبرعوا في حساب المثلثات والمربعات فما الذي عرانا؟

إن هذا القرآن يبني الإيمان بالله على التأمل في الكون ويقول: ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآَيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٣).

عناصر الكون ومظاهره هي مصادر الإيمان واليقين، فما يصنع مكفوف لا يرى آية؟ وما تكون معرفته لله؟

وهل للمعرفة المزعزعة تضبط شهوة أو تحكم سلوكا؟ أو تقتحم عقبة؟ أو تدفع إلى مكرمة؟

لقد بدأت بذكر المعرفة الكونية لأنها من شؤون الدنيا التي نستوي فيها مع غيرنا، والتي قيل لنا فيها أنتم أعلم بشؤون دنياكم!.

ابتدع ما شئت! واكتشف ما استطعت! لا قيد ولا حظر.

إن غيرنا سبق سبقًا بعيدًا وبرز في كل ميدان، وساند عقائده بما استطاع، فانطلق الباطل في ساحات الحياة مدرعًا بالحديد.

والتقينا به ونحن نحمل مواريث الوحي وأيدينا عزلاء وأجسادنا عارية، فلما علنا كانت هزائمنا مضاعفة لفراغ اليد والعقل والفؤاد!!

والألوف المؤلفة من مسلمي العالم يعيشون أتباعا مغموصين لأنهم يشترون أجهزتهم المدنية والعسكرية من خصوم العقيدة وكارهي الوحي!! وينتظرون من الباعة أن يعلموهم ماذا يصنعون بهذه الأجهزة وكيف يستخدمونها؟

أما ثقافتنا الإسلامية التي استبحرت في القرون الأولى فقد رأيت تأليف كتاب فيها سميته **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**؛ والكتاب على وجازته يلقي ضوءًا على موضوعه وقد يحتاج إلى زيادة! إن عندنا مدرسة الفقه والتشريع ومدرسة التربية والأخلاق ومدرسة العقائد والمتكلمين ومدرسة التفسير والحديث، وفنون الآداب من شعر ونثر. وقد تعرضت هذه المدارس للمد والجزر، والغزارة والضحالة، ووضعها الآن يثير الدهشة. فالأدب مثلا كان في الجاهلية والإسلام شيئا له وزن وقيمة. وقد ظل ينحدر حتى فقد وزنه، ثم فقد قيمته، ونحن الآن نقرأ شيئا اسمه الشعر المنثور يمثل مرحلة من القول أدنى إلى المجون منها إلى الرشد، وفي تسميته أدبًا تجوُّز كبير...!! مع طول العمر وكثيرة التجارب يتحكم العقل ونهتدي إلى الصواب؛ وإذا كان ذلك مأنوسًا في الأفراد فيجب أن يكون مألوفًا بين الجماعات والأمم.

ونحن المسلمين نحمل رسالتنا من زمن طويل، إننا الآن في القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام، ذقنا مع ديننا الحلو والمر، والهزيمة والنصر، والامتداد والانكماش، فهل تعلمنا شيئا مما أصابنا؟

وهل استفدنا من التجارب حكمة تصقل أحكامنا وتضبط خطانا؟ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وربما قلّت استفادة المنافق من الأحداث كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة:١٢٦).

ولست أتساءل الآن عن مدى اعتبارنا من سقوط الخلافة العباسية في بغداد، أو سقوط الخلافة العثمانية في الآستانة، أو ضياع الإسلام كله في الأندلس، ثم بدء الانسحاب من أقطار أوربة الأخرى!!!، مع أن هذا التساؤل مطلوب وتجاهله جريمة.

إنما أتساءل عن المدارس العلمية المختلفة في الفكر الإسلامي، ماذا حدث لها؟ وأين حطت عصا الترحال؟

ولأبدأ بمدرسة التربية والأخلاق التي اشتبكت في تاريخنا العلمي بنزعة التصوف وفلسفته.

يجب فض الاشتباك السيّئ في هذا المجال وتنشئة أجيال أزكى نفوسا من المسلمين المعاصرين لا تفصل بين الإيمان والخلق، ولا بين العبادة والخلق. إن الذي شان الخوارج قديما وحديثا ضعف أخلاقهم وهم يعاملون الناس، واستباحتهم المجنونة للدماء والأموال من أجل فكرة غلبت عليهم أو وجهة ساروا إليها.

إنهم لا يتواضعون لله ولا يهضمون أنفسهم لأمر ذي بال!.

أعجبني ابن القيم وهو يحاور كبير الصوفية في عصره فيقول متواضعًا: إذا كنت قد عرفت شيئًا لم يعرفه الشيخ الكبير فأنا كالهدهد الذي قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢)، والهدهد هو الهدهد، وسليمان هو سليمان!

ومضى الرجل في كتابه يعارض حينا ويؤيد حينًا، وكأنه الشافعي الذي قال: ما جادلت أحدًا إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه!.

أين هذا الخلق من أشخاص مسعورين، همهم الأول تحقير الخصوم والنيل منهم؟ فإذا جادلوا عن رأي لهم تقمصهم حب الانتصار وإثبات الشخصية والزهو بين الناس!.

إن محنة التربية هائلة في العالم الإسلامي سواء في الأخلاق الربانية أو الأخلاق الإنسانية.

الإخلاص لله قليل، والصدق مع الناس قليل، والمفروض أن نكون وراء نبينا نتمم مكارم الأخلاق.

لا قيمة لأشكال العبادات إذا لم يكن وراءها مهاد من تقوى القلوب. والدين قبل كل شيء زكاة في النفس، وصفاء في الروح، وميل إلى العطاء لا الأخذ، وإلى السلام لا الخصام.

ولأمر ما علّمنا نبيُّنا أن أول ثلاثة تسعر بهم النار هم المراءون بالعلم والجهاد والصدقة.

إن المرائي يرى نفسه ولا يرى ربه، إنه مشغول بجاهه ومكانته قبل كل شيء!!

وإذا عجز الدين عن كبت الغرائز السوء ومحوها، فإن تطبيقه في الحياة لن يكون إلا تنفيسًا عن هذه الغرائز ولو أخذ صورة العبادة!

وقد راقبت حركة إسلامية فشلت في بلوغ غاياتها، كانت تضم صالحين كثيرين ولكن بينهم عصابة ترى أن تحكم هي بما أنزل الله، وترفض أن يحكم غيرها!! إن حب الرياسة خالطها وهيمن على خططها وبواعثها فنشأت عن ذلك فتن هائلة...

والله وعد بالتمكين مَنْ هدفهم إقامةُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، قبل أن يكون هدفهم تولي منصب ما.. إن الأخلاق بقسميها الرباني والإنساني هي الإسلام الحق. يقول علي بن أبي طالب: "أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن، ليست قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"! والأجهزة الإدارية في العالم الإسلامي مصابة بمن يعبدون مناصبهم ويستغلونها لمصالحهم ولا يعرفون أنها أمانات يُسألون عنها يوم الحساب.

وعلم القلوب الذي يسمى الآن علم التصوف لا يدري شيئًا عن علل الأمة، بل هو تائه وسط أفكار وفلسفات سقيمة، ثم هو بين العوام رقص تهتز به الأبدان وتموت فيه العقول والأفئدة.

وأذكر أني في صباي قرأت كتابا يتتبع الأمانة في مسالك الناس - وأظن المؤلف أمريكيا - فاستغربت أنه قرّب الفضيلة من الأذهان وكان عمليا واضحا في إثبات السلوك الشريف ومحو السلوك الخائن.

قلت ما أحوجنا إلى مثل هذا التأليف في ميدان التربية، حتى يكثر الأمناء بيننا!

إن نبينا عليه الصلاة والسلام خلّف لنا ميراثا ضخما يدفع الناس دفعا في طريق الكمال، ويصحبهم في مراحل الطريق بالتوعية والتذكير حتى لا تزل قدم أو تعرض ريبة.

ما أحوجنا إلى هذا الميراث ونحن نواجه حضارة ذكية شريرة مغرورة.

أظن كتب الفقه الإسلامي تبلغ نصف المكتبة الإسلامية، فإن اشتغال المسلمين بالفقه غلب على ثقافتهم وتغلغل بين عامتهم وخاصتهم، وإن لا حظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات.

أما الفقه الإداري والاقتصادي والسياسي فإن البحوث فيه قليلة، ولعل بعضها كان مقلقًا!!

وقد كتب تلميذا أبي حنيفة ـ أبو يوسف ومحمد بن الحسن ـ في هذه الشؤون. ألّف الأول في الخراج أو الضرائب، وألف الثاني في الشؤون الدولية.

والميدان فسيح ليقول الفقه الإسلامي كلمته في نظم الحكم وقضايا المال وأطوار أخرى جدت في أنواع المعاملات.

والطريقة التي درسنا بها الفقه في صبانا الباكر ونحن في المرحلة الابتدائية بالأزهر جديرة بالتنويه.

فقد كنت حنفي المذهب كما أراد أبي، وكان زملائي بين شافعية ومالكية، أما الحنابلة فقليلون. وكنا نتبادل الخلاف الفقهي ونحن نتضاحك! يقول المالكي الشك ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه! أو يقول المفطر ناسيا يقضي يومه، وأقول لا يقضيه!

ويقول الشافعي لمس المرأة ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه! أو يقول ينبغي رفع اليدين قبل الركوع وبعده، وأقول لا يرفع إلا عند تكبيرة الإحرام! ومع هذا الاختلاف المتبادل كنا زملاء متحابين نؤلف المظاهرات ضد الاحتلال الانجليزي ونتعاون في مصالح شتى.

وما فكرنا قط أن يكون هذا الاختلاف مثار خصام أو عدوان.

ويظهر أن بعض البيئات في العالم الإسلامي درست فقه الفروع على أسلوب آخر زَرَع الجفاء والفرقة بين المسلمين..

وأذكر أني مكثت في الجزائر بضع سنين أصلي وراء أئمتها وهم مالكية دون حرج؛ وفي يوم ما جاءنا حنبلي زائرا وصلى معنا، وكان يجاورني في الصف، فرأيته مضطربا غضبان يوشك أن يعيد صلاته، وأن يأمرنا بإعادة الصلاة!.

قلت له : مابك؟

قال أرأيت هذا الإمام يكبر ثم يقول مباشرة الحمد لله رب العالمين؟ قلت له: الإمام مالك لم يثبت عنده حديث الاستفتاح، و لم يثبت عنده أن يستعيذ المصلي .. وليست البسملة جزءًا من الفاتحة، وله رأيه ولك مذهبك.

ألم تقرأ كتاب ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام؟ هنا تنوعٌ وليس اختلافَ تضادٍّ، والمرويات الواردة تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا وذاك من الأقوال فاسكت ولا تحدث بين الناس فتنة!

والواقع أني أكرهت الرجل على الصمت وأحسبه لم يصل معنا بعد ذلك اليوم...

لقائل أن يقول: ما هؤلاء الأئمة الذين ذكرت أسماءهم وربطتنا بهم؟ إننا نمضي بعيدًا عنهم وما نحب أن نعرج عليهم!

وأجيب: لك ذلك إذا شئت، وللهم أن تكون ماهرًا في القرآن، خبيرًا بالسنن، ضليعًا في اللغة، ألمعيًا في الذكاء، مستغنيًا عن تجارب الآخرين!

إن هؤلاء الأئمة سبقوا في دراسة الكتاب والسنة ولم يجئ أحد منهم بشيء من عند نفسه. وقد عُرفوا بالعلم والتقوى، وخدموا الإسلام جهدهم، ولم يجمعوا الناس حولهم بالعِصيّ أو بالعطايا.

إنهم مدارس مجتهدة، تخطئ وتصيب، وهم جميعًا مع **مالك** في قولته المشهورة: "كل أمرئ يُؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام" [يعني رسول الله ﷺ]، وأشهد أنهم قمم شوامخ في فقه الإسلام وفي التجرد لله وازدراء العاجلة.

وما رأيت أهل علم زهدوا في تراثهم، أو زُعِم لأحدهم العصمة. وعلى أي حال فقانون الاجتهاد أن من أصاب له أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد. ورأيي أن باب الاجتهاد مفتوح، ولكن يستحيل أن نأذن لكل إنسان بولوجه. لابد من رسوخ في العلم ورسوخ في التقوى: ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ (فصلت:٣٥). وميدان الفقه تعمل فيه شعبتان: أصحاب الرأي، وأصحاب الأثر. وليس معنى الرأي الهوى، وليس معنى أصحاب الأثر أن من المسلمين من يترك نصًا واردًا. وإن الطبائع العقلية للبشر مختلفة، فقد يفهم واحد من النص ما لا يفهمه غيره.

وتدبَّرْ حال الصحابة في تنفيذ قول الرسول "من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة"، وتدبَّرْ حال داود وسليمان حين اختلفا في عقوبة من ترك قطيعه يفسد الحرث!! ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ (الأنبياء: ٧٩). إن الخلاف واسع بين أهل الرأي وأهل الأثر في قضايا كثيرة، بعضها في العبادات وبعضها في المعاملات، لكن ما قيمة هذا الخلاف؟

إنه في بعض الفروع والتفاصيل، وما يجوز أبدًا أن يفسد ودًا أو يوقع خصامًا! إن الأساس الذي نحرص عليه هو العقائد والأخلاق، إنني أميل إلى مدرسة الرأي مع احترامي **لأحمد بن حنبل** وتقديري لصلابته وتقواه... وأشعر أحيانا بأن الخلاف ـ في الفروع والتفاصيل ـ جزء من المجتمع الواحد، ففي الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين، إنهما متفقان في

الولاء لدولتهم والانتصار لها عالميًا، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر في شؤون شتى. فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهي عندنا وينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور؟

أفلدت من تجارب كثيرة أن درسًا في الطب أو الفلك أجدى على الإيمان من حوار فلسفي طويل. وذلك نهج القرآن الكريم.

فإنه يكشف عن الحق برؤية آيات الله في الأنفس والآفاق.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

بعد ساعة من تناولي الطعام أقول لنفسي: بدأ العمل في إخراج الحي من الميت والميت من الحيّ.! كيف؟ إن الطعام - وكان مادة جامدة - أخذ يتحول داخل جسمي إلى دماء فيها الكرات البيضاء والحمراء، وإلى شعور وأظافر، وإلى عظام ولحوم شتى.

فلحم الكبد غير لحم الرئتين، غير لحم المخ!

وللخلايا خصائص وراثية وطارئة، وللغدد وظائف تقوم بها، ونحن لا ندري.

والروح الذي يتخلل هذه المادة ويجعلها خلقًا آخر، ينبعث من الحيّ القيوم. ليس لدي وحدي، بل في ألوف مؤلفة من الأحياء.. ثم يطرد هذا البدن ما لا يستفيد منه ليتحول في بطن الأرض شيئًا آخر. قد يصير سنابل حافلة بالحبوب، أو نخيلا مرصعة الصدر بالطلح النضيد، أو كروما يتدلى منها العنب عناقيد كثريات الذهب!!، أ أنا أو أنت وراء هذا التحول؟ أم رب الأرباب؟ لو كان لأوامر الله - وراء كل خلق - صوت يسمع، لصُمَّت الآذان من كثرة الأوامر بالإنشاء والتكوين.

ما أجمل الله، وأحلى صنعه! أحيانا أردد هذا الغناء:

يا غـــائبًا لا يغيب	أنت البعيد القريب!
مهما تغب عن عيوني	فأنت أنت الحبيب!

إن الإسلام فطرة سليمة، وعقل سوي، وصراط مستقيم، وهو طبيعة العلاقة بين مادة الكون وبارئها الأعلى. ولذلك اتجه الوحي إلى محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ..﴾ (الأنعام:١٦٤)، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران:٨٣)، ليس في العالم إله آخر! أين هو؟ وماذا يصنع؟

إن الشرك وهم لمغفل كبير، أو حلم لنائم منفوخ البطن مُسهد المضجع.!

ومع ذلك فالجاهلون بالله كثيرون، ويخيل إلي أن جريرتهم، بقدر ما تعود إلى غبائهم، تعود إلى تفريط المسلمين في خدمة الحق وفتنة الناس عنه والعجز للمستغرب عن اقتياد التائهين إليه... ليس بين المسلمين خلاف في العقائد، فهم يجمعون على أن الله واحد، حقيق بكل كمال وأن لقاءه حق: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١).

وقد تسللت إلى العقائد المقررة أفهام وأوهام من صنع الناس لا يعرفها القرآن الكريم ولا يقرها. وحسبنا كلام الله.. وخذ مثلا: مبحث الصفات الإلهية: أهي عين الذات أم غير الذات أم لا عين ولا غير؟ وهذا تساؤل سمج يجب دفنه ومنع اللغط فيه، وخذ مثلا: أعمال الناس أهي من خلقهم أم من كسبهم، وهل هم مخيرون أم مجبورون؟ وهذه أسئلة بالغة السخف، والمشتغلون بها هاربون من مستشفيات المجانين، ومن قال لا عقل لي ولا إرادة فعلاجه العصا! وفي مباحث العقائد: هل البعث للأجساد الأولى أم لأجساد مماثلة؟، وهذا كلام ولدته البطالة ولا قيمة له! لعل أفضل ما يغرس الإيمان الحق هو منهج القرآن نفسه، وقد قرأت في مؤلفات العصر الحاضر كتاب **العلم يدعو إلى الإيمان** وكتاب **الله يتجلى في عصر العلم**؛ ولو طُعِّم هذان الكتابان ببعض الآيات القرآنية لكانا أفضل من كتب كثيرة عندنا ألفت في العقائد. وقد سألني أحد الناس هل في القرآن مجاز؟ فقلت له كيف تفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٨-٩)، هل السدود هنا سد أسوان وسد الفرات؟! إن المجاز موجود في لغة العرب، وفي لغات الناس الأخرى، ومع ذلك فما دخل هذا في العقائد؟

قال: هناك من ينكر بعض آيات الصفات ويتكلف تأويلها، قلت: هناك مرويات تتصل بذات الله تعالى لا يليق بالعقل البشري أن يحاول معرفة كنهها، إن البحث وراء المادة ليس من وظيفة العقل البشري.

وهناك مرويات يستحيل تركها على ظاهرها، ولا بد من تأويلها مثل: "مرضت فلم تعدني" و ".. كنت سمعه الذي يسمع به، ورجله التي يمشي بها". ومع ذلك فما معنى اشتغال الدهماء بهذه المرويات وعكوفهم على ترديدها؟ هذه بطالة مقنعة وتسكُّع في طريق الحياة لا مساغ له.. إن سلفنا الأول كان سليم الفطرة، خالص النية، لزم الجد في الأمور، فحكم الدنيا بدينه، ولو اهتم بهوامش العقيدة التي افترناها ما أحرز نصرًا ولا فتح بلدًا

وعندما شرف الله العرب بحمل الرسالة الخاتمة، حذرهم الفرقة وأوصاهم بالجماعة، وقال لهم كما قال لمن قبلهم: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ (الشورى:١٣). وقد ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها جبهة واحدة.

لا الفقه المذهبي ولا هوامش العقيدة ولا الأخطاء السياسية الفاحشة أفلحت في تقطيع الأمة الإسلامية وتمكين أعدائها منها، حتى ظهرت بدعة القوميات في العصور الحديثة، وانتقلت جرثومتها إلى أرضنا، فإذا هي بلاء يهدد الحاضر والمستقبل. وكان ظهور "القومية الطورانية" في تركية أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة!

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركية انتقاما من **السلطان عبد الحميد** الذي رفض باسم الإسلام أن يستوطنوا فلسطين. ومع أنهم أغروه بالمال ـ وكان إليه محتاجًا ـ فقد أبى. ومع أن أوربة كانت تظاهرهم، فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين تمهيد لضرب الإسلام نفسه في أوطانه كلها .. فماذا يفعل اليهود؟ لجأوا إلى الغزو الثقافي، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء "جمعية الاتحاد والترقي" ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش.

فقامت ثورة أودت بالخليفة، وكان رد الفعل نشوء القومية العربية التي ظاهرت الحلفاء في الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية في العالم.

وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية استغنت بالقومية عن العقيدة، وجعلت الإيمان ـ إلى حين ـ ضيفا ثقيلاً ينتظر منه الرحيل! إن جماهير المسلمين لا تتنازل عن دينها ولا تعدل بجامعته شيئا، والذي حدث أن الاستعمار العالمي أول ما نزل بيلادنا ألغى الشريعة واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية! ثم وضع خططا بعيدة المدى للإجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين ـ وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض!

والحرب بيننا وبينه سجال، وهي حرب رحبة الميادين، وأسلحتها لا حصر لها.. لقد استطاع أبو بكر أن يهزم أعداء الله في أول قتال مع المرتدين. فهل يستطيع رجالات الإسلام في القرن الخامس عشر للهجرة أن يستعيدوا شرائع الإسلام التي عطلت، وأن يحموا العبادات

المهددة بالزوال، وأن يستبقوا المعروف معروفًا والمنكر منكرًا؟ إذا انهزمنا في هذه المعركة فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن... شبكات التنوير في تعاليم الإسلام ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة لأن الوحي النازل على محمد جامع ما نـع كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٧٩)، وعندما يكون الدواء مركبا من سبعين عنصرًا، فإنه لا يحصل الشفاء الكامل إذا نقصت منه بضعة عناصر، بل قد يوصف الدواء ـ والحالة هذه ـ بأنه مغشوش؛ ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم في قوله: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". فالإسلام ينظم شؤون البيت والشارع، والمدرسة والديوان، وعلاقات المرء مع نفسه والآخرين، وواجباته في الحرب والسلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة.

وهو يعتبر الإنسانية رحما عامة توصل بالتعارف والخُلُق، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء.

وفي الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة، والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم كما نزلت إليهم، وأن يبينوا للناس كافة، وأن يكونوا في حياتهم الداخلية صورة حسنة لها. وإذا وقع قصور في الفهم أو تقصير في البلاغ فهم مسؤولون عن ذلك في الدنيا والآخرة. ولست هنا أسائل نفسي وقومي عما كان منا وما نزل بنا في هذه الأيام النحسات، فإن أيام المدّ ذهبت وأعقبها جزر مزعج، وعلى قدر الجبهة التي عمل الإسلام فيها جاءت ضربات الاستعمار السياسي والثقافي، وعلى قدر السعة في ثقافتنا الإسلامية كان الغزو العلمي والمدني الذي تعرضنا له! كان اقتحامُ أخلاقِنا يتم في وقت واحد مع اقتحام حدودنا. وإنني لأدرس المسرحيات التي تعرض من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فأشعر أنها تبدّل ثيابنا الداخلية والخارجية كما تبدل في الوقت نفسه أحكامنا على الأمور وتصورنا للحاضر والمستقبل!

إن سقوط بغداد وقرطبة أقل في نظري من سقوط أحكام العبادات والمعاملات! ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص، وتحقير المثل الإسلامية، أبشع في نظري من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا... ومن هنا فإن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها في الداخل والحديث عنها في الخارج أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسي لبلد ما في إحدى القارات.

ما قيمة هذا الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا؟ مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول في المعركة بين العلم والدين، وقيام عصر الإحياء في أوربة بعيدا عن

الوحي كله!! ويبدو أن القوم لم يتغيروا، فقد وقعت أخيرا معركة في الكنيس الإسرائيلي بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات، سببها أن الوزير قال: "ليس كل ما فعله الملك داود جديرا بالإعجاب!"، مشيرا إلى ما نسب إلى داود في العهد القديم من اقتراف جريمتي الزنا والقتل. قالوا زنى بزوجة "أوريا" الحثي ثم أوصى بقتله في الميدان حتى لا يعود، ويسترد المرأة من عشيقها الملك!!

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض. وقالت إذاعة لندن إنهم سيحرجون الحكومة كلها في أول اجتماع.. ونترك بني إسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر. لقد جاءت من أوربة إلى إفريقيا لتبشر بالمسيح حامل الآلام عن هذا الورى ـ كما يقول شوقي ـ فماذا فعلت؟ تركت في وسط إفريقية عشرة ملايين إصابة بالإيدز، وهي تنشر الدين!

لقد حكمت بالموت على من قال إن الأرض كرة تدور حول الشمس. أما اقتراف الخنا فحسب من فعله أن يعترف ويحيا آمنا! إن تزوير الدين على هذا النحو أزرى به، وزهّد فيه، وأعطى الحكم العلماني ألف سبب ليحل محل الدين، ويبتعد من الوحي كله.. ونحن دعاة للمسلمين نلقى العنت حين نقدم القرآن للناس لأن سيرة المسلمين مع دينهم لا تشرف، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة يرونها أقرب إلى الفطرة والرشد.. ولا بأس أن أحكي ما وقع لي أخيراً.. جاءتني رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول في "شيكاغو" وتستعد لعقد مؤتمرها الثاني لمناسبة مرور ٥٠ عاما على تأسيس هيئة الأمم المتحدة، وقيل لي بعد اختياري عضوا: إن مؤسستنا عالمية تضم رجالا من كل دين سماوي أو أرضي، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأي دين.

المهم أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المثل العليا التي يجب أن تحكم العالم..

وأنا رجل شرفي الأول والأخير أني أقول وراء محمد: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَشَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣). أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي، وحين أفكر بأن الله هو الذي أسرج مصباح عقلي بأنه يستحيل أن أسوي بين مؤمن وكافر، أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحلها في عمل ما لرفع مستوى البشر..!! شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح، وأنهم قد يدفعون للظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم!، وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان، فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها ديني، جاء فيها ما يلي:

"شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمي لدعم الأخلاق والتسامي بالبشر، وقلت إن الفطرة الإنسانية لا تزال طية تعشق الكمال وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادي الذي يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته، ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره واختصرت أبعاده، ونشأت فيه ـ لأول مرة في تاريخه المديد ـ هيئة لأممه كلها، أي أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات، والتعاون على حلها. لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا في ظل الاكتمال الخلقي وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر في توفير الوسائل للنشودة لتحقيق ما نصبو إليه؟ إن نبي الإسلام يقول: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، ويقول لعلي بن أبي طالب: "ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك"، ويقول لأصحابه: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين"!! إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم وتسدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى.. لكنني ـ ولأكن صريحاً ـ شعرت بحرج شديد عندما علمت أن "البرلمان" الأخلاقي فتح الباب للمؤمن والكافر، للموحد والمشرك، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت!. قد تقول: هذه هي الدنيا وهؤلاء أبناؤها، وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل متناقضة تجاورت في مقاعدها لتدرس قضاياها المختلفة، وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك! ولي على هذه الإجابة تعليق! إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بالأخلاق أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين، أو هو أمر يثير الاشمئزاز، لماذا يخلق الله ويُعبد غيره؟ ولماذا يعطي ويُشكر سواه؟ هل العقوق رذيلة إلا في معاملة الله؟!

إنني لو أجزلت العطاء لأحد ثم رأيته يجحدني لاشتد سخطي عليه واحتقاري له! كيف أرضى وجود أفراد أوجماعات تطعم من خير الله صباحا ومساء ثم تتجرأ عليه، وتنكر وجوده وحقوقه؟ أعتقد أن منكري الألوهية ينبغي أن نعترف بهم، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم في الحياة، من يدري؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم..

"ومن دواعي سرورنا نحن المسلمين أن نلتقي بأتباع الديانات السماوية التي سبقتنا في مؤتمر جامع لتحسين الحسن وتقبيح القبيح وتقوية الفضائل ومحاربة الرذائل. إن لدينا الكثير الذي نود أن نقوله، والتراث الذي تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها، ولا رغبه في التسامي إلا زكاها وشجع عليها إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم

الأخلاق، ولا أعرف رسولا سماويا ولا فيلسوفا أرضيا خلّف مثل هذه التركة!! ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التي يحتاج إليها.. ثم إننا نحن للمسلمين نحب أن نتعرف على الناس وأن يتعرف علينا الناس. هكذا علمنا ربنا.

"فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتقي خيره ونشكره عليه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:١٥). ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها! قرأت أن يهوديا في مدينة الخليل استولى على بيت عربي، ثم قال لرب البيت: هذا البيت ملكي من بضعة آلاف عام وقد عاد إليّ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون، لقد تنازلت عنها، فاذهب إلى أي مكان وأقم به أو اسكن في العراء إن شئت، ولا تعد هنا وإلا... هل تستقيم علاقة إنسانية مع هذا المنطق؟! والسياسة الاستعمارية التي سيّرت العالم في العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها.

"فإن الجريمة التي ارتكبها الإسلام ـ كما يرى بعضهم ـ أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التي كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادي النيل وشمال إفريقية وأقطارا كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين، الذين اعتنقوا الإسلام بداهة..!!

"وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون.

"ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة فتح صفحة جديدة في تاريخ العالم، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق. لكن هل المتصورون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من سورات الحقد القديم وحاربوا التعصب والجشع؟ لعل إنشاء جهاز أخلاقي عالمي يساند الخصائص الإنسانية العليا وينشط الجهود المبذولة لدعمها ويصل بالهيئة إلى ما نريد ويقي العالم شرور الانقسام والخصام.

"عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"، وفي الحديث أيضا: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة". والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفاً في رضاه وفي غضبه، فلا يستبيح خصما، ولا يجوز على ضعيف، بل يقف عند الحق ويستريح للعمل، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان.

"ويؤسفني أن الإنسانية في تاريخها الطويل احتالت على ارتكاب المظالم ورأت في اختلاف البشر ـ قوة وضعفا، وغنى وفقرا، وإيمانا وكفرا ـ ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد، وقد رفض

القرآن الكريم أن يعترض العدالة شيء ماديا كان أو أدبياً :﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (النساء:١٣٥)، وفي آية أخرى: ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ [كرههم] عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨). لقد وَهِل الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك المجال رحبا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ..﴾. وأذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفريةَ وتبرئ الإسلام من هذه التهمة.

الحديث الأول: "دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه".

والحديث الثاني: "دعوة المظلوم [وإن كان كافرا] ليس دونها حجاب."

والحديث الثالث: عن أبي ذر قلت يارسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا كلها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر.."!!

ومن دواعي الدهشة أن يموت نبي الإسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله!.

ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودي التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال في عاصمة الإسلام! هل كانت غربته سببا في أن يجور عليه أحد؟ لقد حصَّن الحكم الإسلامي حقوقه فعاش ومات لا يشكو شيئا، إننا نحترم الرأي والرأي الآخر. وإذا كنا ـ نحن المسلمين ـ نشكو شيئا فمواريث الضغائن التي نعامَل بها في ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان."

فقـه السيـرة

للشيخ محمد الغزالي

خرج أحاديث الكتاب
الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

صدر عن دار الكتب الحديثة / القاهرة
وكذلك دار الريان للتراث

٥١٢ صفحة

كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم. واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكراً له جهده، وموضحاً وجهة نظره في هذه الأحاديث. جمع الغزالي في كتابه هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دقّ وجلّ من الواقع.

وبذلك جعل المؤلف بهذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكًا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع.

وبذلك كانت السيرة عنده شيئاً ينّمي الإيمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح، وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عند قائده أو تلميذ عن استاذه، وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين، الرفيق الأعلى

تعريف موجز بكتب الشيخ محمد الغزالي

١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية

تقع الطبعة السابعة من هذا الكتاب في ٢١٤ صفحة وقد صدرت عن دار الصحوة (القاهرة) ١٩٨٧م. وكانت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٤٧م، أول ما أصدر الغزالي من كتب، وقد كتب المؤلف مقدمة الطبعة السابعة مؤكدًا أن في الكتاب لمحات وجب إعادة النظر فيها، وأن كثيرًا من مواطئ الأقدام تحتاج إلى تبيين، وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، مع ما أفاده المؤلف من تجربة العقود الماضية.

ومن عناوين الكتاب: الطبقات المترفة والطبقات البائسة، الصراع بين الخير والشر، هل للرذائل أسباب اقتصادية؟ هل للفضائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للاستعمار الخارجي، سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة، ضوابط الملكية الخاصة في الإسلام، هل تغني ضريبة الارض عن زكاتها؟، المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين، قيمة العقل والدين.

٢) الإسلام والمناهج الاشتراكية

يقع الكتاب في ٢٧٠ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة) ١٩٦٠م، وهذا الكتاب صيحة تنبيه ضد ما يحيق بالإسلام من تآمر ومن تهديد لشرف الدعاة إليه، وهو دعوة ممتلئة بالتفاؤل للعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، وتحديد موقفه من العلم والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي ومواقفه من المذاهب الحديثة.

ومن أبرز عناوينه: الإسلام في أوطانه، شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد، التأمين الاجتماعي، مجتمع مثالي، عمل الدولة، فلسفة الغنى والفقر، القعود عن الدنيا هدم للدين، الفساد السياسي أخبث علل المسلمين، توزيع الملكيات، موضع الفرد من الحياة العامة، نظام ملكية الأرض في الإسلام، الدين والربا، الاحتكار، الصراع بين الشيوعية والإسلام.

٣) الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

يقع الكتاب في ١٧٨ صفحة، وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد صدرت عن دار الكتاب العربي في القاهرة عام ١٩٥٠م. ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب "كادت هذه الصحائف تضيع في أثناء الأزمة العصيبة التي أصابت الفكر والقلم وطمست الحقوق والحريات، على عهد الاحتلال الداخلي للإدارة المصرية، أيام حكم الأقليات السياسية في الفترة ١٩٤٤-١٩٤٩م... (وقد تم) استنقاذ هذه الصحائف من براثن العدم، برغم أن كثيرًا من غيرها ضاع في خلال الارهاب المنظم الذي خرّب البيوت وفتح المعتقلات... ولقد نشرت في الكتابين السابقين لهذا الكتاب بحوثًا مستفيضة عن حقيقة النظام المالي في الإسلام أو ما أسميناه على سبيل التجوز "الاشتراكية الإسلامية". وأستطيع القول بأننا أسخطنا الرأسماليين والشيوعيين بهذا المنهج الذي جنحنا إليه".

وقد نشر أغلب الكتاب من قبل فصولاً متفرقة، على نحو ثلاثين عددًا من إحدى المجلات الدينية. ويؤكد المؤلف في مقدمة الطبعة الثالثة أن الكتاب وأخواه من قبل "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" و "الإسلام والمناهج

الاشتراكية" أول ما خُط في اللغة العربية من كلام في هذا الموضوع، وأن هذا الكلام كان مستغربًا في ميادين الدين والأدب والسياسة. وأنه أي الشيخ الغزالي بدأ السير وحده في هذا الميدان ثم أدركه بعد من أربى وأجاد.

والكتاب في مجمله كشف جريء للمظالم الاقتصادية المؤلمة، التي تئن تحت وطأتها الشعوب في البلدان الخاضعة للاستعمار الأبيض والأحمر على السواء... وقد جاءت مقالات هذا الكتاب قصيرة مختصرة، ولكنها مجمعة في فصول عامة بالعناوين التالية: الحضارة بين الإيمان والإلحاد، دعائم الأخوة العامة، نماذج العدالة في الإسلام، الفقه الإسلامي يساير التطور الاقتصادي، المتحدث الرسمي باسم الإسلام، دروس من السماء.

٤) الإسلام والاستبداد السياسي

يقع الكتاب في ٢٢٧ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الإسلامية(القاهرة)، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م. وأصل الكتاب محاضرات ألقاها الغزالي في معتقل الطور عام ١٩٥١م. ونشر بعضها فيما بعد في بعض المجلات ولم تجمع في كتاب إلاّ بعد بضع عشرة سنة، وكان لها دويّ بعيد المدى في إقلاق الظلمة، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون. وقد هتك المؤلف بهذا الكتاب أستار الاقطاع المدبّر، وحذّر الشعوب من مغبة الاستسلام له في أحوال المجتمع والدولة.

ويؤكد الشيخ الغزالي في الكتاب أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري، بل كانت تعاليمه ومبادئه تدعو إلى الشورى والرأي الجماعي، وذلك كان حال المسلمين في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كما حثّ الإسلام على الجهاد فجعله واجبًا على كل مسلم لديه القدرة على الجهاد، ثم يتناول الشيخ الغزالي بعض القضايا الإسلامية المعاصرة ليقول رأيه فيها.

ويتضمن الكتاب: الشورى، الجهاد، الرق في الجاهلية، قضايا معاصرة، قضايا إسلامية.

٥) من هنا نعلم

يقع الكتاب في ٢٤٣ صفحة، وهو من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة)، الطبعة السادسة ١٩٦٥م. وفي هذا الكتاب يرد الشيخ الغزالي على كتاب "من هنا نبدأ" للأستاذ خالد محمد خالد، لما فيه من شطط وخلط للمفاهيم الإسلامية؛ لأن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ والسكوت عليه. وبيّن المؤلف أن علاقة الدين بالدولة في الإسلام وحدة لا تقبل التجزئة، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه، من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء. ولم يكن الكتاب مجرد ردّ لشبهات أثارها الشيخ خالد بقدر ما كان دفاعًا عن تعاليم الإسلام وبيانًا لقيمه. ومع أن الشيخ الغزالي شديدًا في هجومه فإنّه كان رفيقًا مع الشيخ خالد، بل استمر في علاقته به بعد الكتاب ورفض فتوى الأزهر بتجريده من شهادته.

ويتضمن الكتاب ردود الشيخ حول الحدود وضرورة إقامتها، وبدعة فصل الدين عن الدولة، وعن دور المرأة الاجتماعي، وعن الكهانة والإسلام، وعن الديمقراطية، وتحديد النسل، والقومية العربية والإسلام.

٦) تأملات في الدين والحياة

يقع الكتاب في ٢٥٧ صفحة (طبعة دار الدعوة الثانية بالاسكندرية ١٩٩٢م)، وهو مجموعة من المقالات والخواطر والبحوث واللفتات، عالجت أمورًا لا تزال تستحق المزيد من النقد والنظر، وخير ما فيها أنها عرضت الدين على الناس نابضًا بالحياة والحركة، ونشدت للحياة ضوابط الإيمان والتقى. وكتب كثير منها عندما كان الغزالي يحرر مجلة الاخوان المسلمين وبعض مقالات الكتاب ظهرت فيما بعد عن شكل كتب مستقلة. ويتحدث الشيخ الغزالي في مقدمة الكتاب عن بعض ملامح شخصيته، التي تبدو للناس مختلفة عمّا ألفوه في الدعاة ورجال الدين، كما يسمونهم. فهو لا يطيق التزمّت ولو تكلفه ما أحسنه، وأنه يجنح إلى المرح ويتلمس الجوانب الضاحكة في كل شيء. وأنه شعبي في تصرفه... وأنه يحبّ الناس، ويتمنى لهم الخير ويثق في صدق جماهير العامة من المسلمين

ونفائهم.. ويؤكد أن من الدعاة من مشوا في آثار النبوة وصدقوا الله جهادهم؛ لكن في بعض الناس زهادًا متصنعين ودعاة محترفين!

من عناوين الكتاب: سياسة الحرية والكفاح، ذكريات من الريف، في صميم السيرة، نقد وتوجيه، صور من الماضي.

٧) عقيدة المسلم

يقع هذا الكتاب في ٢٦٢ صفحة، صدر عن دار القلم (دمشق ١٩٨٧م)، وأصدرت الطبعة الثالثة، دار الدعوة (الاسكندرية) عام ١٩٩٠م، ويحوي بحوثًا ميسرة في العقيدة الإسلامية، معززة بأصولها العلمية، وسائره في هدي نصوص الكتاب والسُّنَّة. وهذا الكتاب يمتاز عن كتب الفلاسفة والمتكلمين في أنه يخاطب العقل والقلب، ويثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظ للقوى الذهنية، وهو عملٌ حاسم في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي.

ولقد حاول المؤلف وهو يكتب عن العقيدة أن يرطب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، و لم يتكلف لذلك إلاّ أن جعل نصوص الكتاب والسنة نصب عينيه. ولذلك أكثر من الاستشهاد بهذه النصوص على خلاف أمهات الكتب الكلامية التي لا تكاد تعثر فيها على آية أو حديث إلاّ ما ندر.

ومن عناوين الكتاب: الحقيقة الأولى، الوحدة المطلقة، كمال الأعلى، القضاء والقدر، العمل أساس الإيمان، الخطيئة والمتاب، النبوات، والخلود.

٨) خلق المسلم

طبعة دار القلم السادسة (دمشق)، سنة ١٩٨٧م، في ٢٤٨ صفحة. هذا الكتاب عبارة عن نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعًا. وقد مهد المؤلف لها وعقب عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل.

ويعد الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب عقيدة المسلم، ليكون جزءًا من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم.

ومن عناوين الكتاب: أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، نحو عالم أفضل، الإنسان بين الخير والشر، الحدود على الجرائم الخلقية، دائرة الأخلاق تشمل الجميع، الصدق، الأمانة... القصد والعفاف، النظافة والتجمل والصحة، اختيار الأصدقاء، العلم والعقل، الانتفاع بالوقت، والاتعاظ بالزمن.

٩) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام: دحض شبهات ورد مفتريات

يقع الكتاب في ٣٦٦ صفحة، من منشورات دار التوزيع والنشر الإسلامية (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٩٩٣م. قام أحد المسؤولين المسيحيين بالطعن في الإسلام فتصدى له الغزالي في ذلك الوقت العصيب، فكان هذا الكتاب. وقد تعهد الشيخ أن لا يذكر اسم الطاعن حتى يموت في مهده. إنَّ الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام. وقد ألف هذا الدين منذ بدأ، أن يعاشر غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد، والإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم. وأهم موضوعات الكتاب: المسلمون وأهل الذمة، دخول المسيحية مصر، الإسلام بين التعصب والتسامح، إفتراءات المستشرقين على الإسلام، تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى.

١٠) فقه السيرة

يقع في ٤٩٨ صفحة صدر عن دار الكتب الحديثة (القاهرة) ١٩٧٦، كما أصدرته دار الريان للتراث في القاهرة عام ١٩٨٧م. كتب الشيخ هذا الكتاب وهو دامع العين جياش المشاعر، وقد كتب معظمه في الروضة الشريفة في المسجد النبوي، وبعضه في مكة أمام الحرم. واعتمد المؤلف فيه على الكتاب والصحيح من السنة والعقل الراشد، وقد سمح الغزالي للشيخ ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث الواردة في الكتاب، وحكم على بعض الأحاديث بالضعف، لكن الشيخ لم يتردد في إثبات رأي الألباني شاكرًا له جهده، وموضحًا وجهة نظره في هذه الأحاديث. جمع الغزالي في كتابه هذا بين طريقة المؤرخين المحدثين الذين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث في سياق متماسك، وطريقة القدامى، الذين يعتمدون حشد الآثار وتمحيص الأسانيد وتسجيل ما دقّ وجلّ من الوقائع.

وبذلك جعل المؤلف بهذا الجمع من تفاصيل السيرة موضوعًا متماسكًا يشد أجزاءه روح واحد، ثم وزع النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع. وبذلك كانت السيرة عنده شيئًا ينمّي الإيمان ويزكي الخلق ويلهب الكفاح، وهو يكتب في السيرة كما يكتب جندي عند قائده أو تلميذ عن استاذه، وقد جاء الكتاب في تسعة فصول هي: رسالة وإمام، من الميلاد إلى البعث، جهاد الدعوة، الهجرة العامة، أسس البناء للمجتمع الجديد، الكفاح الدامي، طور جديد، أمهات المؤمنين الرفيق الأعلى.

١١) في موكب الدعوة

يقع في ٢٦٢ صفحة، (دار الكتاب العربي (القاهرة) الطبعة الثانية عام ١٩٥٧م). في هذا الكتاب يستثير الشيخ الغزالي مشاعر الدعاة ويستنهض هممهم ويستصلح أوضاعهم ويحارب الوهن. ولم يكتب الشيخ هذا الكتاب ليعبر عن مذهب خاص به في الحياة وإنّما ليبرز رأي الإسلام فيما اعترضه من شؤون.

ويظهر الشيخ في هذا الكتاب حزنه، لأن تخلف بعض القادة، في ميدان الدعوة، واضطراب أقدامهم في ميدان الواجب يعثر القوى الإسلامية وأربكها. والكتاب في جملته نقد لسياسة الجبهة الإسلامية الداخلية؛ باعتبار أن تراخي تلك السياسة واعوجاجها مكن للدجالين والمنافقين.

من أهم عناوينه: موت الأبطال في الطريق، من صور القوة في القرآن، الوطنية الضيقة والوطنية الواسعة، من أخلاق النبوة، هل الحكم الشرعي كلام فارغ؟ نعم... دين الدولة الإسلام، الإسلام جامعة، جهاد وتربية، استغلال، فتنة لا تعليم، تحريف الكلم عن مواضعه، ذكرى.

١٢) ظلام من الغرب

يقع في ٣٤٣ صفحة، صدرت الطبعة الثانية عن دار الكتب الحديثة (القاهرة) ١٩٦٥م، وأصدرته دار الاعتصام (القاهرة)، طبعة (١٩٧٩)، الكتاب رد على "المستشرقين المصريين" الذين ولدوا في بلادنا لكن عقولهم تربت في الغرب، فهم كفار بالعروبة والإسلام وسفراء للغرب. يهدف الكتاب إلى تجلية هذا الصنف من المستشرقين وتنحيته عن الحياة العامة.

ويتتبع المؤلف في الكتاب الحركات العليلة، والنيّات المدخولة والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبله على يد هؤلاء؛ إما عن فساد في عقولهم، أو فساد في ضمائرهم. ويشير المؤلف كل ذلك لصدّ الجاهلية الحديثة عن اجتياح ديننا وأمّتنا.

من أهم عناوينه: بين العقل والعاطفة، عروبة وإسلام، تيارات متدافعة، في ميدان التشريع، جاهلية حديثة، كيف تصان الأخلاق، الأمم بين النماء والفناء، نحو وحدة إسلامية كريمة، الإسلام والمدنية الحديثة.

١٣) جدد حياتك

يقع الكتاب في ٢٣٢ صفحة، (القاهرة دار الدعوة الطبعة الأولى لسنة ١٤١ هـ/١٩٨٩م). هذا الكتاب هو محاولة إنارة الطريق لمن يحب أن يبدأ صفحة جديدة في حياته.

وهو مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وهو محاولة لرد كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" للعلامة "ديل كارينجي" إلى أصوله الإسلامية.

وقد شرح المؤلف فيه وظيفة الفطرة السليمة في تعرّف الحق وتعريفه، ذلك أن كثرة البضاعة من نصوص السماء، لا تغني في نفع صاحبها، أو في نفع الناس بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة، كما لا ينفع المنظار المقرب، أو المبكر لدى امرئ فقد بصره. بينما سجلت الفطرة السليمة في كتاب "كارنيجي" من التجارب والاختبارات ما يعدّ صورة لحكمة الوحي علىلسان رسول الإسلام؛ فاتفق بذلك وحي التجربة ووحي السماء.

ومن عناوين الكتاب: عش في حدود يومك، كيف نزيل أسباب القلق وآفات الفراغ، لا تبك على فائت، لا تنتظر الشكر من أحد، روحانية الرسول، بقدر قيمتك يكون النقد الموجه لك، حاسب نفسك.

١٤) ليس من الإسلام

يأتي الكتاب في ٢٦٢ صفحة، وقد صدرت الطبعة السادسة منه سنة ١٩٩١م عن مكتبة وهبة بالقاهرة، وفي هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علمًا باصول لابد منهـا، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام. وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية مجتهدًا في التقريب والتوضيح.

اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة التي أضافها المسلمون إلى دينهم، كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها الصحيحة، فلا نقص ولا ضمّ، ولا انكماش ولا تهوّر، مقتفيًا آثار البدع والخرافات فيفضحها.

ويريد المؤلف أن يوسّع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق، ويقرب من جماهير المسلمين ألوانًا من العلم حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة؛ فإن التعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام وإعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكرًا على المتخصصين. ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين وسوف يرون الكتاب امتدادًا لجهاد أئمة طال كفاحهم في إيقاظ العقل الإسلامي.

وأما أبرز عناوين الكتاب فهي: الشريعة الإسلامية، أهداف ومناهج، اختراع في الدين، في الفكر الإسلامي، من بدع العقائد: وحدة الوجود، النزعة القومية، بدع العبادات، بدع العادات

١٥) الثقافة الإسلامية

كتب مشاركة مع الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني، نشرته جامعة الملك عبد العزيز (جدة) ١٩٨٠م، ورد الكتاب ضمن سلسلة الكتاب الجامعي، ويعتبر أحد الكتب الدراسية لمادة الثقافة الإسلامية، وشملت الدراسة: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والقرآن والسنة والحديث والاجماع والاجتهاد

١٦) من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث

يقع الكتاب في ٢٠٠ صفحة (دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م). يرى المؤلف أن ما أصاب الإسلام في عصرنا هذا وفي العصور التي سبقته لا يسأل عنه أعداؤه قدر ما يسأل عنه أبناؤه؛ ذلك أن الخمول والتفريط، والقصد المدخول والشهوات المطاعة، لا يمكن أن يتنزل عليها نصر الله خصوصًا إذا فشت هذه الرذائل في جبهتنا، وكانت الجهات المقابلة ظاهرة النشاط والتجرد والغزالي في هذا لا يلوم قومه فحسب وإنما يسارع إلى الاعتراف بتقصيره. لكنه يؤكد أن لن يتوانى عن موقفه في كشف الأخطاء التي انتشرت بين صفوف

العاملين لهذا الدين. ولذلك فهو يعيد نشر هذا الكتاب والكتاب الآخر في موضوعه وهو دفنها، لكنه يرى أن من الخطل إسدال الستار عليها، فهي جزء من تاريخ يجب تدبر أحداثه والإفادة منها.

ومن موضوعات الكتاب: سنن مضطردة (حقائق العلاقة مع بني إسرائيل)، ضد الإسلام (أقلام تحارب الإسلام تحت ستار محاربة التعصب)، دروس (الإسلام مقياس الحكم والتقويم)، السلام المسلح، العلم يدعو إلى الإيمان، بين الغيبة والنقد، طبيعة الإسلام.

١٧) كيف نفهم الإسلام

يقع في ٢١٨ صفحة، صدر أولاً عن دار الكتب الإسلامية (القاهرة) ١٩٨٣م، ثم أصدرته دار الدعوة، سنة ١٩٩١م. في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة أو عرفها القليل وكان ينبغي أن يعرفها العامة. ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية فشت في كل البقاع وتوطنت، وما كان ينبغي أن تظهر ولا أن تبقى طويلاً. وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لو سمع بها الجمهور لفغر فمه في دهشة فهي غريبة عليه بينما حلت مكانها تقاليد ما انزل الله بها من سلطان فإذا حاولت تغييرها سمعت صيحات الفزع، كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية.

من أهم عناوينه: حول التعريف بالإسلام، مساوئ التعليم الديني، علوم الحياة ونشاطها، الجهل بالدنيا والسقوط فيها، الانفصال التاريخي بين العلم والحكم، العقيدة صلة إلهية ومنهج إنساني، التجديد والاجتهاد، في دائرة السنة، لماذا أنا مسلم؟

١٨) الاستعمار أحقاد وأطماع

يقع الكتاب في ٢٦٨ صفحة، وأصدرت (دار الكتب الإسلامية (القاهرة) الطبعة الثالثة ١٩٨٣م). يتحدث الكتاب عن أكبر أعداء الإسلام وأشدهم خصومة ويصف مآسيه، يورد أحداثًا مخزية عن أفاعيل الاستعمار، ثم يبحث في الإسلام والسلام، ليعرف الناس أي عدل مضاعف كان لدينا، وأي حيف مضاعف وقع علينا! ويعرض لحركة الارتداد الخلقي والثقافي والتشريعي التي أحدثها الغزو الثقافي في بلادنا.. لحساب الصليبية الغازية.. فالاستعمار أحقاد دينية وأطماع دنيوية... ولم تعرف الدنيا أناسًا أوتوا المقدرة على إخفاء أحط النيات وراء معسول الكلمات، كما عرفت ذلك في تجار الاستعمار الحديث.

ويؤكد الغزالي أن مستقبل أمتنا لن يضيع إلاّ إذا نجا من حقد الحاقدين، وطمع الطامعين.

من عناوين الكتاب: كيف يفتكون بنا؟ تهويد وتنصير، القتل أو الاستغلال، سلام مسلّح، حول

١٩) نظرات في القرآن

يقع الكتاب في ٢٥٤ صفحة، الطبعة السادسة، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٦م. وهو الكتاب الثامن عشر في ترتيب مؤلفات الغزالي. وفيه جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين وشدها جميعًا نظام يرائم الأسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم وألفوه في مجالي العلم والأدب.

ويمسّ الكتاب قضايا دينيّة واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصّة، وبال العالم عامّة. فإنَّ العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في مكتب الغزالي ولا في لبّه؛ والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدًا، فما نزل إلاّ ليخطئ او يصوب من أفكارها! وإلاّ ليمحوا أو يثبت من أحوالها!

ومن عناوين الكتاب: هذا القرآن: كيف نزل ولماذا خلد، وكيف جمع، نماذج وصور في القرآن: الإنسان، الحياة، الثروة، والألوهية، والنبوة، والقصص. الإعجاز القرآني: النفسي والعلمي والبياني، القرآن وأهل الكتاب، ودراسة حول النسخ.

٢٠) مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة

الطبعة الأولى لدار القلم بدمشق ١٩٨٩م، ثم أصدرته أخبار اليوم (القاهرة) ١٩٩٢م. هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألفه الشيخ الغزالي لهم ودرس جملة من أبوابه معهم، حين كلفته مشيخة الأزهر بأن يحاضر لطلبة الدعوة والإرشاد. ويتضمن عددًا من الفصول في كل منها مباحث عديدة ومن عناوين فصوله: التعريف بالدعوة، السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين، حملة الدعوة، وسائل الدعوة، مقاومة الهدامين، نماذج حية في وجوه الدعوة من القرآن والسنة، وأقوال الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة.

٢١) معركة المصحف في العالم الإسلامي

يقع الكتاب في ٣٥٧ صفحة، الطبعة الثانية، من منشورات دار الكتب الحديثة (القاهرة)، ١٩٧١م. وهذا الكتاب هو جهد رديف للجهود المبذولة للدفاع عن المصحف المُهاجم وأمته المعناة في أنحاء الأرض، إنه كتاب لا يخص قطرًا إسلاميًّا بعينه، بل إنه يتناول حاضر ومستقبل أمَّة عاث الاستعمار السياسي والثقافي في أرجائها فسادًا.

يرى المؤلف أن المسلمين يعتقدون أن ما بين دفتي المصحف هو مراد الله من عباده. وأنه يمثل قواعد الدين الواحد الذي جاء به جميع المرسلين، وهو الوحي الذي سيصحب الإنسانية حتى النهاية وأن المصحف صورة تامة للحق في العقيدة والعبادة والخلق والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ومعادها هناك. ومقالات هذا الكتاب استهدفت مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله عن طريق ثورة الشعوب وخلق الأمل في النجاح وتأسيس الحياة الاجتماعية والسياسية على أصول الإسلام.

ومن أهم عناوينه: المصحف للنفس والمجتمع والدولة، العبادات وسلطان الدولة، الإسلام يصبغ الحياة العامة في أغلب تاريخه، حراسة الحق معيار الإيمان، التجديد الإسلامي في ميدان السياسة، هذا الاستعمار الثقافي، حول مركز المرأة في المجتمع.

٢٢) كفاح دين

يقع في ٣١٢ صفحة، (الطبعة الخامسة، مكتبة وهبة (القاهرة)، ١٩٩١م)، أظهر المؤلف في الكتاب ما يقع للإسلام وأهله من أذى، حيث تنجح سياسة الاستعمار في إقامة حكومات موالية له. وتتبع آثار الاستعمار في البلاد التي أكره على الرحيل منها، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضي وبقي ممدود الرواق في نفوس لا تزال يحتلها ويلقي خيامه فيها. وذكر أمثلة عديدة على ذلك ونماذج متنوعة

تحدّث المؤلف في مقدمة الكتاب عن شعوره بأن الأمة قد وصلت إلى مرحلة عظيمة نحو التخلص من الاستعمار، وأن يقظة العروبة وآمالها وحقوقها أصبحت حركة ناجحة، وناقش الجوانب الإسلامية في مفهوم القومية العربية والحياد الإيجابي التي كان يتحدث عنهما الرئيس جمال عبد الناصر، بما يكشف عن سعادة الشيخ الغزالي بهذه الشعارات وامتداداتها لكنه حذر في هموم قوى الرؤوس الفارغة من الدين أن تجعل من هذه الكلمات غطاءً لما ترسَّب فيها من بقايا الاستعمار. ويؤكد أن هذه الشعارات لا يمكن أن تغلب الطابع الأجنبي، أو تهون من الروح الديني، أو تضعف الأدب العربي، أو تشوه التاريخ الإسلامي وتسوغ الانحلال الأخلاقي؛ لأن ذلك يعد خروجًا عن الدستور، وتعويقًا لثورة البلاد.

ويبدو أن تلك القوى المعادية التي أفرغت الشعارات من مضمونها الإسلامي، هي التي قادت مصر في عهد جمال عبد الناصر إلى ما انتهت إليه مصر من التمكين للفاسدين المفسدين، الذين قادوا مصر إلى الردة. فكتب الغزالي في مقدمة كتاب قذائف الحق، يؤكد أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله، وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله كرومر

. من عناوينه: التعاون بين الإسلام والمسيحية، اتجاه الصليبية الحديثة، ثقافة مهجورة، في عالم الملّذات.

٢٣) الإسلام والطاقات المعطلة

يقع في ٢١٤ صفحة الطبعة الرابعة من منشورات دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٣م، في هذا الكتاب مقارنة بين طبيعة دين، وواقع أمة، اعتمد فيها المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام، والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بعد الشقة ويرى أسباب التفاوت.

ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق بساط من الأرض الطيبة، التقت فوق تقاليد الدنيا ومفاتيح العمران. وفي قبضة يدها رخاء العالم، ولو أحسنت استغلال ما تملك، لما احتاجت إلى أحد، ولاحتاجت سائر الأمم إليها. فإنَّ شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها.

كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام. ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية.

من أهم عناوينه: تفجير الطاقة الإنسانية، فساد عاطفة التدين، الكفر بالإنسان، الاستبداد يشل القوى، أثر الثقافات الرديئة، المرأة في المجتمع الإسلامي، الإسلام أساس حياتنا وسر قوتنا، دين المستقبل، البيان الإسلامي العالمي، أزمات الحضارة المعاصرة، التضامن الإسلامي، أطر النظام الإسلامي، تحرير الأراضي الإسلامية.

٢٤) حقوق الإنسان: بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة

طبعة دار الدعوة (الإسكندرية) ١٩٩٣م في ٢٦٦ صفحة. يتناول هذا الكتاب الذي كتب في الستينات مبادئ حقوق الإنسان: الحرية، المساواة، العدالة، الكرامة. ويبين الكتاب أنَّ الإسلام دعا الناس – كل الناس – للحياة الكريمة دون تمييز بين جنس أو لون أو مال أو جاه، فقد سوّى الإسلام بين العربي وغير العربي حاكمًا أو محكومًا. ويبين الكتاب أن الدول الكبرى لا تلتزم حقوق الإنسان كمكيال ثابت، لكن الإسلام التزم جانب العدالة المطلقة يوم دانت له الأرض، وأن آخر ما وصلت إليه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان حقوق الإنسان هو ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تعلمناها من رسول الإنسانية محمد ﷺ. ومن أبرز عناوينه: المساواة العادلة، الحقوق القضائية، الحريات، الرجل والمرأة في المجتمع، كتاب الأسرة، الهجرة واللجوء، الكرامة الاقتصادية، المستوى الثقافي، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام، وحقوق الإنسان في الإسلام.

٢٥) خطب الشيخ محمد الغزالي

وقد وردت الخطب في عدة مجلدات وأصدرتها دار الاعتصام (القاهرة) ١٩٨٠م. وكما عهد في الشيخ فإن الخطب تقوم على التثبت والتنوع والتعمق.

٢٦) نظرة على واقعنا الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

أصدرته دار ثابت (القاهرة) ١٩٨٣م، ويتطرق الكتاب للإسلام وحال المسلمين مع مطلع القرن الخامس عشر ومحنتهم في بعض بلدانه.

٢٧) هذا ديننا

يقع الكتاب في ٢١٣ صفحة، أصدرته دار الكتب الإسلامية (القاهرة)، سنة ١٩٧٥م. يأتي الكتاب جامعًا لتعاليم الإسلام مع إتّسامه بالإيجاز والوضوح والاستيعاب. وقد أثبت المؤلف في كتابه هذا خلاصات واضحة وملينة لما سبق أن تناوله من حقائق الإسلام مع إضافة دلائل جديدة. كما ضمّ أبوابًا أخرى من البحث والدراسة تعين على تحقيق رغبة الكاتب في تقديم صورة وسيمة الملامح لهذا الدين العظيم.

وأما أبرز عناوين الكتاب: العقائد: التوحيد، القضاء والقدر، حرية العقل لاحرية الشهوة، حرية الاعتقاد، ضروب العبادات وصورها، الأسرة، الأخوّة، الاجتهاد، الإجماع، فقه العبادات، شرائع المعاملات.

٢٨) الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي

يقع هذا الكتاب في ٢٨٣ صفحة، دار الكتب الحديثة (القاهرة) ١٩٧٧م، كما أصدرته دار الروضة للنشر والتوزيع (القاهرة)، سنة ١٩٩٣م. من حق أي مسلم مخلص أن ينفر من التدليس، وأن يَعُدَّ القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصية الإسلام وتاريخه، والمحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام تارة بتسويغ الإرتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال العروبة مكانه بعد تحريرها من رابطة الإيمان، لتكون مفهومًا فارغًا ميتًا، ثم افتعال يقظة عربية، وتفسير القومية العربية على هذا الأساس بعد استجابة صريحة للغزو الاستعماري بكل ما يحمله من أحقاد وأطماع.

وإذا كان حديث الغزالي عن العروبة بهذه الحدة في هذا الكتاب، فذلك لأن العروبة التي عرفناها من قديم، وآزرنا نهضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم ولدت، شيء آخر غير العروبة التي نسمع الآن لفظها من بعض الساسة والكتاب، فنسمع له رنينًا كرنين النقد المزيف. والمؤلف في الوقت الذي يعبر عن جزعه من هذا الانحراف يلفت النظر إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية التي أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك، الذي كان جسرًا عبر عليه الاستعمار ليعبث فسادًا في أرجاء حياتنا كلها.

ويتناول الكتاب خصائص العروبة ودعائم المجتمع وعصور الازدهار، وعصور الانهيار، وقضية البعث العربية، وقضية الشعوبية في العصر الجديد الحديث.

٢٩) الجانب العاطفي من الإسلام

بحث في الخلق والسلوك والتصوف، يقع الكتاب في ٢٩٩ صفحة، (طبعة دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٠م). هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من مواريثنا العلمية الثمينة تفتقر له الحياة المعاصرة وهو الجانب العاطفي والنفسي والخلقي وتكامله مع الجانب العلمي والفكري. وهو محاولة لإخراج التصوف من صومعته، ليكون طاقة محركة. ويلفت المؤلف النظر إلى أن هذا الجانب على حلالته - مغموط الحق، لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى. وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه الدراسات؛ فالتعاليم المدنية تزحف من كل فج وتقتحم طريقها إلى النفوس من مسارب لا حصر لها. وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإنّ الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف.

ومن عناوين الكتاب: في باب الإسلام والإيمان والإحسان: الإلحاد خرافة علمية، قوانين الإحسان وأخطاره، وفي باب دعائم الكمال النفسي: إشارات الطريق: التوبة، الورع، الخوف، الرجاء، الحب.

٣٠) عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

من إصدارات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٩٨٠م)، وهذا البحث كان ضمن بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، ركز فيه الشيخ الجليل على أن عالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديدة بالإكبار.

٣١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين

يقع في ٢٥٩ صفحة، الطبعة الخامسة لدار الكتب الإسلامية عام ١٩٨٨م. الكتاب مناقشة حرة للمستشرق المجري "جولد تسيهر" في كتابه "العقيدة والشريعة" الممتلئ بالأحقاد والضغائن ضد الإسلام. وهذا المستشرق مكث بضع عشرة سنة يقرأ ويتعمق ويحيط بمفاهيم الإسلام حتى أخرج كتابه بعنوان "العقيدة والشريعة في الإسلام" وقد افترى هذا المستشرق، باسم التحقيق التاريخي، على الإسلام افتراء لا حد له. وأحصى عشرات الشبهات ونظمها في سلك واحد باسم التطور العقدي والتشريعي وأعمال المستشرقين يصعب أن تخلو من العيوب؛ فذلك يتنافى مع وظيفة الاستشراق الذي يمهد للاستعمار. كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة

وقد كشف الغزالي أن كتاب هذا المستشرق من شر ما كتب عن الإسلام وأسوأ ما وجّه إليه من طعنات. وقد كان رد الغزالي على هذا الكتاب مناسبة لاستيفاء الحقائق العلمية والتاريخية التي يزخر بها تراث أمتنا.

من عناوينه الرئيسية

محمد رسول الله: الانقياد لله طبيعة الأديان كلها، لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة المحروم على السنة، تطور الفقه الإسلامي: عموم الرسالة وخلودها، بين الشريعة والقانون الروماني، التطور في العقيدة: معنى المتشابه في القرآن، الزهد والتصوف: الإسلام يخدم الروح والجسد، الفرق: طبيعة الخلافات بين المسلمين، وراثة الخلافات حماقة، حول الوحدة الإسلامية، المسلمون.. بين الاستعمار والصهيونية.

٣٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب

طبعة دار الاعتصام ١٩٧٩م في ٢٨٨ صفحة. وضع المؤلف هذا الكتاب لخدمة الثقافة الإسلامية مستهدفًا أمرين، أولهما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة، متحريًا الحق جهده، ومتلقفًا الحكمة حيثما وجدها، وماحيًا الشبهة في صمت ما استطاع. وثانيهما: تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا، وتوقيف القرّاء على خبيئها، حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يومًا. والكتاب استكمال لما كان قد وضعه المؤلف في كتابه "الجانب العاطفي في الإسلام"، ومن عناوينه: التفاوت بين التقدم الروحي والتقدم العقلي، العلم ظهير الإيمان، الإيمان بالغيب ليس إيمانًا بالوهم ولا إيذانًا بالفوضى، صدق المعرفة ووحدة الوجود، وحدة الوجود خرافة، ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة، فن العزلة والاختلاط، نبوة وكتاب وأمة وراثة.

٣٣) حصاد الغرور

يقع في ٢٠٧ صفحات، (المختار الإسلامي (القاهرة) ١٩٧٩م)، ودار القلم (دمشق) ١٩٨٨م، الكتاب رصد لأحوال الأمة قبل الهزيمة أمام اليهود عام ١٩٦٧م وبعدها، واستشعار لمدى قربها أو بعدها من دينها، ومدى قوة التيارات الأجنبية على التطويح بها، ورد على التوجيهات الزائفة والتعليقات المنحرفة.

ويؤكد المؤلف أن العراك بيننا وبين بني إسرائيل سوف يمتد سنين عددًا، فإذا أحببنا أن نذوق حلاوة النصر فالطريق إليه بيّنة. أما إذا كررنا أنفسنا القديمة، وأساليبنا القديمة، فلن نحصد إلاّ ثمرات الغرور، وما أبشع مذاقها وأمره!! ويظهر المؤلف قلقه وخشيته على الإسلام نتيجة لموقف العرب من هذا الدين؛ فهم يريدون أن يدخلوا في معركة دينية بغير دين! ومع ان مطارق الهزيمة التي وقعت على أم رأسهم كانت كفيلة بإزالة هذا الوهم، إلاّ أن عملاء الشيطان يستميتون في مكافحة هذه اليقظة، والحيلولة دون اعتناق العرب للإسلام، كلاّ لا يتحرأ...

ومن أهم عناوينه: صراع بين رسالتين، يهودية وصهيونية، من أين تهب رياح التغيير، هل عن الإسلام غنى؟ متى تنتهي هذه الأحقاد؟ جذور المعركة القائمة، (القيم الروحية) كلمة غامضة مبهمة، أجيال النصر وأجيال الهزيمة، بواعث الحقد على لغتنا، تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها، تزوير التاريخ، مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين، إسلام واحد وإن اختلف الفقهاء.

٣٤) الإسلام في وجه الزحف الأحمر

يقع في ٢٠٦ صفحات، صدر عن مكتبة الأمل (القاهرة) "بدون تاريخ"، وصدر عن المختار الإسلامي (القاهرة) ١٩٧٦م. كتب الغزالي كتابه هذا في ظروف صعبة شديدة، حيث كان عدد من الحكومات العربية قد تبنّت الشيوعية وتحالفت مع الإتحاد السوفيتي، ويقول في مقدمته "إني كتبت هذه الصحائف بالحقائق العلمية والتاريخية، وأوراقها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته. وأعرف انني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام". وفي حوار شفهي قال عن الكتاب: "كم نصحني من الزملاء والمحبين

ان أصرف النظر عن كتابة "الإسلام والزحف الأحمر"... بئست حياةٌ أدمن فيها في جلدي، ويتنطع الظالمون صائلين، لموت في هذه الحال أشرف وأجلّ.. ".

ومن عناوينه: بداية الصراع، الشيوعية والدين، الشيوعية والحريات، الأحوال الاقتصادية في ظل الشيوعية، المسلمون في الإتحاد السوفياتي، الإسلام بين الحياة والموت، فلسطين والشيوعية وواجبنا العام.

٣٥) قذائف الحق

يقع في ٢٤٢ صفحة، من منشورات المكتبة العصرية (صيدا - لبنان) (بدون تاريخ) لكن المؤلف أعد مقدمة الكتاب وهو في الرباط عاصمة المغرب يستمع إلى أخبار القتال بين العرب واليهود عام ١٩٦٧م. وأصدرته ذات السلاسل (الكويت) ١٩٨٠م.

إنّ المؤامرة على الإسلام وأمته الغافلة قد أخذت أبعادًا جديدة مخوفة، وأن المصارحة هنا أجدى في رد الخطر، ووقف بوادر الشر قبل أن تستفحل، ويرى المؤلف أن قوى الإسلام قد وهنت، وأمسى الإلحاد ذكاءً والإيمان غباءً... أما كهان البوذية والنصرانية فمكانتهم لا تمس... وكما استعان الاستعمار العالمي بالكنائس الغربية على إذلال الإسلام من قبل فإنه يوسع دائرته ليشرك الكنيسة الشرقية في ذلك. ويعد الغزالي بأنه في هذا الكتاب يلتزم جانب الدفاع ومستعد لوقف المعركة إذا توقف المعتدون.

من أهم ما جاء فيه، العقل أولاً.. ثم ننظر فيما يقال، العهد القديم وافتراءاته على المرسلين، تحرك ضد عقيدة التوحيد، ماذا يريد الأقباط؟، الإسلام وجماعة الإخوان، صفحات من مذكرات معتقل / الحقائق تدلكم، نحن نريد الحفاظ على وحدة مصر الوطنية، القومية العربية ومعناها، حديث الذباب، الدعوة الإسلامية وسياسة بعض الحكام، العقيد الناصري، سياسة الحكم والمال في الإسلام، العرب بدون الإسلام صفر، لا دين حيث لا حرية، محنة الضمير الديني هناك.

٣٦) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر

يقع في ٢١٠ صفحات، طبعة مكتبة وهبة الثالثة عام ١٩٩٠م. ألّف الغزالي هذا الكتاب استجابة لطلب جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، بمناسبة انتهاء القرن الهجري الرابع عشر، وقد ضمّنه وصف العلل التي تكتنف الدعوة والدعاة في شتى الآصار والأمصار. ويتهيأ الشيخ الغزالي في هذا الكتاب لاستقبال القرن الخامس عشر بإلقاء نظرة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضي الطويل، لنحاكم أنفسنا إلى مبادئها الثابتة، ولنعرف ما لنا وما علينا بدقة، كما قدم فيه وصفًا لشُعَبِ الهجوم المعاصر على الإسلام، والطريقة المثلى لمواجهته في شتى الميادين.

ومن أهم عناوينه: شبهة مردودة، الدعوة وأحوال الدولة الداخلية، الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية، أسباب انهيار الحضارة الإسلامية، ذبول الأدب العربي، الفساد السياسي، أبعاد الهزيمة الإسلامية، كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة، ولاؤنا لمن؟ الأبعاد الجديدة: بعد ما صعدوا هبطنا.

٣٧) أزمة الشورى في المجتمعات العربية والإسلامية

دار الشروق (القاهرة) ١٩٩٠م. يتحدث الكتاب عن افتقار عالمنا العربي والإسلامي في ممارسة الشورى، الأمر الذي يعتبر من أهم الركائز التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي والقانون الدستوري الإسلامي

٣٨) فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

يقع في ١٧٩ صفحة من منشورات المكتبة العصرية بيروت (الطبعة الثانية ١٩٨٠م)، وكذلك دار الاعتصام (القاهرة) ١٩٨٠م. في هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، هو جانب الذكر والدعاء. فمن يقف بين يديّ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وسلم، وهو يدعو ربه، يشعر أنه أمام منْ في الدعاء ذاهب

في الطول والعرض لم يؤثر عن مثله مـن المصطفين الأخيار. وهذه حقيقة علمية رأى المؤلف أن يثبتها في هذا الكتاب.

ومن أهم عناوينه: كيف عرفنا محمد بالله، الحب أساسه والشوق مركبه (يصف فيه قوة العاطفة ودفقها في مناجاته عليه الصلاة والسلام)، أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة (يتأمل فيه صورة يوم واحد من حياة نبي الإسلام)، أرق الدعوات بعد الطعام والشراب، بمجالس النبوة، ليل أبيض (يصف فيه عبادة الليل)، في خضم الحياة (دعوات تتناول شؤون الحياة المختلفة) بناء البيت المسلم، معركة الخبز (دور الذكر عندما تضطرب أحوال العيش)، في السفر والعودة، متاعب الدنيا، هل الدعاء من الأسباب العادية؟ الأركان العامة (أركان الإسلام وأدعيته عليه الصلاة والسلام فيها)، ذكر وتذكير، نبيّ الرحمة ونبيّ الملحمة.

٣٩) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين

يقع في ٢٣٩ صفحة، طبعة دار القلم الأولى عام ١٩٨٧م، كما أصدرته دار الوفاء (المنصورة) ١٩٩٢م. ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه الأستاذ الإمام حسن البنّا الذي يصفه الغزالي بأنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري، فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل وتوضح الهدف. وهذا العمل هو تأصيل لتلك المبادئ وشرحها على ضوء تجارب المؤلف، المستفادة خلال أربعين عامًا في ميدان الدعوة، حيث إنَّ الظروف التي بدأ فيها حسن البنّا دعوته ما تزال قائمة مع خلاف طفيف حينًا وكثيف حينًا آخر. وإذا كانت الأصول العشرين للإمام البنّا هي المبادئ التي خاطب بها الجماعات الدينية في مصر على عهده، من أجل التأليف والتقريب بينها، فكانت مصاغة صياغة وسطية حكيمة، فإن الغزالي في هذا الكتاب قد أضاف إلى هذه المبادئ عشرة مبادئ أخرى، تختصّ بجوانب حياة المجتمع الإسلامي في داخله وفي علاقاته بغيره من المجتمعات. وتتعلق هذه المبادئ بوضع المرأة، وطبيعة الأسرة، وحقوق الإنسان، ووظيفة الحكام، وأساس الحكم، وطبيعة الملكية، ووظيفة الدعوة الإسلامية، والعلاقة بغير المسلمين، والمواثيق الدولية، والتعاون الدولي ودور المسلمين فيه.

من أهم عناوين الكتاب: هيمنة الإسلام على الحياة كلها، الكتاب والسنة معًا، بين النص والمصلحة، أخبار الآحاد ووزنها العلمي، الاجتهاد الفقهي علامة صحة، التعصب المذهبي، نحو سلفية واعية، الخلافات الموروثة: قيمتها وأثرها، التوسل: ما يجوز منه وما لا يجوز، الانحرافات النفسية والبدنية، الحب والبغض في الله.

٤٠) واقع العالم الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر

يقع هذا الكتاب في ٨٠ صفحة. صدر في القاهرة عن دار ثابت عام ١٩٨٣م. يتناول الكتاب قضية المؤامرات التي تُدبر لهذا الدين ولأتباعه، والجهود التي تبذل لصرف المسلمين عن دينهم وتراثهم وعقيدتهم، حتى يزول ويتلاشى. ويتحدث عن واقع العالم الإسلامي وانهياره أمام هذه القوى والمؤامرات، ويشير بوجه خاص إلى قضايا الاستبداد السياسي والفساد الإداري، وامتهان حرية الرأي، وحقوق الإنسان المهدورة في واقعنا الإسلامي، والفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين.

٤١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

يقع في ١٤٣ صفحة: صدر أولاً عن طريق دار البشير (القاهرة) ١٩٨٩م، ثم عن دار نهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة) ١٩٩٦م. وهو متابعة للنشاط الإسلامي المعاصر، ودراسة شاملة لأسباب تقهقر المسلمين المدني والعسكري، والعناصر الحيوية التي فقدوها حتى دهاهم ما دهاهم. وفي الكتاب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الإسلامي، ومن عناوينه الرئيسية: صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة، في الثقافة والتربية والأخلاق، كلام في الإسلام، محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها، بين الاعتدال والتطرف، المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة، فقه الدعوة الإسلامية ومشكلة الدعاة

٤٢) هموم داعية

يقع الكتاب في ١٧٣ صفحة، من منشورات دار البشير(القاهرة) الطبعة الثانية ١٩٨٥م. في هذا الكتاب نماذج محدودة لمثار الشكوى ومصدر هموم الداعية، حيث إنَّ الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، والدعاة والعاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لينعدم السقط، وينفى الغلط

ومن أبرز عناوين الكتاب: السلفية التي نعرف ونحب، لا سنة من غير فقه، هم بنو إسرائيل فبنوا من نحن؟ أحوالنا العامة قبل الهزائم التاريخية الكبرى، عدوان من البشر أم عقاب من القدر، عوائق مزعومة أمام الإسلام، أين الإسلام في هذا الركام؟ مستقبلنا رهن بوفائنا لديننا، حقائق خفية وراء حرب تعيسة، على مسار الدعوة.

٤٣) مائة سؤال عن الإسلام

يقع هذا الكتاب في مجلدين، وهو من منشورات دار ثابت للنشر والتوزيع، عام ١٩٨٤م، ويتضمن هذا الكتاب مائة سؤال في نواحي الإسلام المختلفة، حيث يقوم الشيخ الغزالي بالرد عليها. وكلها من أهم الموضوعات التي تدور حولها استفسارات المسلمين.

ومن الموضوعات التي وردت الاستفسارات عنها: الإجماع في الإسلام، والمعالم الأولى للدولة الإسلامية ومتى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ وهل ينبغي في عصر تفجير الذرة وعزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟ وما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتها بالإنسان وما العلاقة بين الإسراء وبني إسرائيل؟ وهل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟ وما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو لها؟ وما هي نظم الحكم في الإسلام؟ وما موقف الإسلام من تحديد النسل؟ وما حكم النقاب في الإسلام؟

٤٤) علل وأدوية

يقع في ٢٨٣ صفحة، أصدرته دار القلم (دمشق) ١٩٨٨م، كما صدر عن منشورات دار الدعوة (القاهرة) ١٩٩١م. يتناول دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء. ومن أهم عناوينه: الإنسان في القرآن، كيف غير الإسلام مسار العالم، أولو الالباب في كتاب الله، وجهة نظر في أقدار الرجال: مالك، محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، مدرسة رائدة وإمام ضخم، عندما يكون الإلحاد أذكى، الإسلام وحده يجب أن يعد، ضرورة هتك الأستار، شائعات في ميدان العلم، المعالم الأولى في عظمة محمد، رحلة من العلم إلى الإيمان، التعليم الأصلي، أسرار وراء تخلفنا، وظيفتنا العالمية، الثقافة الإسلامية في محنة، الأمانة في نقل التراث.

٤٥) مستقبل الإسلام خارج أرضه. كيف نفكر فيه؟

يقع الكتاب في ٢٠٢ صفحة، دار الشروق ١٩٨٤م، وصدر كذلك عن مؤسسة الشرق للعلاقات العامة (عمان) ١٩٨٤م. يحاول الكتاب أن يجيب عن أسئلة مهمة مثل. هل أدى المسلمون رسالتهم في إبلاغ الإسلام ونفع الناس به؟ وهل تقوم الدعوة الإسلامية على سياسة مرسومة وأجهزة منظمة وجهود منسقة، ودراسة لأحوال الأمم التي ندعوها؟ وهل نحسن عرض أنفسنا على الآخرين؟ أم أننا نظلم الرسالة الخاتمة بسوء العرض حيناً، وبسوء الفهم حينا آخر؟

من عناوين الكتاب. غربلة المعارف قبل تقديمها إلى الناس، شخصية المسلم المعاصر، هل تفيد الدعوة؟ لكي تنجح دعايتنا. أهل القرآن وأهل الحديث

٤٦) قصة حياة: مقتطفات من مذكرات الشيخ

مخطوطة بخط اليد، وهي منشورة في هذا العدد: تقدم نبذة مختصرة عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ويحكي لنا الغزالي كيف برز إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وفي أيام كئيبة، كان الانجليز فيها يحتلون مصر، وأقطارًا أخرى فيحاء من أرض الإسلام الجريح، وكيف كان القرن الذي ولد فيه من أسوا القرون التي مرت بديننا الحنيف، فلم يبلغ سبع سنين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال، قد رمى "الخلافة الإسلامية" فأصبحت شبحًا لا روح له. ثم يتكلم المؤلف عن تعليمه الديني والمدني، وعن الاضطرابات السياسية التي عاصرها، حيث يتحدث عن تعطيل الدستور على يد محمد محمود باشا، ثم إلغاء الدستور على يد اسماعيل صدقي باشا عندما تولى الحكم، ثم الإتيان بدستور جديد.

ومن عناوين الكتاب: ذكريات الطفولة، التعليم الديني والمدني، من السجن إلى المعتقل، الانتفاع بالحريات الديمقرطية، الأصول السياسية، جماعة الاخوان المسلمين.

٤٧) سر تأخر العرب والمسلمين

طبعة دار الريان للتراث ١٩٨٧م في ١٨٧ صفحة. لاحظ المؤلف أن مشكلات الدعوة الإسلامية تتكرر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. فأزمة الدعاة الواعين شديدة، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة، والمسلمون الحريصون يسيؤون أحيانًا إلى أنفسهم وأهليهم.. لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها، أو تملكهم العاطفة المنفصلة عن التعقل، فتضرّ ولا تنفع.

والكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم. ومن عناوين الكتاب: أين الخلل؟ بعض سنن الله الكونية من القرآن، أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية، العلم المغشوش، حد أدنى لثقافة المسلم، مرتبة أخرى من المعرفة الدينية، جيل يذهب ضحية العجز والغدر، أحوال اليوم وآمال الغد، والوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة.

٤٨) الطريق من هنا

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة، صدر عن دار الصحوة (القاهرة) ١٩٨٥م، ثم عن دار الشروق، (القاهرة) ١٩٩٢م. في هذا الكتاب صور متنوعة لمفارقات بين واقعنا وديننا في الماضي والحاضر، يدعو الشيخ إلى ان تجد حظها من التدبر والوعي فإن المستقبل - كما يقول - منوط بهذه اليقظة.

ومن أهم العناوين فيه: دعوات تائهة في أمة مهددة بالضياع، لماذا جفّت ينابيع هذا العلم؟ قضية الأخلاق عندنا في عالم المرويات، أمة الجد يجب أن تؤدي رسالتيها أما لهذا الحق من حد، حملة صليبية على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الحكم الإسلامي لا ينطلق من فراغ، الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول في حجة الوداع.

٤٩) جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج

يقع في ١٩٢ صفحة، صدر عن دار الصحوة (بدون تاريخ) كما صدر عن دار القلم (دمشق) ١٩٩١م، يحمل الكتاب أن الجهاد الإسلامي هو دفاع عن الأرض والعرض، والحاضر والمستقبل، والتاريخ والشخصية، والدين والدنيا، ولا يقتصر الإسلام على الطبيعة العسكرية؛ فالانتصار لله ورسوله يكون في ميدان الإعلام، وفي ميدان المال والعلم، مدنيًا كان أو عسكريًا، وفي ميدان السياحة والكشوف، وفي ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية.

ومن أهم عناوينه: واقع لا نتجاوزه، أوهام سيئة، تأويلات الجاهلين، ما يسمونه آية السيف، الإسلام هو الأساس الشرعي للحكم في أي بلد إسلامي، الجيش الذي لا يقهر أكذوبة لها تاريخ.

٥٠) الحق المر

صدرت للمؤلف بهذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات عديدة منها طبعة لدار الشروق (القاهرة) ١٩٩٣م، وهي حصاد ثمرات قلم الشيخ الغزالي، ومع أنها كلمات قصيرة لكنها فواتح لمعان جمّة عند أولي الغيرة على دينهم وأمتهم.. تغوص في واقعنا الحي لتشد أزر المجاهدين في سبيل الله، وتحق الحق وتبطِّل الباطل، وستظل هذه الكلمات وميضًا يبرق بالإيمان ويحامي عن الحق. وهذه السلسلة من الكتب مجموعات من مقالات قصيرة ذات موضوعات شتى تستمد سطورها من الواقع وما يستجد على الساحة من قضايا، وتستهدف إثارة الوعي الكامن في أفئدة المؤمنين، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذي يكشف الظلام ويوضح الطريق. وما أكثر الأخطاء التي تستقر بين الناس لأنها لم تجد من يصححها إن الجهل بالحقيقة له دخل كبير في صياغتها عندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة فلن تجدى في مقاومته إلاّ قذيفة مثلـه. ولابد أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز واحد يقظ يكشف كل شبهة ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب، فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية.

٥١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا

يقع هذا الكتاب في ٤٢٤ صفحة، صدر عن مؤسسة الشرق للعلاقات العامة (عمان) ١٩٨٥م، وكذلك عن دار الشروق (القاهرة) عام ١٩٨٥م وينطلق الكتاب من فرضية أن هناك فراغًا حقيقيًا في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام طفولي وسطحي، يستقي من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه وبين عهود الازدهار ترة. ويصرح المؤلف أنه – ومن منطلق إسلامي – يرفض التبعية النفسية للآخرين، وكذلك يرفض ما ينسب للإسلام من تصورات هي ليست منه. والكتاب يصارح المسلمين بما هم عليه من قصور في الفهم يسهم في تسهيل الغزو الثقافي الخارجي.

ومن موضوعات الكتاب: الإسلام دين المفكرين، التحدي الثقافي، دين يكره الحضارة وحضارة تكره الدين، غزو مزدوج وأمة تافهة، أمة وراثة أم وراثة أمة، نباتات سامة في حقول الإصلاح، متناقضات قاتلة.

٥٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم

يقع في ٢٤٤ صفحة، دار الصحوة (القاهرة) ١٩٨٩م، ودار القلم (دمشق). يعالج الكتاب المحاور الخمسة التي أفاض القرآن بذكرها، وانتهى المؤلف إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: الله الواحد، ومن عناوينه الفرعية: التوحيد، القدر والجبر في القرآن الكريم تنقية للعقائد والسلوك.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه، ومن عناوينه الفرعية: الروحانية في الإسلام، ارتباط الذكر والدعاء بمشاهد الخليقة في الأرض والسماء، هل عزلة المؤمن هي الحل؟

المحور الثالث: القصص القرآني، من عناوينه الفرعية: أبعاد الإسلام النفسية والاجتماعية، التعصب للعرب، قصة العلم والحكم في تاريخنا.

المحور الرابع: العلوم الإنسانية، كعلم التاريخ، والسياسة والثقافة.

المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع، من عناوينه الفرعية: الحضارة المعاصرة نحيفة الخلق، الإحسان، الربا، خيانة وعذر.

٥٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة، الطبعة الأولى لدار الشروق عام ١٩٨٩م. وهو من الكتب التي كلف الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – تأليفها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وذلك إنصافًا للسنة النبوية وذودًا عنها جراءة القاصرين وذوي العقول الكليلة

وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره ونسوا جذوره.

ولقد ساهم هذا الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، وكان له أثرًا حميدًا عند كثير من المسلمين والمسلمات الذين ردت إليهم حلاوة الإيمان وبرد اليقين بعد أن انزاحت عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل.

ومن موضوعات الكتاب: في عالم النساء، الغناء، الدين بين العادات والعبادات، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولاً، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

٥٤) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

يقع الكتاب في ٢١٨ صفحة، دار الشروق الطبعة الخامسة ١٩٩٤م. في هذا الكتاب خواطر منشورة جمعت بين العلم والأدب والنقد والتاريخ والفتوى الغابرة والمعاصرة، لكنها جميعًا تتصل بقضايا المرأة والأسرة والمجتمع الصغير.

من عناوين الكتاب: حسّنوا صورة المرأة المسلمة، الدور الغائب للمرأة، المساواة ثابتة في القرآن، المرأة في الأدب والعلم. في باب مفاهيم يجب أن تصحح: العديد من المفاهيم المتعلقة بموضوع المرأة وليس لها أصل من الإسلام.

٥٥) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

يقع في ٢٢٤ صفحة، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، والكتاب هو حديث حول العلوم النقلية الإسلامية، وطرائق تدريسها ووجوب النظر في إعادة بناء برامجها، وإصلاح مختلف جوانب العملية التعليمية المتعلقة بها. يقع الكتاب في عشرة فصول عناوينها: إسلامية المعرفة أو المعرفة الإسلامية، أبعاد الوحي الأعلى، أغلفة تغطي الحقيقة العظمى، توضيح الصورة ومنع الغبش، حقائق في التربية، لمحة عن الابتداع، إعادة كتابة التاريخ، على هامش التفسير، على هامش السنة، مستقبل العربية وآدابها.

٥٦) كيف نتعامل مع القرآن الكريم

يقع الكتاب في ٢٣٦ صفحة، الطبعة الثالثة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٩٢م، كما أصدرته دار الوفاء (المنصورة) ١٩٩٣م. في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة. وهذا الكتاب عبارة عن مدارسة حول مناهج فهم القرآن المجيد وقضاياه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديمًا وحديثًا، وكيفية كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر، ومعرفته وعلمه ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة تبعًا لتعدد وتنوع الموضوعات التي تشملها، وذلك في محاولات بذلها المتدارسان لاستخلاص وعي قرآني بشروط معرفية تقارب ضوابط المنهج التحليلي الناقد.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى تؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر.

ومن عناوين الكتاب: من آثار هجر القرآن، العودة إلى القرآن، من تجربتي الذاتية، شمول الرؤية القرآنية، أبعاد المنهج المطلوب، الحاجة إلى فقه السنن القرآنية، الآثار المدونة لتعطيل قانون السببية، إنفصال العلم عن الحكم، الفقه الحضاري، إدراك السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، وسيلة الشهود الحضاري، والشهود التاريخي.

٥٧) صيحة تحذير من دعاة التنصير

يقع الكتاب في ١٥٥ صفحة، دار الصحوة (القاهرة) لعام ١٩٩١م. ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن اطلع على كتاب التنصير الذي يمثل سجلاً للمارسات والمحاورات والمقترحات والنتائج التي انتهي إليها أحد المؤتمرات

البشرية في أمريكا، وهو المؤتمر الذي تخصص في قضية تنصير المسلمين في العالم، وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار.

يؤكد المؤلف أن هذا المؤتمر مستنكر الأهداف والوسائل، ومن حق المسلمين في المشارق والمغارب أن يتنادوا بأخذ الحذر والتأهب للدفاع. والكتاب محاولة لمراجعة المواقف السابقة، وبيان أسباب الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين الإسلام والنصرانية، والتي عند التحقيق ينكشف أننا لسنا المسؤولين عنها. وهي دعوة للعقلاء والمخلصين للبحث عن الحقيقة في عصر العقل وبالثوابت الدينية التي تتفق عليها كل الرسالات السماوية.

من عناوين الكتاب: مبادئ قبل النقاش، ليس عيسى إلهًا، المسلمون أتباع الأنبياء جميعًا، نموذج للتنصير الرسمي، قضية المرأة عندنا وعندهم، المرأة في أوربا وأمريكا.

٥٨) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

طبعة دار الشروق الثانية ١٩٩٦م في ٥٦٠ صفحة. هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم، تهدف إلى تقديم تفسير موضوعي لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب، أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم صورة لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها، والتفسير الموضوعي حلقة من التفسير، ولا يغني عن التفسير الموضعي بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة.

وعناوين الكتاب تشمل كل سور القرآن الكريم، حيث قدم المؤلف - رحمه الله - تفسيرًا موضوعيًّا مختصرًا لكل سورة من سور القرآن الكريم.

٥٩) من كنوز السنة: تحت الطبع.

كتب عن الشيخ محمد الغزالي

١ - دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي، د. أحمد حجازي السقا.

٢ - الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم.

٣ - الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارف الفكرية، د. محمد عمارة.

٤ - الشيخ الغزالي ومعركة المصحف، أ. محمد شلبي.

٥ - الشيخ الغزالي كما عرفته في نصف قرن، د. يوسف القرضاوي.

٦ - نظرات في فكر الغزالي، د. عامر النجار.

وكيل التوزيع العام

المركز الدولي للخدمات الثقافية

International Center for Cultural Services

P. O. Box: 135242
Telefax: (961-1) 654-250
Beirut-Lebanon

صندوق بريد: ١٣٥٢٤٢
تيليفاكس: ٢٥٠-٦٥٤ (١-٩٦١)
بيروت - لبنان

الاشتراك السنوي

◆ **في دول الخليج، أمريكا، استراليا، اليابان، أوروبا، نيوزيلندا:**

- للأفراد 50 دولار أمريكي
- للمؤسسات 100 دولار أمريكي

◆ **في باقي دول العالم:**

- للأفراد 25 دولار أمريكي
- للمؤسسات 70 دولار أمريكي

❖

التسديد:

- شيك مصرفي مسحوب على أحد المصارف الأجنبية لأمر المركز الدولي للخدمات الثقافية (International Centre for Cultural Services)

أو

- تحويل المبلغ إلى العنوان التالي:

International Center for Cultural Services
Bank Kuwait & the Arab World s.a.l
Main branch
Account No. 10.02 4612. 61352.00
Telex: 23778 P 22383 Bencott le
Beirut - Labanon

Islāmīyat al Ma'rifah

A Refereed Arabic Quarterly
Published by the International Institute of Islamic Thought



Vol. II No. 3 Ramaḍān 1417AH / January 1997AC